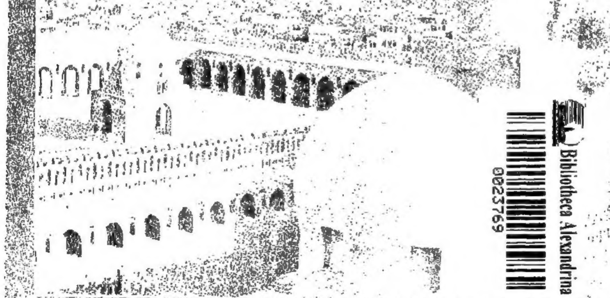
حضارة مصر الإسلامية

في

العصر الطولوني



حضارة مصر الإسلامية

العصر الطولونى

تأليف
الدكتور حسن أحمد محمود
استاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
١١ ش جواد حسنى - القاهرة
ص.ب : ١٣٠ - ت ٣٩٢٥٥٢٣



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ما أشبه الحضارة الإسلامية بالصرح الشامخ الذى أسهمت فى بنائه شعوب الأرض التى دخلت فى الإسلام ، كل شعب منها وضع لبنة ليرتفع البناء ويتطاول ! .

وإذا كان هذا الصرح هو جماع هذه اللبنات ، فإن هذه الحضارة هى جماع أساليب الشعوب فى الحياة ، وجماع تراثها ، وفكرها .
وليس من الواجب أن تنصرف جهودنا كلها إلى هذا الصرح المكتمل ، لنصف ما فيه من روعة وبهاء ، وما يمتاز به من وحدة الأسلوب والطابع ، دون مجاوزة الصورة العامة إلى البنية والتركيب ... دون مجاوزة المظهر إلى الجوهر ... دون العناية باللبنات نفسها ... بدراسة البيئات الإسلامية للتعرف على الجهد الذى أسهمت به فى البناء ، والتفاعل الذى شهدته بين التقاليد العربية الوافدة مع الفتح أو الهجرة ، وبين التقاليد المحلية المتأصلة منذ القدم .

وقد كانت مصر من أوفر هذه البيئات مساهمة فى بناء صرح الحضارة الإسلامية ، كما شهدت أرضها تفاعلا بين التراث العربى الوافد والتراث المصرى الأصيل ، يجب أن نعنى به بالدراسة والبحث .

وقد كان النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى بداية فصل جديد فى تاريخ مصر الإسلامية ، فقد شهد نهاية التبعية السياسية المطلقة ، ورأى ميلاد الاستقلال كما تصوره المسلمون فى العصور الوسطى : فقد ظهر بنو طولون فى مصر ، وحققوا لهذه البلاد ذلك الاستقلال الذى تحقق لكثير من الأمصار الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا ... وكان هذا العصر

من ناحية أخرى بداية الاندماج بين التقاليد العربية والتقاليد المحلية ، أو بمعنى آخر شهد ميلاد حضارة مصر الإسلامية بالمعنى المفهوم .

لذلك آثرت أن أتناول العصر الطولونى بالدراسة ، وأن أطبق فى دراسة الأحوال السياسية منهج ابن خلدون وتصوره لمعنى الدولة وطبيعتها ، وأنها أقرب شبهاً بالكائن الحى : لها ميلاد وشباب وشيخوخة واضمحلال ، وأنها تعتمد على العصبية ، ازدهارها فى تماسك العصبية وبقائها ، واضمحلالها فى انحلال هذه العصبية وتفرقها ؛ مع العناية بضبط كثير من أحداث العصر فى ضوء ما استجد من دراسات ونشر من وثائق . وانتهيت إلى أن ظهور هذه الدولة كان فى الحقيقة تجربة فريدة فى الحياة السياسية .

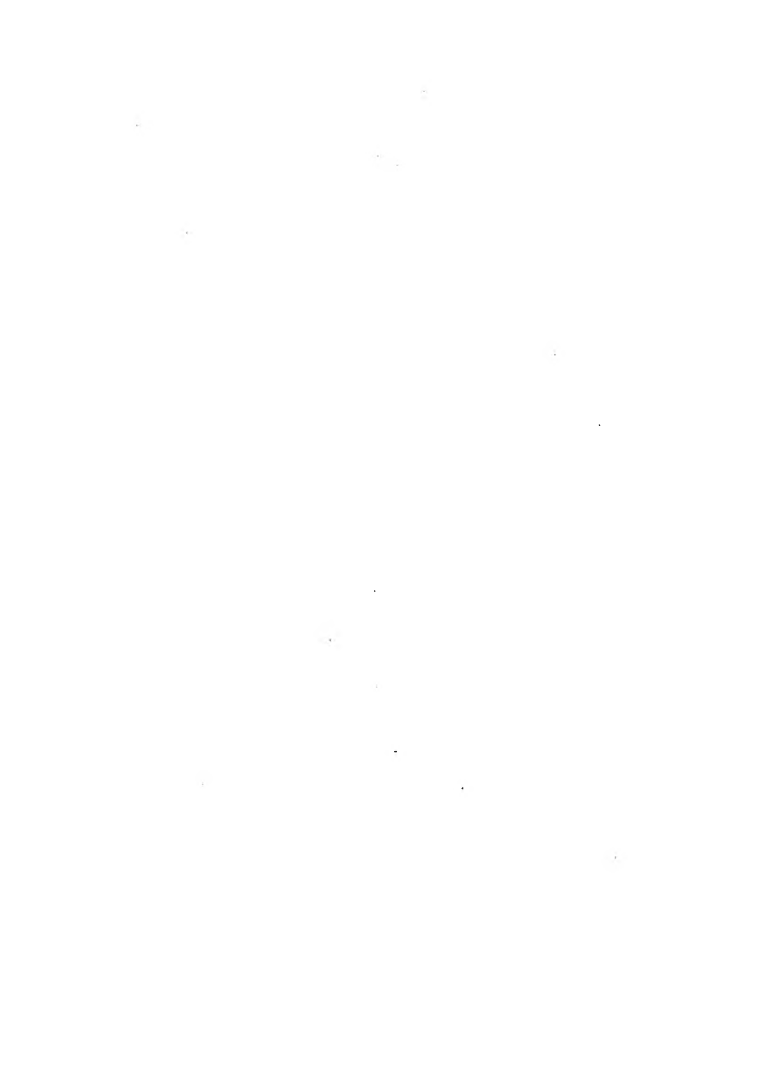
ثم عرضت لمكان العصر الطولونى من حضارة مصر الإسلامية ، ولما كان لهذا الاستقلال من صدى فى مظاهر الحضارة فى ذلك العصر ، وانتهيت أيضاً إلى أن العصر الطولونى كان بداية الازدهار فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى مصر .

وإنى أرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع قد أسهم فى توضيح الدور الذى لعبه الطولونيون فى تاريخنا الإسلامى .

والله أسأل أن يهدينا إلى ما فيه الصواب .

حسن أحمد محمود

محتويات الكتاب



الباب الأول

أحوال العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى

كانت مصر في عصر الولاة جزءاً من عالم إسلامى ممتد من حدود إيران الشرقية حتى المحيط الأطلسى . وكانت مصر قد اندمجت فى هذا العالم تنبض بأحاسيسه وتتأثر بما تشهده عاصمة الخلافة من تطورات سياسية أو بما يقع فى أرجاء ذلك العالم الفسيح من أحداث .

وكان النصف الأخير من هذا القرن الثالث عصراً خطيراً فى تاريخ العالم الإسلامى ، حافلا بتطورات هامة كانت تؤذن بتطور كبير فى مجال التفكير السياسى والحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ولا يمكن أن تفهم الأحداث التي وقعت بمصر منذ النصف الثانى من القرن الثالث علي وجهها الصحيح ما لم نعرض لهذه التطورات التى شهدها العالم الإسلامى ، ففيها التفسير الصادق الصحيح لما شهدته هذه البلاد من أحداث .

وأهم هذه التطورات أن الأمصار الإسلامية التي رأيناها في عصر الراشدين والأمويين تخضع للسلطة المركزية فى المدينة أو دمشق وتستلهمها التوجيه وتوفد إليها الحاضرة ولاة أو عمالا تطول إقامتهم أو تقصر ، ينفذون ما يرسم الخلفاء من سياسات أو ما يصدرون من أوامر ، هذه الأمصار شهدت خروجا علي هذه المركزية ، شهدت عمالا لا تطول إقامتهم أو تقصر إنما يورثون الملك ويظفرون باستقلال محلي للبلاد التي يظهرون فيها .

وضحت جذور هذا التطور قبل القرن الثالث بل فى فجر الدولة العباسية وفى عنفوان قوتها . فقد استقل عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس ، وقام عبد

الرحمن بن حبيب عامل أفريقية بالثورة على الأمويين ، واعترف العباسيون به أميراً مستقلا وشهد المغرب قيام دولة الرستميين بتيهرت والأدراسة بالمغرب الأقصى ، والأغالبة بتونس . والطاهريين فى ايران . لكن هذه الظاهرة وضحت وظهرت واتسع انتشارها فى هذا القرن الثالث ، فظهر الصفاريون بسجستان ، والسامانيون فى بلاد ما وراء النهر ، والغزنويون فى بلاد الهند ، والطولونيون والأخشيديون فى مصر .

هذه التطورات لم تكن مجرد ظهور مغامرين يستقلون بهذا البلد أو ذاك ، إنما كانت أعمق من هذا بكثير ، كانت تطوراً بعيد المدى فى التاريخ الإسلامى وفى الحضارة ، وهى بقدر ما لها من هذه الأهمية تحتاج إلي استكناه ودراسة .

بعض الدارسين يرى فيها انحلالا أو تفككا للدولة الإسلامية وبداية للكارثة التي أودت بوحدة المسلمين ، ويرد ذلك إلي عاملين : ضعف السلطة المركزية ثم نمو سلطات الولاة علي حساب ضعف الخلافة ... والحقيقة أن هذه التطورات لم تكن تفككا أو انحلالا للدولة الإسلامية ، فقد دان هؤلاء الأمراء بالطاعة للخلافة واعترفوا بنفوذها الأسمى : يدعون للخليفة على المنابر أو يكتبون اسمه على السكة والطرز ويشاركون فى الجهاد . وكانت الخلافة تتدخل فى بعض الأحيان تدخلا مثمراً ، فقد قضت على الدولة الطولونية مثلا وظاهرت الأخشيديين فى محاولتهم الدفاع عن حدود مصر الغربية لرد هجمات الفاطميين .

كان العالم الإسلامى تجمعه وحدة الخضوع الاسمى لخليفة المسلمين ووحدة الولاء العميق للإسلام والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة هذا الدين والوقوف فى وجه الأخطار التى تتهدد العالم الإسلامى .

ومن الإسراف أن ترد نمو هذه الظاهرة إلى ضعف الخلافة ، فقد رأينا هذه المحاولات الاستقلالية تتضح في فجر الدولة العباسية وفي عنفوانها ، فقد استقل عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس أول العهد بقيام الدولة

العباسيـــة ، وظهرت بعض هذه الدول فى عصر المأمون . بل نجد هذه الخلافة فى بعض الأحيان تشد أزر هذه الحركات الاستقلالية .تدفعها دفعاً رغبة فى حماية بعض مناطق الأطراف أو عجزاً عن حكم هذه الأطراف حكما مباشراً . وليس أدل على ذلك من قيام الأغالبة فى تونس بتشجيع مـن الخلافة العباسية [1] .

كانت هذه الحركات فى الحقيقة تعبيراً عن أمرين : عن القومية وعــن الإقليمية . ذلك أن الإسلام حينما انتشر ذلك الانتشار العظيم فوق هذه الرقعة الفسيحة من الأرض قهر قوميات لها عراقتها في التاريخ والحضارة ، قهر الفرس والمصريين والبربر والقوط . هذه القوميات بعد أن أسلم أصحابها واستكانوا زمناً للحكم الخلافى المركزى ، لم يكن من المعقول أن يطول خضوعهم ، بل المعقول أن تجد هذه القوميات لها منصرفاً ومتنفساً فى هذه الحركات الاستقلالية التي حفل بها تاريخ الإسلام فى هذه الفترة .

ولعل أبلغ ما يعبر عن هذه القوميات الساعية إلي التحرر والمساواة ظهور حركة الشعوبية فى إيران . فالموالى من الفرس كانوا من وراء النجاح الذي حققه العباسيون فظفروا بمساواتهم بالعرب ، بل أغراهم ضعف العصبية العربية وتفرقها فى الأمصار وتخلى العباسيين عنها وتنكيلهم بها ومحاربتهم إياها إلى محاولة الفوز بكل النفوذ والسلطان ، بل طما بهم طمعهم إلى محاولة النيل من كل ما هو عربى ، وبلغت حركتهم هذه أوجها فى القرن الثالث الهجرى ، فأصبحت هجوماً سافراً يريد أن يشوه كل ما ينسب للعرب من تراث ، فأكثروا من التأليف فى مناقب العجم ووضعوا الكتب فى مثالب العرب ، ودسوا على الأدب والتاريخ نصوصاً اختلقت للحط من شأن العرب .

هذه الحركات ليست مجرد شعور بالحقد والكراهة للعرب بقدر ما هى تعبير عن القومية الفارسية . هذا التعبير اتخذ هذا المجرى الثقافى الأدبى

---

(1) Zalsy Hassan ; Les Tulunides p, 21 .

ولكنه التمس له طريقاً سياسياً فى صورة الدويلات الفارسية التى ظفرت باستقلالها فى إيران .

وكانت محاولات الأندلسيين والمغاربة والبربر والمصريين فى الاستقلال تعبيراً عن قومياتهم التي لبست لبوساً إسلاميا والتمست لنفسها تعبيراً إسلاميا فهى تريد أن تستقل ، وهي تعترف بالخليفة رأساً للدولة الإسلامية ورمزاً للوحدة الإسلامية . هذه الحركات الاستقلالية إذن تعبير واضح عن هذه الشعوبية أو هذه القوميات التي دانت للإسلام ودخلت فى طاعته .

وهى ليست تعبيراً عن القومية فحسب بل هى صورة للصراع الأبدى بين الإقليمية والمركزية . فالدولة الإسلامية دخلت فى طاعتها أقاليم جغرافية متباينة جنساً ولغة وطبيعة ، وهي إن كانت قد دانت للسلطة المركزية قرناً أو قرنين ، غير أنها سرعان ما فرضت نفسها علي التاريخ والحوادث مختفية وراء هذه الحركات الاستقلالية وملتمسة ضعف الخلافة أو انشغالها ، وكيف يمكن توحيد عالم بأسره يمتد من الصين إلى المحيط الأطلسى فى سلطة متمركزة فى بغداد .

وثمة حقيقة أخرى وهى أن هذه التطورات كانت انتصارا حقيقيا للدعوة الإسلامية ولروح الإسلام . فالإسلام كما نعلم لم يفرض امتيازا للعرب علي حساب غيرهم من سائر المسلمين . ولم يفترض رسول الله أن يستبد العرب بالسلطان أبد الدهر وأن تسيطر قريش وحلفاؤها من العرب على أعنة الأمور، فإذا كانت هذه القوميات قد تحررت وتجلت فذلك من نعمـة الإسلام .

وإذا كان كتاب التاريخ الإسلامى قد نظروا إلى هذه التطورات نظرة التشاؤم ورأوها نذيرا بسقوط الخلافة الإسلامية وتفرق شمل العالم الإسلامى ومقدمة للحوادث المفجعة التى أصابت العالم الإسلامى على يد المغول والصليبيين ، وعقدوا المراثى للخلافة كنظام فريد أنشأه العرب ورعاة الإسلام ، إلا أن مؤرخى الحضارة يرون أنها طليعة التنافس بين البيئات

الإسلامية فى الإنتاج الثقافى ، ذلك التنافس الذى سيهيىء لعصر النهضة الإسلامية الشاملة .

ومن أهم ما تميز به ذلك العصر وكان له أثره الواضح فى تاريخ مصر الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا ما تناقله المؤرخون المعاصرون ومن تبعهم أو نقل عنهم من عدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو القتل أو التعذيب أو العزل أو على سلطانهم بالسلب والتضييق . فكأن الخليفة لم يأمن على نفسه فحسب ولم يأمن على سلطانه فحسب بل إن منصب الخلافة قد فقد ما كان له فى نفوس المعاصرين من الهيبة والقداسة ، الأمر الذى كان يشكل صورة قاتمة محزنة من أخبار المسلمين فى ذلك العصر . ومن الغريب أن الكتاب المعاصرين أو المحدثين ردوا هذه النوازل والكوارث إلى ضعف الخلفاء حيناً أو انصرافهم إلى اللهو أحيانا أخرى ، بل نراهم يرتبون على هذا الضعف ما ظهر فى أفق الإسلام من حركات استقلالية . ولكن إذا أردنا أن نعرف حقيقة الحال فلنجاوز ظاهر هذه الصورة إلى باطن الأمور ، فلم تكن هذه التطورات بسبب ضعف خليفة أو قوة آخر .

لا ننكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين إستسلموا للأقدار ، ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من قوة الإرادة ومضاء الشخصية ، وأنهم حاولوا أن يغالبوا التيار فغلبهم . الحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف النظام الخلافى نفسه .

كانت الخلافة كنظام سياسى تستمد قوتها من مصدرين : بيت من بيوت قريش يتوارث أفراده هذا المنصب السامى ويتحدون جميعا للإبقاء على هذا الميراث فيهم ، ثم عصبية قوية متماسكة تؤمن بأن بقاءها فى بقاء الخلافة قوية وأن مصلحتها قد ارتبطت بالخلافة بوشائج قوية . وما دامت هذه هى مصادر القوة فى النظام الخلافى فإن افتقاد هذه المصادر يؤدى إلى ضعف هذه الخلافة وتهاويها .

أما الانقسام فقد وضح فى صفوف البيت العباسى الحاكم منذ البداية الأولى . لاحت نذر هذا الخلاف فى عهد السفاح أول الخلفاء ثم اشتدت فى

عهد المأمون ومن تبعه . فالسفاح مثلا يولى أخاه المنصور العهد ويعرض عن عميه عبد الله وسليمان بن على . ولم يرض العمان عن هذا ، فثار عبد الله ابن على على المنصور فى أوائل عهده ، وإذا بالمنصور يعزل عمه سليمان عن ولاية العهد . وكأن العباسيين أرادوا أن يمضوا بهذا الانقسام قدما ، فدرجوا على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، فالسفاح يولى المنصور ثم عيسى ابن موسى . والمنصور يولى ولده المهدى ثم عيسى بن موسى ، والمهدى يختار الهادى ، وهارون الرشيد يولى الأمين والمأمون والمؤتمن . وقد وضح الانقسام فى موقف الهادى من هرون ومن موقف الأمين من المأمون . وقد أحس المأمون بما يتهدد البيت العباسى من خطر فعهد بالخلافة إلى عباسى واحد هو المعتصم ، ثم عاد الانقسام إلى الظهور بصورة سافرة فى هذا العصر الذى اختصصناه بالدراسة ، فى صورة النزاع بين المعتمد والموفق .

وفى نفس الوقت الذى كان فيه البيت العباسى يفقد هذه الوحدة كان يفقد العنصر الثانى . كانت العصبية العربية تضعف وتتداعى ضعفا طبيعياً تلقائيا ، بسبب تفرق العرب فى الأمصار واختلاط دمائهم بدماء الشعوب التى خضعت لنفوذهم . وكان العباسيون أنفسهم قد عملوا على إهمال هذه العصبية وإضعاف ما بقى فيها من رمق [1] .

وقد وضحت المباعدة بين العباسيين وبين العنصر العربى منذ البداية الأولى ، فهذا محمد بن على يرسل كتابا إلى دعاته الذين وجههم للمشرق لنشر الدعوة يحضهم فيه على ألا يعتمدوا على الجماعات العربية ولا يفكروا فيها وأن يستمدوا قوتهم من مصادر أخرى ، بل بلغ من موقفهم المعادى للعرب أن نصحوا أبا مسلم بالتخلص ممن تحوم حوله شبهة مقاومة الدعوة . فقد خاف العباسيون أن لا يقبل عليهم العرب كما أقبلوا على بنى أمية من قبل .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٥٥ .

إذن أودى العباسيون بذلك العنصر العربى الذى كان من الممكن أن يقف وراء الخلافة العباسية وأن يسندها ويحميها فى أوقات الأزمات كما حمى الخلافة الأموية من قبل .

ويظهر أن الخلافة العباسية بعد فقدها تأييد العرب قد تخبطت سياستها وتذبذبت فلم تعد تثق بأية قوة من القوى الموالية لها ، حتى قوة الموالى التى كان لها الفضل الأول فى قيام الخلافة العباسية . فقد خشيت أن تستبد بالأمرفأرادت أن تشتت وحدتها ، فغدرت بالخراسانية بعد نجاح الدعوة وقتلت زعيمهم أبا مسلم . ثم استعانت بالبرامكة من الفرس ثم غدرت بهم ، ففقدت الدولة ثقة العرب ثم ثقة الفرس ثم ثقة الخراسانيين .

ودفع خوف العباسيين على الخلافة وتوجسهم الشر دائما إلى التماس عصبية جديدة قدر لها أن تلتهم ما بقى للخلافة من نفوذ وما احتفظت به من رمق ، فقد ضيعوا العرب ليستعينوا بالترك ، فاستبد بهم الترك واغتالوا سلطانهم .

وقد عرف العرب الأتراك بعد فتح بلاد ما وراء النهر ، عرفوا فيهم عنصراً محاربا من الطراز الأول ، يمتازون بالطاعة والنظام ، غير أن هؤلاء الأتراك تسللوا إلى الحياة الإسلامية وأخذوا يظهرون على مسرح الأحداث فى بغداد ظهوراً واضحاً منذ عهد الخليفة المأمون . فقد رأى العرب يقفون خلف الأمين ولم يكن له أن يطمئن إلى الفرس ، بل أحب أن يوجد نوعا من التوازن بين هؤلاء وهؤلاء فبدأ يستخدم المحاربين من الأتراك على نطاق ضيق . وكان بعض من فتيانهم قد أرسلهم ولاة الأقاليم الشرقية للدولة فألحقهم بالجيش .

وتلقف خلفاء المأمون هذه العصبية الجديدة النامية وأرادوا أن يستغلوا مواهبها أحسن استغلال للحفاظ على دولتهم والإبقاء على خلافتهم ، فكان أن أقبل المعتصم فى إسراف على استخدام الأتراك وأدخلهم فى الجيش على نطاق واسع ، فلما ضاق بهم أهل بغداد أنشأ لهم حاضرة جديدة هى سر من

رأى ، ونشأت منهم طائفة من المحاربين تحترف الجندية وتخدم مصالح المعتصم وتنفذ سياسته ، بل جاوزوا النطاق العسكرى وبدأوا يتسربون إلى الجهاز الإدارى فأسند إليهم كثير من المناصب العليا فى الدولة .

وقد وضح نفوذ هذه العصبية الجديدة بعد المعتصم ، فقد وجدت الطريق خالياً ، ضعف العرب أو أهملوا ولم يثق العباسيون بالفرس فاستبدوا بالسلطان كله وغلبوا الخلافة على أمرها . وبلغ نفوذ الأتراك حداً بعيداً من التحكم والجبروت فى هذا العصر ، أى فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى . بل أصبحوا أصحاب السلطان المطلق المستبد فى فترة امتدت نحو قرن .

ومن الطريف أن نعطى صورة لغلبة هذا العنصر الجديد واستبداده بالحياة العباسية كلها . فقد تحكموا فى الخلافة نفسها يولون ويعزلون معتمدين على ما تحت إمرتهم من قوات مسلحة تدين لهم بالولاء .

وتبين هذا بعد وفاة الواثق مباشرة ، فقد لعب كل من التركيين وصيف وإيتاخ دوراً كبيراً فى اختيار المتوكل ، بل بلغ من تماديهم أن امتدت أيديهم بالقتل إلى الخليفة المتوكل نفسه ويعطينا المؤرخون المعاصرون صورة فريدة لاستبداد هؤلاء الأتراك وتلاعبهم بالخلفاء وبالخلافة .

فبعد أن قتل المتوكل اجتمع أتامش وبغا الصغير وبغا الكبير . واتفقوا على ألا يولوا أحداً من أبناء المتوكل لئلا ينتقم منهم بسبب قتلهم أباه ، وقال محمد بن موسى بن شاكر المنجم وكان حاضرا المجلس « أتولون رجلا يرى أنه أحق الناس بها قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ... ولكن ولوا من يعرف فضلكم عليه ويقدر خدمتكم له » .

فانظر إلى الأتراك يولون من يعرف فضلهم عليه ولا يعرفون هم فضله على المسلمين ويقدر خدمتهم ولا يقدرون هم خدمته . لهذا ظاهروا المنتصر ثم حسنوا له أن يعمل على خلع المعتز وأخيه المؤيد من ولاية العهد [1] .

ولم يل المستعين الخلافة إلا برضى الأتراك وحدهم ، ولعب كل من بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش دوراً كبيراً في هذه البيعة . ولما غضب الأتراك على المستعين بايعوا المعتز وحبسوا الخليفة السابق وقتلوه في محبسه . بل من أطرف ما يروى أن المعتز كان يخشى الاتراك أشد الخشية ويخاف منهم بغا الصغير ، فكان لا يخلع سلاحه في ليل أو نهار وكان يقول « لا أزال على هذه الحال حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي إني لأخاف أن ينزل على بغا من السماء أو يخرج على من الأرض ... » . وقد حدث ما خافه فقد دخل عليه الأتراك مجلسه وجروه من رجله وتعاوروه وأكرهوه على التنازل ثم عذبوه في محبسه حتى مات ...

هكذا خضع سلائل العباسيين وذلوا لهؤلاء الأتراك يستبدون بهم . ويتحكمون فيهم ، وليس أبلغ في تصوير ما انتهى إليه نظام الخلافة من ضعف ، وما وثب إليه الأتراك من نفوذ ، من قول الراضي بالله إلى بعض خاصته «كأني بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر قد أفسد من قبلي وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي ، فسلمت إلى قوم يتسحبون على ويجلسون في اليوم مرات ويقصدونني ليلا ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه وأن يكون له بيت مال خاص .. ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسبابي وآمـــر فيهم بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ... وأكثر ما فيه أن يسألني كلب من كلابهم فلا أملك رده وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا ... وكان الأجود أن يكون الأمر كله لي كما كان لمن مضى قبلي ، ولكن لم يجر القضاء بهذا إلي ... »

---

(١) الطبري،جـ ٧ ص ٤٠٩ .

ولم يقنع الأتراك بسيطرتهم على الخلافة إنما امتد سلطانهم إلى الوظائف الإدارية وفى مقدمتها منصب الوزارة .. أثقلوا على الوزراء فطالبوهم بالكثير من المال فاذا عجزوا عرضوهم للتنكيل والعزل ، ثم تولوا الوزارة نفسها فى عهد الخليفة المستعين حين اتخذ أتامش وزيراً له .. وأصبح تعيين الوزراء يتم عن طريقهم ، ففى عهد الخليفة المعتز بالله عزلوا جعفر بن محمود الاسكافى ثم قبضوا على وزير آخر يسمى أحمد بن إسرائيل ، وفى عهد المستعين حاول أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد أن يضيق عليهم فهددوه بالقتل حتى هرب .

بل تجاوز نفوذهم حاضرة الخلافة وتطاول إلى الأقاليم ، فكان الولاة يختارون إما من طبقتهم أو من المقربين إليهم ، وهذه هى مصر وليها منهم يزيد بن عبد الله والفتح بـن خاقان ومزاحم بن خاقان وأزجور ترخان ثم باكباك[1] .

لم يكن الأمر إذن ضعف خلفاء بقدر ما كان ضعف النظام العباسى نفسه ، فقد حفل هذا العصر بطائفة من الخلفاء لو كان زمانهم قد تقدم بهم لما كانوا أقل من المنصور أو الرشيد أو المأمون .. فقد واجهوا خطر الأتراك غير معتمدين على عصبية قوية تسندهم فلم يستطيعوا له دفعاً .

وقد حاول كل من المتوكل والمعتز والمهتدى أن يدفع هذا الخطر التركى الداهم فلم يفلحوا ودفع أغلبهم حياته ثمناً لهذه المحاولة . فلما تفرقت كلمة الترك وتفتتت وحدتهم وتناحروا فيما بينهم انتابت الخلافة العباسية صحوة مؤقتة فى عهد الخليفة المعتمد وأخيه الموفق الذى تمكن من حل مشاكل الجيش وصارت له الكلمة العليا وعادت إلى بيت الخلافة قوته القديمة واستمرت هذه الصحوة فى عهد المعتضد الذى شارك أباه حروبه وأعماله عند ما كان أميراً . ولكنها كانت صحوة مؤقتة ، فإن النظام قد ضعف ، وما كان له أن يعود إلى ما كان له من سلطان فى ظل بيت قرشى متحد وعصبية عربية قوية قادرة .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة : ص ٢٠٢ - ٢١٢ .

هذه الخلافة المتهاوية نحو الضعف وهى تناضل من أجل الاحتفاظ بالنفوذ الذى فقدته شغلت بمشاكل اقتصادية واجتماعية عميقة الجذور قدر لها أن تشل حركتها وتشغل عليها تفكيرها ، بل كانت هذه المشاكل من وراء الفتن والثورات التى ظهرت فى ذلك العصر وأخصها الثورة المشهورة بثورة الزنج التى قدر لها أن تلعب دوراً هاماً فى تاريخ مصر الذى سنعرض له بعد حين .

وهذه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وما ترتب عليها أو صحبها من فتن أو ثورات يقع وزرها على العباسيين قبل سواهم ، لأنهم إذا كانوا قد تعصبوا للموالى على وجه العموم ، إلا أنهم أغدقوا على زعمائهم ، وأدى هذا الإغداق إلى نشأة طبقة رأسمالية من الموالى تحكمت فى الحياة الاقتصادية واستبدت بها وأصبحت لها الألوف المؤلفة من الأموال المستغلة فى التجارة الدولية التى ازدهرت فى العصر العباسى ، وامتلكت الضياع الكبيرة وسيطرت على موارد الرزق متجاهلة كثرة الناس التى أضر بها الفقر واستبد بها الحرمان ، وسخطت على هذا التوازن الاقتصادى المختل .

وأصبح هؤلاء الساخطون من أفراد الطبقات الفقيرة والوسطى مرتعاً تفرخ فيه حركات التذمر والثورة السافرة على النظام القائم . هذه الحركات رغم تباين أسبابها وظروفها اتحدت فى أمر واحد ، فى اتخاذها مظهراً دينياً بحتاً واستخفائها وراء ستار من الدين « فكان كلما ضاقت بالناس الحياة أوجد هذا الضيق حزباً إسلاميا يجعل تعاليمه عقيدة وأداته طائفة ووكيله داعية وزعيمه إماما [1] » .

وكان لا بد لكل حركة مهما تكن دوافعها من أن تبحث فى الدين ليس عن قناع لها إنما عن تبرير لوجودها .

وجمهرة الساخطين من الفرس التفوا وراء حركات دينية اتخذ زعماؤها الدين ستاراً يخفى نزعات سياسية هادفة لإحياء التقاليد القديمة : مثل حركة المقنع الخراسانى فى خراسان وأواسط آسيا ، وحركة بابك الخرمى الذى استمال

---

(١) برنارد لويس : العرب فى التاريخ ص ١٣٨ .

إليه الفلاحين بتقسيم الإقطاعات الكبيرة وتوزيعها عليهم ، وانتشرت حركته فى آذربيجان وإيران ، وتمكن طوال سبع سنوات من مقاومة الدولة بقوة السلاح ولم يقض عليه إلا زمن المعتصم .

ومن هذه الثورات الاجتماعية الخطيرة التى هزت كيان الدولة وأضعفت كثيراً من هيبة الخلافة ثورة العبيد أو ثورة الزنج [1] . وهى تشبه من وجوه كثيرة ثورة العبيد المشهورة فى التاريخ الروماني . والمجتمع الإسلامى كما نعلم مجتمع يبيح الرق إلا أن العبيد فى الحياة الإسلامية لم يكونوا مثل إخوانهم من قبل فى ظل الحياة الرومانية حيث كانوا عماد الإنتاج ودعامته . إنما اعتمد الإنتاج الإسلامى فى الغالب على الفلاحين الأحرار والصناع ، وكان العبيد يستخدمون فى الأعمال المنزلية أو فى الجيش .

ولكن العصر العباسى غير من هذا الوضع واستخدم العبيد فى الأعمال اليدوية فى عدد من المشاريع الواسعة فى المناجم وتجفيف المستنقعات ، وعمدت الرأسمالية إلى الإكثار من شراء العبيد واستخدامهم فى الزراعة على الخصوص . وكانوا يحشرون فى مساكن حقيرة جماعات ، وكان كبار الملاك يقتنون الآلاف منهم يستخدمونهم فى سهول البصرة فى تجفيف المستنقعات ، وكانوا يعملون جماعات يتراوح أفراد الجماعة منها ما بين خمسمائة وخمسة آلاف وكانت أحوالهم سيئة إلى أبعد الحدود ، وعمل شاق وأجر زهيد . وقد اتخذ الدعاة هؤلاء العبيد تربة صالحة لنشر دعوتهم ، فادعى صاحب الزنج على بن محمد أنه من ولد زيد بن على ، وأعلن العصيان ، وتفشت دعوته انضوى العبيد تحت لوائه فراراً من بؤسهم وشقائهم وذلهم فاشتعلت ثورة ج المشهورة [2] .

---

(١) انظر : ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٥ .

(٢) الطبرى-جـ ٧ ص ٥٦١ .

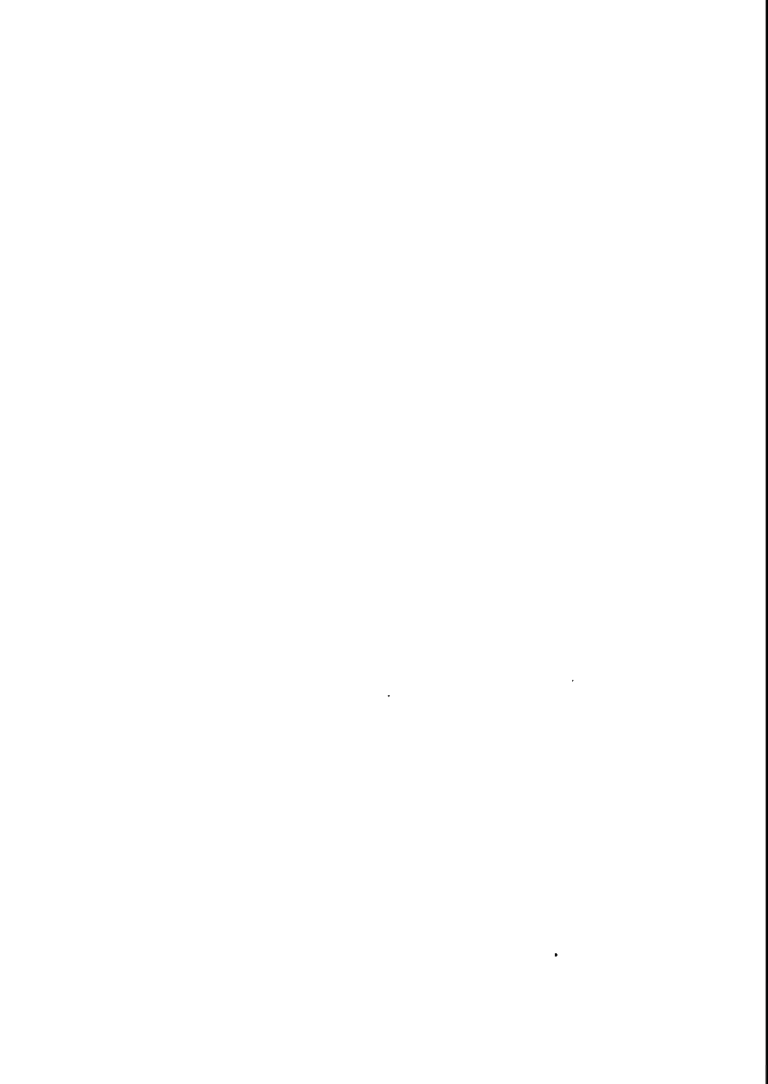
وقد أحرز الزنج الثائرون سلسلة انتصارات سريعة ، وهزموا جيوش الامبراطورية الواحد فى إثر الآخر ، وأظهروا عجز طغمة الأتراك التى استبدت بالحياة فى بغداد . فقد هاجموا مدينة البصرة واتخذوها عاصمة لهم ، وهزمت جيوش الخلافة سنة ٢٥٧ هـ واستبيح عسكر العباسيين وسيطر الزنج على بقاع واسعة فى جنوب العراق وإيران وهاجموا البطيحة سنة ٢٦٢ هـ ودخلوا النعمانية سنة ٢٦٥ هـ والأهواز بعد ذلك بسنة [١] .

وبدت هذه الثورة السوداء كأنها كارثة محققة تريد أن تؤدى بما بقى للخلافة من نفوذ ، استنزفت مواردها وشغلتها عن الحركات الاستقلالية التى بدأ بعضها يتهيأ للظهور فى الأمصار الاسلامية .

هذه التطورات التى مر ذكرها كانت ذات أثر بالغ فى تاريخ مصر الإسلامية منذ منتصف القرن الثالث الهجرى فصاعداً . فإن الحركات الاستقلالية تجلت فى مصر فى ظل بنى طولون الذين سنؤرخ لهم . وضعف الخلافة ساعد الطولونيين على تحقيق مشروعاتهم وتوطيد سلطانهم ، واستبداد الأتراك مكن لهم فى النفوذ والسلطان ، فمؤسس الدولة الطولونية لم يكن واحداً من أفراد هذه الطبقة التى لعبت الدور الأكبر على مسرح الأحداث ، وثورة الزنج وشغلها جيوش الخلافة مكنت لابن طولون من أن يوطد نفوذه فى مصر والشام . فلنعرض إذن لهذه الحركة الاستقلالية التى ظهرت فى مصر فى عصر بنى طولون .

---

(١) نفس المصدر جـ ٨ ص ٤٤ .



الباب الثانى

قيام الدولة الطولونية

(أحمد بن طولون)

هذه الحركة الاستقلالية التى ظهرت فى مصر كظهورها فى غيرها من الأمصار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأحمد بن طولون ، مؤسس الدولة الطولونية وصانع هذا الاستقلال الذى ظفرت به مصر . ولا نريد أن نستهل دراستنا لأحمد مؤسس الدولة بالسنة التى جاء فيها مصر ، وباستعراض الجهود التى حققت له ما أراد ، بل يجب أن لا نهمل الفترة السابقة على هذا التاريخ ، فمن حق أحمد بن طولون علينا أن نترجم له ، وأن نكشف عن المواهب التى توفرت له ومكنته من أن يلعب هذا الدور بنجاح .

وليس من اليسير أن تدرس هذه الفترة دراسة صحيحة تكشف فى وضوح عن فجر حياة أحمد بن طولون ، فما تناثر من أخبارها يسوده الإبهام والغموض ، فقد ركز المؤرخون اهتمامهم بحياة ابن طولون بعد أن ارتفع شأنه وذاع صيته فلم يعنوا بحياته الأولى كثيراً ، حتى الأخبار التى رويت بعضها منتحل مدخول ، أريد به تشويه سمعة هذا الرجل والإساءة إليه بسبب النزاع الذى ثار بينه وبين الموفق أخى الخليفة العباسى . وبعضها لا يخلو من طابع المبالغة فبعض مؤرخى دولة ابن طولون أحبوا أن يضيفوا على هذه الفترة من الأهمية ما يتفق مع النفوذ الذى توافر لأحمد بن طولون فى مصر ، وليظهروا أن مؤسس الدولة كان السعد بركابه منذ شبابه الباكر .

على كل حال فإن ثمة حقائق بارزة يمكن أن نخلص إليها من دراسة هذه الحقبة من حياته ، منها أن هذه الفترة تتجلى فيها الظروف التى شرحناها فى الباب السابق ، تظهر فيها علل العصر وأخطاؤه وأدواؤه وعيوبه : استبداد الأتراك بمصائر الخلافة ، وتجاوز نفوذهم أسوار بغداد متغلغلا فى صميم

الأمصار الإسلامية وضعف نظام الخلافة ، واستبداد الترك بأمرها وعبثهم بمصائرها .

بل لا نكاد نجد فى هذه الفترة من حياة أحمد منطقاً مفهوماً ! مقدمات تفضى إلى نتائج متوقعة واضحة . فقد لعبت الصدفة أو لعب الحظ دوره الواضح فى دفع هذا الشاب نحو دوره المرسوم فى تاريخ الإسلام : شاب تركى ينشأ كما ينشأ الأتراك ويندفع إلى ما يندفعون إليه ويفيد من نفوذهم وحظوتهم ، وتدفعه الصدف للتقرب من الخلافة ثم تدفعه دفعاً مماثلا إلى الفوز بولاية مصر !! .. فهل نجد لذلك كله تفسيراً ؟

أجمع المترجمون [١] لأحمد بن طولون على أنه تركى حق ينتسب إلى الأتراك وهم رغم اتفاقهم على انتسابه إلى الأتراك يختلفون فى مدى صلته بطولون المولى التركى الذى بعث به نوح بن أسد عامل بخارى وخراسان هدية إلى المأمون الذى كان يحس بما لهذا العنصر التركى من أهمية عسكرية ، ولعل هذا المولى قد أصاب فى عهد المأمون من الحظوة مثل ما أصاب غيره من الأتراك ، ويبدو أنه أصبح من جملة أمراء العسكر ذوى النفوذ فى عهده ، ولعل هذا النفوذ قد تضاعف فى عهد المعتصم بتفاقم نفوذ الترك وبعد صيتهم . مهما يكن من أمر فإن هذا النفوذ بقى له إلى أن توفى فى عهد المتوكل .

وبعض المؤرخين يلحقه بطولون وبعضهم يقول إنه تبناه وأن نسبه الحقيقى لا يلحق بطولون إنما يلحق بصديق له يسمى يلبخ [٢] .

ويخيل إلينا أن الشك فى نسب ابن طولون على هذا النحو من ميراث العداوة السافرة بين بغداد والقطائع ، وأنه وضع وضعاً للنيل من ابن طولون والطعن فيه بعد وفاته . والحقيقة الثابتة أن هذا الشك فى نسبه لم يظهر إلا بعد وفاة الموفق . وإلا لما فات الموفق الساعى إلى تجريحه والطعن فيه أن

---

(١) الطبرى – الكندى – ابن سعيد – ابن خلكان – أبو المحاسن – المقريزى

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١ – ٣ .

Zaky Hassan ; Les Tulunids p 27 .

يستغل نسباً زائفا للنيل من خصمه والكيد له . والشعراء الذين دفعهم الموفق للنيل من ابن طولون وهجائه لم يرد على لسانهم ما يوحي بمثل هذا الشك ، والمؤرخ الكندي يذكر شعراً قيل على لسان ابن داود يهجو ابن طولون [١] ، ولو كان نسبه مدخولا لما فاته أن يشير إليه . وبالطبع لم تظهر هذه الروايات في حياة أحمد بن طولون إنما ظهرت بعد وفاته .

مهما يكن من شيء فإن البلوي مؤرخ ابن طولون يشير إلى قصة هذا النسب المدخول وينتصب من نفسه مدافعا عن ابن طولون داحضا كل ما يفترى عليه ، وهو يفسر ما ذاع من شك في نسبه تفسيراً مقبولا ويخلص منه إلى إثبات انتسابه إلى طولون ، فيذكر أن يلبخ هذا كان صفي طولون وصديقه ، وأن الولاية على أحمد انتقلت إليه بعد وفاة صديقه وأنه ظل يكلؤه ويرعاه « فلما مات طولون ألزمه الوفاء له القيام بأمر ولده والمحافظة عليه ... وكان من يراه معه يقول هذا ابنك فيقول نعم هو ابني وابن سيدي رحمه الله » [٢] .

بل يمضي به حرصه على الدفاع عن ابن طولون إلى قوله أنه لم يكن معقولا أن يزوجه يارجوخ الزعيم التركي ابنته لو كان نسبه إلى يلبخ صحيحا [٣] .

ولد أحمد بن طولون على نحو ما يذكر الرواة سنة ٢٢٠ هـ [٤] ، وإذا صح هذا الزعم فإنه يمكننا أن نقول إنه ولد بمدينة بغداد وليس بمدينة سامرا على نحو ما يذكر بعض الأخباريين ، لأن اختطاط مدينة سامرا لم يبدأ إلا سنة ٢٢١ هـ ولم تكمل عمارتها ويطيب المقام فيها إلا بعد ذلك بسنوات .

(٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٣٣ .
(٢) البلوي : سيرة ابن طولون ص ٣٤ .
(٣) البلوي : ص ٣٤
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١

وقد نشأ أحمد كما ينشأ لداته من أطفال الترك وفتيانهم حين يأخذون من التدريب العسكرى بقسط وافر ، لأن هذا التدريب يحفظ لهذه الطبقة العسكرية قوتها التى هى عماد حياتها . ويبدو أنه نال حظا من هذا التدريب « فكان حسن الرمى بالنشاب لا يخطىء شيئا » [1] .

ولعل هذا التدريب قد قوى فيه الاعتماد على النفس والشجاعة والقدرة على مواجهة الأخطار ، وهى الصفات التى لازمته منذ ظهوره على مسرح الحياة السياسية فى بغداد . لكن يظهر أن صاحبنا قد انفرد دون الأتراك بأمر آخر . كان صبية المسلمين وشبابهم يتلقون فى هذا العصر قدراً كافيا من التعليم الدينى ، إلا أن ابن طولون قد ذهب أبعد مما يذهبون « نشأ نشوء أولاد العجم من بعد الهمة وحسن الدين والذهاب بنفسه عما كانت تسف إليه طبقته » [2] . ويبدو أنه أخذ بقسط وافر من حفظ القرآن ورواية الحديث ودراسة الفقه على مذهب أبى حنيفة ، بل كان من أطيب الناس صوتا مع كثرة الدرس وطلب العلم [3] . ولعل هذه الثقافة تفسر ما يروى من أخذه على الترك وأولادهم ما يرتكبون فى أمر الخلفاء ، وما عرف به مـــن ولاء عميق للخلافة ، بل تفسر ما عرف به فيما بعد من إتقان للعربية وتقريب للفقهاء وعطف عليهم .

مضى ابن طولون فى حياته تلك حتى إذا اكتمل شبابه كانت قد اكتملت خصاله ووضحت صفاته : دربة على فنون القتال وشجاعة فى الحرب واللقاء ثم ثقافة دينية عميقة ، ثم دهاء وبعد نظر فى غير ما تهور ، وهو أمر غريب عن سنه وبيئته وطبقته .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٤ ، المقريزى جـ ١ ص ٣١٣ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤ .

وما كاد أحمد يبلغ العشرين حتى بدأ يخطو خطواته الأولى فى خضم الحياة السياسية فى بغداد ، فقد مات أبوه سنة ٢٤٠ هـ [١] ، وفوض المتوكل إليه ما كان لأبيه من مكانة فى الحرس الخلافى ، وبذلك انضم إلى زمرة المحاربين الترك واندمج فى حياتهم اندماجاً كاملا يتمتع بحقوقهم وامتيازاتهم مؤيداً من قادة الجند وزعمائهم من أصدقاء أبيه وصحبه . ويبدو أن ثقافته الدينية وأخلاقه قد مكنت له من قلوب الأولياء « ما ارتفع به على طبقته وبان فضله على وجوه الأتراك وصار محله عندهم محل من يوثق به على الأحوال والأسرار والفروج ... ومثل هذا عند العجم محله عظيم فى نفوسهـــم [٢] »

ثم كانت خطوة أخرى فى نفس هذا السبيل ، حين ولى بعض الأعمال العسكرية أو الإدارية بطرسوس ، فقد اتفق الرواة على توليته على طرسوس ولم يكن ذهابه إلى هذه المدينة [٣] حباً منه فى أن يبتعد عن الأتراك فـــلا يشاركهم إثمهم ، أو لأنه أدرك أن الوقت لم يكن مناسباً للظهور على المسرح السياسى المزدحم بالقصاد والطلاب ، فيبتعد عن المؤامرات فلا يشترك فيها ، فى الوقت الذى يحتفظ فيه بعلاقته الودية بالضباط الأتراك أصحاب النفوذ الفعلى فى البلاد .

لم تكن المسألة رتيبة علي هذا النحو .. وإذا كان قد اختار البعد عن فتن بغداد فلماذا لم يذهب إلى غير طرسوس ؟ . بل كان فى مكنته أن يبقى فى بغداد وأن يجنب نفسه شر الانغماس فى فتن الأتراك ومؤامراتهم .

أما ما حدث علي وجه الترجيح فهو أن الحاجة وضحت إلى ضابط شاب يخدم فى طرسوس له بأس فى لقاء العدو والرغبة فى الجهاد وله من التقوى

(١) أبو المحاسن : جـ ٣ ص ٤ ، المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٣ .
(٢) البلوى:ص ٣٥ .
(٣) Zaky Hassan ; Les Tulunides p 30 . 31 .

ما يناسب الجو الدينى الخالص الذى شاع فى هذه المدينة التاريخية ذلك أنه يستفاد من رواية كل من البلوى وأبى المحاسن [1] أن الوزير عبد الله بن يحيى بن خاقان كان راغباً فى استخدام كاتب أو عامل على هذه البلاد . وقد التقت الرغبتان ، رغبة ابن خاقان فى اختيار تابع مخلص ورغبة ابن طولون صديق أحمد بن محمد بن خاقان [2] فى الخدمة فى السلك الإدارى ، ورغبة فى جهاد العدو ثم رغبة فى التمكن من الحياة الثقافية الرفيعة التى شاعت فى المدينة ، وكان أحمد على علم بما يجرى فيها ، فقد اختلف إليها من قبل.

ولا تعرف على نحو دقيق المدة التى قضاها فى طرسوس ولكن واضح أنه لم يكن فى سامرا أثناء المؤامرة التى انتهت بقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . إذ يستفاد من رواية البلوى أنه خرج من طرسوس بعد مقتل المتوكل وولاية المستعين [3] . فهو لم يعد إلا فى سنة ٢٤٨ هـ ، فى أول خلافة المستعين ، وسر عودته غير معروف .. قيل إن أمه وزوجته قد استدعيتاه ، وإن كنا نرجح أن مقتل الخليفة المتوكل وبيعة المستعين وتغير الظروف السياسية دعاه إلى أن يكون على مقربة من مسرح الأحداث ليفيد منها .

هذه الخطوات الأولى تظهر مدى حظوته بعطف شيعته من الأتراك ورضاهم وإعجابهم لأنه تركى أولا وابن زعيم تركى ثانيا ثم لفضائله وأخلاقه وكفاياته .

ثم تجلت الصدفة المحضة لتكتب له أن يقترب من الخليفة الجديد المستعين بعد أن كان مقربا من سلفه المتوكل [4] . فقد قدر له أن يستبسل فى صيانة مال الخليفة والدفاع عنه . فقد اتفق الرواة على أن أحمد عاد من طرسوس وانضم ركبه إلى قافلة كانت تحمل متاعا ثمينا للمستعين ، متاع من

---

(١) البلوى ص ٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤ .

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٦ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥ .

« البز وكراسى الحديد المنقوش أحسن نقش [1] » وغيرها من الطرائف التى تجود صناعتها فى عاصمة الدولة البيزنطية . ويبدو أن المستعين قد استمات فى سبيل الحصول على هذه الطرائف فأرسل رسولا يجيد لغة الروم ، واستطاع بعد عناء أن يبتاع ما طاب له من هذه الأشياء . هذه القافلة هاجمها قطاع الطرق على مقربة من مدينة الرها وكاد ما تحمله من متاع يتعرض للضياع ، ورؤى أن تعتصم القافلة بقلعة الرها لتنجو من مصيرها المحتوم ، غير أن الضابط الشاب ابن طولون لم يقتنع بالدفاع إنما أراد الهجوم وقال « لا يرانى الله فارا وقد خرجت على نية الجهاد » [2] ، فكان أول من هاجم الأعداء ووضع فيهم السيف حتى فروا لا يلوون على شيء ، ونجا مال الخليفة الذى لم ينس له هذا الصنيع فوثق به وقربه إليه وبعث إليه بألف دينار سرا . وكان ابن طولون إذا دخل على المستعين مع الأتراك أومأ إليه الخليفة بالسلام .

وقد زادت هذه الصلات وثوقا حتى إذا خلع المستعين ونفى إلى واسط وطلب إليه أن يختار من الأتراك من يصاحبه فى منفاه لم يختر إلا صديقه أحمد ابن طولون [3] . لم يفز ابن طولون بولاء الأتراك وحدهم بل بولاء الخليفة ورضاه .

ثم كانت مأساة المستعين كما يرويها المعاصرون ، فقد غضب عليه الأتراك لأنه رفض أن ينصاع لهم ويعود معهم إلى سر من رأى ، فقرروا أن يخلعوه وأن يستبدلوا به خليفة آخر أكثر طواعية لتلبية مطالبهم ، فخلع ، وبويع المعتز ، فقد توسم فيه بغا الصغير وشيعته أن يكون ألعوبة فى أيديهم . ويبدو أن الأتراك لم يقرروا قتل المستعين فور خلعه بل أمنوه على نفسه وماله وولده [4] . وبعثوا به منفيا إلى واسط [5] . ويبدو أنه من قبيل

(1) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٦ .
(2) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥ .
(3) نفس المصدر ص ٦ .
(4) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٠ .
(5) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦ ، انظر : الطبرى جـ ٧ ص ٥١٥ .

إطلاق الحرية للمستعين فى منفاه أن خير فيمن يطمئن إليه فى محبسه ذاك ، فاختار أحمد بن طولون لدينه وأمانته ، ولما يعرفه فيه من حب للخليفة وولاء للخلافة . ويبدو أن الأتراك أنفسهم رضوا عن هذا الاختيار ، لأنهم كانوا يعرفون خلق ابن طولون وولاءه لهم وللخلافة فى نفس الوقت .

وكان يهم الأتراك في بادىء الأمر أن يحفظوا على المستعين حياته ، فقد لا يستقيم أمر المعتز ولا يرضخ لمطالبهم فلا يجدون بأسا من إعادة المستعين ليحقق ما لم يسخر المعتز لتحقيقه ، فأظفروا المستعين حريته كاملة ، فأطلقت له حرية الصيد والتنقل . وكان ابن طولون من آمن الناس على تنفيذ هذه الرغبات ، ليس رغبة منه فى إعطاء الخليفة ما يأباه الأتراك بقدر ما هو تنفيذ لسياسة مرسومة .

ثم تغير موقف الأتراك من المستعين . فقد أحس غلمان المتوكل وشيعته بما يعنيه الإبقاء على حياة المستعين وإطلاق حريته ، وخوفوا قبيحة أم المعتز عاقبة هذا الأمر ، وأن الخليفة لن يستقيم له أمر ما دام المستعين على قيد الحياة . فتقرر أن يوضع حد لهذه المخاوف كلها بأن يقتل المستعين ليستقيم الأمر للمعتز ، فكانت خاتمة المطاف أن قتل المستعين غيلة فى منفاه .

هذه هى مأساة المستعين مستخلصة من روايات المؤرخين [1] ، ولا يعنينا من هذه المأساة وما قيل فيها أو روى عنها إلا أمر واحد هو مدى مشاركة أحمد بن طولون حارس الخليفة فى صنع هذه المأساة . ما موقفه من مصرع الخليفة على هذا النحو وما أثر هذا الموقف فى المستقبل الذى كانت تخطه الأقدار ؟

---

(١) انظر البلوى – ابن سعيد – أبا المحاسن . ابن خلكان .

وأخبار مصرع المستعين وموقف ابن طولون منه تستمد من مصدرين :
أولا من مؤرخي أحمد بن طولون نفسه البلوى وابن الداية ومن روى عنهما.
ثانيا من كتاب التاريخ الاسلامى العام أمثال الطبرى والمسعودى وابن الأثير .

ولا نريد أن نعتمد فى تحديد موقف أحمد بن طولون على أحدهما فقط إنما نريد أن نستخلص الحقائق من كليهما .

وأهم الحقائق التى يمكن أن نستخلصها أن هذه المصادر تتفق على مصرع الخليفة المستعين فى منفاه بالصورة التى رويناها وبتدبير من عبيد المتوكل ومن أم الخليفة المعتز ، وأن أحمد بن طولون كان يحرس الخليفة فى منفاه فى الوقت الذى حدثت فيه هذه المأساة . ومن الأمور المؤكدة أن أحمد بن طولون لم ينفذ الأمر باعدام الخليفة . إذ لو نفذ الأمر لما كانت هنالك حاجة إلى أن يرسل المتآمرون سعيد بن صالح الحاجب لتنفيذ هذا الأمر ، وأنهم لم يفعلوا هذا إلا لرفض ابن طولون بطريقته الخاصة أن يغمس يده فى دماء الخليفة الذى اختير لحراسته . يتفق فى هذا الرأى المصدران اللذان أشرنا إليهما .

ولا نميل إلى رفض ما ذكره كتاب ابن طولون من مساومة أم الخليفة أحمد على تنفيذ هذه المؤامرة ، وأنها أغرته بولاية واسط « .. إذا قرأت كتابى فجئنى برأس المستعين وقد قلدتك واسط [1] » ، فقد كانت أمثال هذه المساومات من طابع العصر ووسائله ، ولو نفذ ابن طولون ما أرادته أم الخليفة لولى واسط بل ربما ولى ما هو أهم من واسط . لكن ابن طولون أثم أن يشارك فى هذه المأساة « والله لا يرانى عز وجل أقتل خليفة له فى رقبتى بيعة [2] » ولا ينتقص من هذه الرواية صمت الطبرى [3] والمسعودى عن الإشارة إلى موقفه هذا .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٠ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

ويكفى أنهما أشارا إلى مصرع الخليفة على يد سعيد الحاجب وليس على يد أحمد بن طولون .

فلما تملص ابن طولون من المشاركة فى هذه المؤامرة أرسل المتآمرون سعيدا ليتسلم المستعين على أن يعود ابن طولون إلى سر من رأى .ثم يمضى البلوى فى تصويره للموقف فيذكر أنه ما كاد سعيد يصل إلى واسط حتى أحضر ابن طولون القاضى والشهود وأشهدهم على تسلمه إياه سليما .

ويبدو أن سعيدا ما كاد يتم له تسلم الخليفة حتى نفذ الخطة المبيتة ، وقتل الخليفة حتى قبل أن يرحل ابن طولون إلى العاصمة ، فالرواية تدل على أن أحمد كان لا يزال بواسط حين وافته أخبار مصرع الخليفة « على يد جزار بنى هاشم » ، فمضى إلى مقر الخليفة ليجده جثة مطروحة على الأرض ، وقد احتزت رأسه ، فلم يزل قائما حتى غسل وكفن وصلى عليه وورى التراب .

فمما لا شك فيه أن أحمد بن طولون لم يشارك فى صرع الخليفة إنما الذى صرعه سعيد الحاجب . وكان رفض ابن طولون المشاركة فى هذه المأساة بطريقته الخاصة وبكيفية تتفق مع طابع العصر ولا تجلب عليه غضب القائمين بالأمر وما كان أحوجه إلى رضائهم .

فقد كان يعلم بالنية المبيتة لقتله يوم ساومته أم الخليفة ، وكان بوسعه أن ينبه الخليفة إلى مصيره المحتوم ، ولكنه خشى العاقبة وخشى نقمة أم الخليفة وشيعتها من الأتراك ، ورضى بتسليم الضحية لمن يذبحها وهو يعرف هذا المصير . ولا نستطيع أن نطلب من ابن طولون أن يمضى إلى أبعد مما مضى إليه فيحول بين الخليفة وبين مقتله ، وهل يقوى على الوقوف فى وجه أصحاب النفوذ فى العاصمة ؟ وهو الشاب الطموح ذو الآمال ؟ وحسبه أنه امتنع عن قتل المستعين بيده فأرضى ضميره ولم يجرح ولاء الأتراك له أو ولاءه لأصحاب النفوذ فى بغداد .

وكان لموقفه هذا أثره العظيم فى الرأى العام المعاصر ، الذى كبر عليه أن يرى ضابطاً من الأتراك يأنف من سفك دم خليفة سابق فى حين كان هؤلاء الضباط يلغون فيه ، وكبر عليه أن يرى ضابطا من الأتراك يخلع على الخلافة

هذه القدسية وهذا الاحترام وهو يرى هؤلاء الأتراك يمرغون الخلافة فى التراب والوحل .

ومن الغريب أن مسلك ابن طولون فى هذه المسألة ألان قلوب شيعته من الأتراك ، فأكبروا فيه دينه وفضائله وكبر فى نظرهم عن ذى قبل ، وباتوا يتطلعون إلى هذا الشاب ليتسنم معقد زعامتهم إذا واتته فرصة مناسبة [1].

والأقدار التي كانت تبسم للضابط الشاب أحمد بن طولون ، والتى قدرت له أن يفيد من مأساة المستعين ارتفاع ذكر وعلو شأن ، لم تنس أن تجعله يستفيد أيضاً من استتباب الأمر للخليفة الجديد المعتز .

فقد أحب الخليفة الجديد أن يترضى زعماء الأتراك وأن يضمن ولاءهم وأن يوزع الهبات على من أيده ونصره منهم . وكان ممن نصره وأيده فى أزمته تلك زعيم تركى اسمه باكباك من أقرب الناس إلى أحمد بن طولون ، فقد كان زوج أمه ، وقد خلع عليه الخليفة إقطاع مصر .

وقد كان من مظاهر فساد النظم السياسية فى ذلك العهد أن عمالة الأقاليم كانت تقطع إقطاعا فتمنح لأحد القواد أو المقربين من السلطات يتصرف فيها كيف يشاء على شرط أن يؤدى للخليفة خراجا معلوما [2] . وكان هؤلاء العمال المقطعون لا يريدون أن يبرحوا عاصمة الدولة إما تمسكا بمفاتن العاصمة ومباهجها أو خوفاً من أن يؤدى ابتعادهم إلى تنمر أعدائهم وخصومهم وإما طمعاً فى مزيد من السلطان إذا كان من زعماء الطبقة الحاكمة من الأتراك . وكان يكفى أن يختار أحدهم وكيلا يرتاح إليه ويأمن فيبعث به إلى المصر وكيلا عنه يصرف الشئون باسمه ويجبى المال ويرسل اليه منه ما يبيح له أن يسكت المعارضين وأن يرشوا الحجاب والكتاب والقواد ليبقى فى منصبه أطول فترة ممكنة .

---

(1) Zaky Hassan ; Les Tulunides p 33 .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٠٦ - ٣١٠ .

لذلك لم يشأ باكباك أن يبرح العاصمة فتصرف كما تصرف السابقون عليه وأحب أن يختار وكيلا ، فلم يجد خيراً من أحمد بن طولون « الثقة الأمين الخير الدين النير ... [1] » يختاره للنيابة عنه فى حكم مصر ، تدفعه إلى هذا الاختيار مواهب أحمد التى برزت فى جميع المناسبات التى أشرنا إليها ، وهذه الفضائل التى أحاطته بهالة من النفوذ والاحترام ، ويدفعه أيضا ما كان من وشائج قوية بينه وبينه .

* * *

مشروعات ابن طولون فى مصر :

هكذا قدر لأحمد بن طولون الضابط الشاب الطموح أن يمضى إلى مصر للمرة الأولى سنة ٢٥٤ هـ وكيلا عن قريبه باكباك صاحب اقطاعها [2] .

ونحن نريد أن نعرض لحياة ابن طولون فى مصر من زاوية واضحة . نريد أن نعرف هل كان ابن طولون يفكر فى أن يحقق لمصر استقلالا ذاتيا منذ اللحظة الأولى ؟ وما هى الخطوات المتتابعة التى سلك بها هذا الطريق ومدى ما أصابه من نجاح ، ثم طبيعة هذا الاستقلال الذى تحقق من الناحيتين الواقعية والقانونية .

فى الحقيقة من الصعب أن نعتقد أن أحمد بن طولون جاء إلى مصر لينهج نهج الوكلاء السابقين ، ينفذ أوامر سيده الوالى الشرعى ، ويصرف الشئون نيابة عنه ، ويبعث إليه بحاجته من المال ثم يرضخ لنزواته ، يبقى إذا شاء ويعود متى شاء . وهو على ما رأينا من نظر بعيد وهمة عالية ومواهب متفتقة وآمال بعيدة .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٢ .

(٢) الطبرى:جـ ٧ ص ٥١٩ .

بل نحن فى هذا الصدد نخالف ما ذهب إليه المؤرخ فييت [1] فى كتابه مصر العربية من أن ابن طولون لم يفكر فى الاستقلال منذ البداية ، وأن اتجاهه فى هذه السبيل دفع إليه دفعاً ، فهو يسأل كيف يفعل هذا وهو صنيعة الخلافة العباسية السنى التقى الذى رفض أن يغمس يده فى دم خليفة سابق .

وفى رأينا أن ابن طولون كانت آماله أبعد من آمال مجرد وكيل ينفذ رغبات والى البلاد ، وأن همته لم تكن لتقنع بهذه الدائرة الضيقة ، بل كان يفكر فى استقلال لا ينتقص من كونه صنيعة الخلافة العباسية ، ولا من كونه سنياً تقياً يعف عن الخروج عن أولياء الأمر ، واستقلال لا يجنى عن طريق الاغتصاب والثورة على الخلافة ، إنما يحققه فى كنف الخلافة وبرضاها وموافقتها إذا استطاع إلى ذلك سبيلا .

وعظماء الرجال دائما آمالهم أبعد من تفكير معاصريهم وهم لا يكشفون فى العادة عن نيتهم سافرة ، إنما يشكلون هذه النية حسب الظروف . ويخيل إلينا أن مشروعات ابن طولون الاستقلالية لم تسفر عن وجهها فجأة . إنما ظهرت بالتدريج علي صورة خطوات متسقة متتابعة تتجه نحو هدف واضح مرسوم ، هو التمكين لنفسه فى مصر أولا ثم الاستقلال بهذا البلد الاستقلال الذى تفهمه العقلية الإسلامية المعاصرة .

وفى رأينا أن ابن طولون فى سبيل تحقيق ما كان يستهدفه من التمكين لنفسه فى مصر كان يعمل فى ميدانين : الميدان الأول خارج حدود مصر ، فى عاصمة الخلافة نفسها ، وكان هذا الميدان بالنسبة لابن طولون بالـــغ الأهمية فهو الذى كان يكيف له وسائله ويحدد له أهدافه ، فقد كان فى ضوء ما يشيع فى العاصمة من فتن ومؤامرات وسياسات وتيارات يرسم لنفسه الطريق التي يريد ويستفيد من الأخطاء والأخطار والنزوات .

---

(1) Wiet ; L'Egypte arabe .

وكانت من وسائل العمل فى هذا الميدان الاستعانة بالجاسوسية الدقيقة وإحكام الرقابة علي عاصمة الخلافة ليكون على علم بخفاياها وخباياها ، ويتخذ هؤلاء الجواسيس رسلا لذوى النفوذ والسلطان . وقد برع ابن طولون فى هذه الناحية بصورة فذة وروى مؤرخوه [1] الكثير من عنايته بالجاسوسية وبراعته فى الكشف عن الجواسيس الذين سيرهم أعداؤه لرصد أعماله والكشف عن أخطائه .

وكان لا بد لابن طولون من أن يسلك هذه السبيل فقد كان الموظفون فى مصر يلوذون بصاحب جاه أو سلطان فى حاضرة الخلافة ، وكانت حربه مع هؤلاء الموظفين من أجل النفوذ ليس ميدانها مصر بقدر ما هو بغداد أو سامرا فشقير عامل البريد كان مولى قبيحة أم المعتز ، فلم يستطع القضاء على شقير إلا بعد زوال سلطان أم الخليفة . وكان صراعه مع ابن المدبر عامل الخراج صراعاً عنيفاً ، لأن هذا العامل كان يعتمد على أخ له يدعى ابراهيم بن المدبر صاحب نفوذ بعيد فى بلاط الخلافة . وفضلا عن هؤلاء الجواسيس فقد كان لابن طولون وكلاء أو عملاء [2] من كبار رجال الدولة فى الجيش أو فى القصر يكشفون عن المؤامرات التى يدبرها خصومه ، بل نراهم فى بعض الأحيان يوافونه بنص الكتب التى بعث بها عامل البريد أو عامل الخراج .

واستطاع عن طريق هؤلاء أن يوثق علاقته مع الخليفة المعتمد ، وأن يعتمد على هذه الصلة الوثيقة فى مصارعة الموفق على النحو الذى سنراه .

وكانت له أسلحة أخرى تستخدم فى هذا الميدان ، إذ كان يستعين بالعطايا والهدايا لتنفيذ ما يريد ، واستطاع بهذا الأسلوب أن يكسب عطف كبار الشخصيات بقصر الخليفة مثل الحسن بن مخلد الذى أصبح وزيراً للمعتمد ، واستطاع أيضاً أن يلغى أمراً صدر من المعتمد بنقله من ولايـــة

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٩ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ٥٦ ، ٥٨ ، ١٠٧ ، ١٠٩ .

مصر ، فقد أرسل الواسطى (١) كاتبه المخلص يحمل الهدايا والهبات ليبلغ مأربه من تثبيت سيده فى ولاية مصر ، حتى التجار لم يغفل ابن طولون عن تسخيرهم لتنفيذ مآربه ، ويروى ابن سعيد (٢) فى هذا الموضوع طرائف ، فيذكر أنه أودع الأموال الكثيرة عند كبار التجار لشراء ذمم ذوى النفوذ واستمالة القواد الذين كانت الخلافة تسيرهم لحربه ، ويضيف إلى ذلك قوله إنه إذا تحرك قائد من القواد لمحاربة ابن طولون هرع إليه هؤلاء التجار يخوفونه مغبة ما يقدم عليه ويطالبونه برد ديونهم « لأنه لا يرجى قفول من حارب مائة ألف عنان » (٣) فإذا خاف تلطفوا معه ومنحوه من مال ابن طولون واشتروا ذمته وكسبوا ولاءه .

لم يقنع ابن طولون بهذا كله إنما كان يستفيد من مشاكل الخلافة ونزواتها للتمكين لنفسه وتنفيذ مآربه ، فقد كان من حسن طالعه أن شغلت الخلافة طوال عهده بالحركات الاستقلالية فى الشرق وبثورات الزنج وبالمنازعات الحادة بين الخليفة والموفق ، وقد أفاد أحمد من هذا كله واستغل مثلا ثورة ابن الشيخ فى بلاد الشام لإنشاء الجيش المستقل الذى سوف يكون أداته فى شق طريقه ، وأفاد من النزاع بين المعتمد والموفق إلى أبعد الحدود ، فقد رغب المعتمد فى أن تحمل إليه أموال مصر سرا ، وكتب إلى ابن طولون يطلب هذا ، فانتهز ابن طولون الفرصة وقال إنه لا يستطيع أن يوفر له ذلك إلا إذا كان الخراج بيده « فأنفذ المعتمد نفيساً الخادم بتقليده خراج مصر والمعونة والخراج بالثغور الشامية » (٤) .

أما الميدان الآخر فهو الميدان الداخلى فى مصر ، ولم يكن العمل فى الميدانين منفصلا بل كان متصلا ، وكانت أعماله فى مصر مستقاة أو مكيفة بواقع الحال فى عاصمة الخلافة . وقد اتخذ سبيله فى هذا الميدان الداخلى على هيئة خطوات متتابعة إذا تحققت خطوة تلتها خطوات .

---

(١) Zaky Hassan , Les Tulunides ,

(٢) المغرب ص ٢٩٥ والبلوى ص ٦٠ - ٦١ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩٥ . (٤) نفس المصدر والصفحة .

كانت خطوته الأولى وكان هدفه الأول ألا يكون مشلول السلطان بل يشمل سلطانه مصر كلها ، ويسيطر على مرافقها جميعها لتخضع له خضوعا مطلقا ، وأن ينتهى به الأمر بأن لا يصبح وكيلا عن أمير البلاد القاعد فى بغداد ، إنما يصبح هو أميرا شرعيا بعهد من الخلافة وولاة الأمر .

فعند قدومه إلى مصر لأول مرة كان سلطانه ضئيلا إلى أبعد الحدود ، ربما لم يكن يتجاوز منطقة الفسطاط ، فقد كانت مدينة الأسكندرية عمالة مستقلة يتولاها رجل يسمى إسحق بن دينار [١] . وكانت برقة - وهى نظريا من عمل مصر - يتولاها رجل يسمى أحمد بن عيسى [٢] ، حتى أصحاب الكور فى البلاد لم يكونوا خاضعين خضوعا مطلقا للسلطة المركزية فى الفسطاط ، بل كانوا يتصرفون تصرفا مستقلا ولعلهم كانوا يتلقون التأييد من صاحب الإقطاع مباشرة ، ولم يكن هناك ما يلزمهم الخضوع لنائب الأمير فى الفسطاط [٣] .

لذلك انصرف هم ابن طولون إلى أن ينبسط ظله على حدود مصر الطبيعية وأن يكون له سلطان شرعى على القطر كله ، ليس كنائب للأمير بل كأمير شرعى له ما للولاة من سلطات ومن اختصاص . وكان كما قلنا يكيف وسائله فى بلوغ هذا الأمر بالأوضاع السياسية فى عاصمة البلاد .

وقدر للظروف أن تجرى كما كان يتمنى ويشتهى ، فقد أراد الخليفة أن يتحرر من نفوذ الأتراك بالاستعانة بالطاهريين فى خراسان لإقرار الأمن فى البلاد فحال الأتراك دون ما يبغى بل أحب أن يستفيد من النزاع والمنافسات داخل صفوفهم فلم يوفق ، إذ ثاروا عليه بزعامة باكباك نفسه حتى عزل ثم قتل ، وخلفه المهتدى الذى أفلح فى أن يتحرر من عصبة باكباك إلا أن زعيما

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٤٦ - النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧

(٢) ابن سعيد:ص ٨٠ .

(٣) Zaky Hassan ; Les Tulunides p 44 .

تركياً آخر برز إلى مقدمة الصفوف ، وأصبح حظياً عند الخليفة الجديد فمنحه إقطاع مصر [1] ، ذلك هو يار كوج . ومن غريب الاتفاق أن يكون هذا الزعيم الجديد صاحب اقطاع مصر الرسمي هو صهر أحمد بن طولون [2] . فقدر له أن يستفيد من باكباك زوج أمه ويار كوج أبي زوجته في سنين متقاربة .

ويبدو أن ولاية يار كوج على هذا النحو كانت إيذاناً بتحقيق رغبة ابن طولون ليس في الحصول على سلطان مطلق في مصر ، بل في تولي أمور البلاد رسميا . ويمكننا أن نعتبر سنة ٢٥٧ - ٢٥٨ سنة حاسمة في حياة ابن طولون ، فقد كانت بداية لسلطانه الحقيقي . ويبدو أن ياركوج لم يجعله نائبا عنه فحسب ، بل جعله عاملا على مصر بصفة رسمية ، وإلا فما معنى أن يقول له « تسلم من نفسك لنفسك [3] » إلا أن يكون هذا التسلم رسميا واسع النطاق . ولا بد أن ذلك تم بعلم الخليفة ورضاه . فقد أطلقت يد ابن طولون منذ ذلك التاريخ في شئون البلاد ، فأسندت إليه ولاية الأسكندرية ، وأصبح إسحق بن دينار عاملا من قبله كما خضع له أحمد بن عيسى صاحب برقة [4] ودان له حكام الكور بالطاعة والنفوذ والولاء .

ولا ينتقص من هذه الحقيقة ما تذكره مجموعات النقود من أن أول الدنانير التي ضربت في مصر وتحمل اسم أحمد بن طولون كـــان تاريخها ٢٦٦ هـ ، وأن النقود التي ضربت في الفترة بين سنة ٢٥٤ و ٢٦٦ لم تكن تحمل إلا اسم الخليفة فقط ، فقد تكون هنالك دنانير ضربت قبل هذه السنة تحمل اسم ابن طولون ثم فقدت فلم يعثر عليها حتى اليوم [5] . فالواضح أن ابن طولون بدأ عام ٢٥٧ ، ٢٥٨ يتصرف في أمور مصر كأنه صاحبها الشرعي، ولم يكن يستطيع وهو البعيد النظر أن يفعل هذا لو كان مجرد وكيل

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٩ — (٢) نفس المصدر ص ٤٦
(٣) نفس المصدر ص ٤٦ — (٤) ابن سعيد:المغرب : ص ٨.
(٥) Lane - Poole : Coins p 135 piece 903

عن يار كوج ، فقد بدأ منذ ذلك التاريخ يختط مدينة القطائع توطئة للانتقال من مدينة العسكر [1] المقر الرسمى لولاة بنى العباس . والكندى [2] يربط فى وضوح بين ولاية ابن طولون على هذا النحو وبين بناء القطائع ، ويؤيد هذا القول ما يرويه البلوى [3] من اغتباط ابن طولون بهذه النقلة فى حياته ، وأنه اعتبر ولاية مصر على هذا النحو منة من الله جزاء ترفعه عن سفك دم الخليفة فى مدينة واسط ، فقد قال « تركنا لله عز وجل شيئاً واحدا عوضنا عنه أشياء أعظم منه وأجود وأحمد عاقبة . كانت نهاية ما وعدنا به على قتل المستعين بالله تقليد واسط فخفنا الله عز وجل فى قتله فلم نقتله فعوضنا جل اسمه مصر وغيرها [4] » .

ويبدو أن انتقال الخلافة إلى المعتمد لم يغير من نفوذ يار كوج ولا أحمد ابن طولون ، كما يبدو أن هذا السلطان الاسمى الذى ظفر به ابن طولون كان بداية لسلطان حقيقى أقلق الخليفة وأفزعه ، فقد روى ابن سعيد [5] أن أماجور خوف المعتمد من نفوذ ابن طولون المتزايد بعد القضاء على ثورة ابن الشيخ فأحب الخليفة أن يتلخص من أحمد بطريقة بارعة ، فكتب إليه يطلب الرحيل من مصر ليتولى منصباً رفيعا فى حاضرة الدولة ، وكان أحمد من الفطنة بحيث يدرك أن هذه الترقية باطنها العزل . لذلك بعث كاتبه الواسطى إلى العاصمة محملا بالهدايا واستطاع بفضل يار كوج والحسن بن مخلد وأصدقاء ابن طولون أن يثبت بقاءه فى مصر . وكانت شارات هذا التثبيت أن وافق الخليفة على أن يلحق به ولده وسائر حريمه [6] .

ولم يفقد أحمد هذا النفوذ بعد وفاة يار كوج لأن نفوذه بعدئذ لم يعد يعتمد على باكباك أو يار كوج أو غيره ، إنما على قوته الشخصية ووفرة ماله وجنده وعسكره .

---

(1) Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages pp. 63-64

(2) الكندى : الولاة والقضاء ص ٢١٥ .

(3) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٨ .

(4) ابن سعيد : المغرب ص ٨٣ .

(5) نفس المصدر والصفحة .

(6) ابن سعيد : المغرب ص ٨٤ .

مجمل القول أن أحمد بن طولون استطاع كما تقدم أن يبسط سلطانه على القطر كله ، وأن يصبح أميراً على مصر وليس مجرد تابع لإقطاعى يقيم فى بغداد .

وابن طولون وهو يسعى حثيثاً لبسط نفوذه على البلاد والفوز بولايتها الرسمية لم ينس أن يستكمل سيادته على البلاد وكانت هذه السيادة لا تتم إلا إذا أشرف على ناحيتين هامتين : على البريد والخراج .

فقد كان صاحب البريد لا يخضع لسلطان الوالى إنما يتصل بدار الخلافة مباشرة ، وكان من مهمته أن يتجسس على الوالى ويرقب أعماله ويبلغ عنها دار الخلافة أولا بأول . وكان ابن طولون لا يريد أن يخضع لهذا الرقيب ، بل يريد أن تكون الرقابة له وحده فلا تعرف دار الخلافة من أموره شيئاً . وقد بدت خطورة صاحب البريد بعد حضور ابن طولون مباشرة ، فقد كان شقير غلام أم المعتز يشغل هذا المنصب ، وقد بادر بالاتصال بدار الخلافة يخوف المسئولين من ابن طولون ويحذرهم منه ، واستطاع أحمد بن طولون أن يحصل على نصوص الكتب التى أرسلها شقير . على أن هذا الصراع قد انتهى بعزل شقير [١] بعد مصرع المعتز وذهاب سلطان أمه ، وأصبح البريد خاضعاً لابن طولون ، فضمن ألا تتسرب أخباره إلى دار الخلافة إلا بالقدر الذى يريده .

ولم يكن من المعقول أن تكمل سيادة ابن طولون الواقعية دون السيطرة على الخراج ، فقد درج العباسيون على فصل الرئاسة السياسية والعسكرية والدينية عن الشئون المالية التى توكل إلى عامل الخراج الذى يخضع للخليفة مباشرة .

وكانت ولاية الخراج يوم قدم أحمد بن طولون بيد رجـــل يسمى ابن المدبر [٢] . وبدا واضحا منذ اللحظة الأولى أن صراعه مع ابن المدبر هذا

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٤ .

سيكون صراعا مريرا ، بل على نتيجة هذا الصراع كان يتوقف مستقبل ابن طولون نفسه .

وابن المدبر هذا ولى الخراج منذ سنة ٣٤٨ هـ فى عهد الوالى يزيد بن عبد الله ، وقد بدأ حياته العملية منذ أيام الخليفة الواثق (٢٢٨ - ٢٣٣) ، ثم تقدم حثيثا فى عهد المتوكل ، وفى سنة ٢٤٦ أصبح يشرف على ستة دواوين فى العاصمة ، ثم اختاره المتوكل عاملا لخراج حمص ثم عهد إليه بخراج مصر [١] ، وكان سلطانه واسعا إلى أبعد الحدود ، بل كانت قوته فى الحقيقة مستمدة من ابتزازه لأموال الناس وتهيئته للخلافة موارد متزايدة باستمرار ، فقد كان يحاول زيادة الدخل العام بكافة الوسائل ، فزاد من الضرائب المفروضة واحتكر النطرون وفرض ضرائب أخرى جديدة ، كما كان نفوذه مستمدا من نفوذ أخيه إبراهيم فى البلاط ومدى حظوته عند الخليفة .

ورغم هذه القوة وهذا السلطان التحم به ابن طولون منذ اللحظة الأولى ، ورأى فيه عدوه الأول ، فانتزع منه حرسه الخاص الذى كان يحف به ليحد من سلطانه ، كما رفض هدية قدمها له عامل الخراج ومقدارها عشرة آلاف دينـار . وأحس ابن المدبر بما يبيته له هذا العامل التركى الأريب ، ونشب بينهما صراع مرير ليس مسرحه الفسطاط إنما مسرحه عاصمة الخلافة ، كل منهما يحاول اكتساب ولاء رجالات العاصمة وكبار القواد ليطيح بنفـوذ الآخر .

ولم يستطع ابن طولون أن يتغلب على خصمه العنيد ابن المدبر إلا فى عهد صهره يار كوج وخلافة المهتدى [٢] . إذ نجح فى أن يحصل من المهتدى على قرار بعزله وإرسال عامل للخراج جديد اسمه محمد بن هلال [٣] . وعاود ابن المدبر الكرة مرة أخرى مستعينا بنفوذ أخيه إبراهيم لدى المعتمـد [٤] ،

(١) هذه التولية ورد ذكرها فى قطعة نسيج من الحرير بمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة تاريخها سنة ٢٥٦ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة . (٤) نفس المصدر ص ٥٦ .

فاستعاد وظيفة الخراج ، وربما ينسب إليه ما كان من محاولة استدعاء ابن طولون إلى عاصمة الخلافة توطئة لعزله . وظل الصراع على هذا النحو إلى أن وضحت حاجة المعتمد إلى أن يحمل إليه خراج مصر سرا بعد تفاقم نزاعه مع الموفق ، وانتهز ابن طولون هذه الفرصة ووعده بتنفيذ ذلك إذا أسندت إليه عمالة الخراج رسميا [١] ، ثم كان له ما أراد ونقل ابن المدبر ليتولى خراج فلسطين ودمشق والأردن ثم توج نصر ابن طولون متولى خراج الثغور الشامية فوق تولية خراج مصر فنكل بخصمه ابن المدبر [٢] .

كان هذا النصر نذيرا بإطلاق يده فى الشئون الاقتصادية فولى على الخراج من قبله من يدين له بالولاء ، وبذلك استكمل سيادته الرسمية والفعلية .

وكان من أهم أهدافه أيضاً أن يستقيم له أمر البلاد ، وأن يستتب فيها الأمن ففى ظل هذا الأمن تنجح مشروعاته الاقتصادية والتجارية ، ويستطيع اعتماداً على بلد مستقر آمن أن يرنو ببصره خارج حدود البلاد ، لأنه لا يكفى أن يكون له السلطان على مرافق مصر كلها ، بل يجب أن يستقيم له الأمر فيقضى على مظاهر الفتنة والخروج ، فترتفع هيبته فى دار الخلافة وفى العالم الإسلامى أجمع .

فما كاد الأمر يستقيم له حتى واجهته فتن داخلية ذات نتائج خطيرة ، بعضها كان يمثل انتفاضات علوية للنيل من نفوذ العباسيين وهيبتهم ، ولم يكن التصدى لهذه الهبّات والقضاء عليها مجرد إقرار لأمن داخلى ، بل كان يحمل فى طياته إخلاصاً للبيت العباسى ، ودفاعاً عن حقوق الخلافة العباسيـة ، وتثبيتاً لمركز ابن طولون باعتباره عامل الخلافة المخلص ورجلها القوى .

(١) الكندى : ص ٢١٧ ، البلوى : ص ٧٣ ، المقريزى : جـ ١ ص ٣١٩ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٣ .

ولم يخل قطر اسلامى فى ذلك العهد من متاعب داخلية تتخذ لبوساً دينيا علويا أحيانا وغير علوى أحيانا أخرى ، تنفيسا عن متاعب الناس وتعبيراً عن آلامهم .

وقد واجه ابن طولون فتنتين من هذا القبيل مواجهة الحازم الراغب فى تشديد قبضته على البلاد . قامت إحداهما على تخوم مصر الغربية فى إقليم برقة ، وكان منذ أيام يار كوج من عمالة ابن طولون ، فقد استطاع بغا الصغير[1] بعد أن فرَّ من بغداد ومتاعبها أن يستقر فى منطقة بين برقة والإسكندرية ، وأن يرفع راية العصيان ، ويبدو أن بغا هذا كى تتخذ دعوته شعاراً يكسب الأنصار ، ادعى نسباً علويا شأنه شأن الثوار والخارجين فى هذا العصر ، ويتضح مما رواه الكندى [2] والبلوى [3] أنه اتخذ اسم أحمد بن محمد بن طباطبا ، واتخذ لنفسه نسبا علويا .

ولم يكن من المعقول أن يتسامح ابن طولون ، فبعث بقائد جيشه بهم بن الحسين فهزم بغا وقتله وحملت رأسه إلى الفسطاط سنة ٢٥٥ هـ . ويبدو أن أهل برقة لم تفت هذه الهزيمة فى عضدهم ، ولعلم قد استمرأوا الخروج ، فقد اندلعت الثورة من جديد ، ويبدو أنها : كانت أكثر خطراً وأشد عتوا بدليل اهتمام أحمد بن طولون بإخمادها وتسخيره الجيش والأسطول فى القضاء عليها ، وقد أرسل من رجاله أبا الأسود الغطريف ويزيك الفرغانى وأتبعهم بغلامه لؤلؤ حتى استقام له أمر المغرب ودان له بالطاعة وأمن حدود مصر الغربية [4] .

ولم تكن ثورة بغا هى الانتفاضة العلوية الوحيدة ، فقد أشار كل من البلوى [5] والكندى [6] والمقريزى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية إلى

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٤ ، Les Tulunides p 55

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٤ ، البلوى ص ٦٢ .

(٣) البلوى:ص ٦٢ ، انظر أيضا : المقريزى:جـ ١ ص ٣١٩ .

(٤) البلوى : ص ٧٠ - ٧٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٦٢ - ٦٣ . (٦) الكندى : ص ٢١٣ .

ثورة ابن الصوفى العلوى ، وذكروا له نسبا علويا صريحا ، وأن اسمه ابراهيم ابن محمد ويسوقون هذا النسب إلى على بن أبى طالب ، وقد ثار هذا العلوى بصعيد مصر قرب مدينة اسنا سنة ٢٥٣ هـ ، فاستولى على هذه المدينة واستفحل خطره [١] ، وبلغ من كثرة أنصاره أن هزم ابن يزداد قائد جيش ابن طولون وقتله سنة ٢٥٦ هـ [٢] ، مما اضطر أحمد إلى أن يرسل إليه بهما ابن الحسين وابن عجيف فهزم ولجأ إلى الواحات ، ثم عاود الظهور من جديد ، ولم يضع حدا لفتنته إلا ظهور ثائر آخر يسمى العمرى فى الصعيد الأقصى وبلاد النوبة [٣] . وقد كفى أحمد بن طولون هزيمة الصوفى الثائر الذى فرَّ إلى عيذاب ومنها عبر البحر إلى بلاد الحجاز .

ولم يكن القضاء على ابن الصوفى نذيرا باستئصال الفتنة من الصعيد ، فقد ظهر من أتباع ابن الصوفى رجل يسمى أبا روح [٤] ، ظل الطولونيون يطاردونه ويطاردهم إلى أن تمكنوا من القضاء عليه ، وظهر أحمد بن طولون بعد إحرازه هذه الانتصارات الداخلية وقضائه على هذه الثورات العلوية بمظهر المدافع عن العباسيين وعن حقهم الشرعى فى الخلافة .

ولم تكن هذه خاتمة المتاعب الداخلية ، فقد ظهر فى الصعيد الأقصى رجل آخر يدعى العمرى نسبة إلى عمر بن الخطاب [٥] ، ويبدو أن هذا الرجل لم يرد أن ينتقص من هيبة ابن طولون أو أن ينال من سلطانه .

فقد كان من أتقياء الناس وعلمائهم ، قضى شطراً من حياته فى القيروان وحاز ثقافة واسعة ، ثم مضى إلى الصعيد ، واستقر عند ثغر مصر الجنوبى ، وأراد أن يجاهد فى سبيل الله ، وأن يدفع عن المسلمين غـــارات

---

(١) Zaky Hassan ; Les Tulunides p . 55

(٢) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٢١٣ .

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٦٤ – ٦٧ . (٤) نفس المصدر ص ٦٧ – ٦٩

(٥) Zaky Hassan : Les Tulunides p . 56

البجة التي كانت لا ينقطع سيلها ، ولا يفتأ هؤلاء الناس ينوشون صعيد مصر ويسلبون وينهبون . وقد استطاع أن يوقف عدوان البجة ، وأن يخضعهم لسلطانه حتى دانوا له بالطاعة وأدوا له الجزية ، وكان « لا يعرض لأحد بأذية لا ذمي ولا ملة وكان مسالما للتوبة وللعهد الذى لهم » [1] . ولكن ابن طولون لم يرتح للنفوذ البعيد الذى أصابه الرجل وخاف أن يطمو به طمعه فيتجاوز الصعيد إلى مصر كلها ، ومهما كان توفيقه فى جهاد البجة فإن ابن طولون رأى فى بقائه انتقاصا لسيادته ، فأرسل من قواد جيشه من تصدى له لحرب ، وظلت المناوشات دائرة بين الفريقين حتى تمكن بعض غلمانه من قتله شوا برأسه إلى أحمد بن طولون .

وبهذا استقامت الجبهة الداخلية لوالي مصر ، وقضى على الثورات كلها وأمنت البلاد شر الفتنة ، وتوطدت سطوة أحمد بن طولون ، واعترف الناس بزعامته ، وقد أفاد ابن طولون من هذه الفتن الداخلية أجل فائدة ، فقد علا نجمه فى سماء الحياة الإسلامية ، وعرف الناس أنه قائد حازم وعامل قوى بحيث لا يجرؤ ثائر على الخروج بمصر ، وأهم من هذا أن الجيش الطولونى الوليد اكتسب فى هذه المعارك الداخلية خبرة وتلقى تدريباً صحيحاً مكن ابن طولون من أن يستغل هذه الخبرات المكتسبة فى ميادين أخرى .

على أن أهم خطوات أحمد بن طولون فى سبيل التمكين لنفسه وتحقيق أهدافه هى بناء الجيش المصرى الذى لا يعتمد على الخلافة إنما يعتمد عليه ولا يدين بالولاء لعاصمة الخلافة ، إنما يدين بالولاء لابن طولون ويكون عدته فى تحقيق مشروعاته وتنفيذ أهدافه وصيانة الاستقلال الذى تصدى لبنائه وتدعيمه . وقصة تدعيم القوات المسلحة تتجلى فيها براعة أحمد بن طولون ونظره الثاقب وتحينه الفرص المناسبة ومقدرته العسكرية وبراعته الحربية . وفى الحق إن جهود أحمد بن طولون فى سبيل التمكين لنفسه تتجلى بصورة فذة فى الجهود المضنية التى بذلها لتدعيم جيشه وأسطوله .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٦٥ .

ورغبة ابن طولون في إيجاد قوات مسلحة تأتمر بأمره تجلت منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامه أرض مصر ، حينما رأى حرس ابن المدبر وأحب أن يختص به نفسه دون غيره . وظلت هذه الرغبة تراود ابن طولون ، وكان أهم ما يقعده عن تنفيذ بغيته أولا خوفه من إثارة سخط الخلافة وشكها في نواياه ، وهو لم يزل في سبيل بناء قوته ، ثم حاجته الماسة إلى المال ، وابن المدبر عامل الخراج يغل يده ويرقب أعماله ويكشف للعاصمة عن نوايـــاه .

ثم واتته الفرصة المناسبة المرتقبة ، وكان بارعا في استغلالها والإفادة منها ، ذلك أن عيسى بن الشيخ بن السليل الشيباني [1] عامل فلسطين والأردن أحب أن يفيد من ضعف الخلافة واضطراب شأنها ، وأن يمكن لنفسه كما مكن بعض القواد لأنفسهم ، فأعلن الخروج ، ونقض الطاعة واستولى على دمشق ، وأغراه نصره هذا بقطع الخراج عن الخليفة العباسي ، بل طمع في أموال مصر التي كانت تحمل كل عام إلى الحاضرة ، فاستولى على نحو ٧٥ ألف دينار كان قد بعث بها ابن المدبر .

لم يقنع هذا الوالي الطامع بالسيطرة على بلاد الشام ، بل طمع فيما بيد أحمد بن طولون ، حتى إذا مات المهتدى وخلفه المعتمد بلغ به اعتداده بنفسه أن تخلف عن البيعة للخليفة الجديد ، بل لم يدع له على منابر بلاده ، وتلاقت رغبة الخلافة في استرداد هيبتها ورغبة ابن طولون في وقف هذا التيار المندفع من بلاد الشام ، وكتب المعتمد إليه يطلب أن يعينه في القضاء على هذه الفتنة ، وكانت فرصة انتهزها أحمد ، فاستأذن في الإكثار من قواته وتكوين الجيش . وأذن له الخليفة بل كتب إلى ابن المدبر يأمره بأن يمده بحاجته من المال « فتبعهما أحمد بن طولون فعرض الرجال ، وأثبت من يصلح إثباته واشترى العبيد روما وسودانا ، وجدد آلته وكل ما يحتاج إليه » وتهيأ ابن طولون لتنفيذ أوامر الخليفة ، غير أن الخليفة تخوف أن يؤدى تدخل ابن طولون على هذا النحو إلى إعلاء شأنه على حساب الخلافة ، فطلب إليه أن يعود وعهد بهذه المهمة إلى أماجور .

---

(١) المقريزى:جـ ١ ص ٣١٥ .

ويبدو أن المحاولة التى بذلها ابن طولون فى بناء قواته المسلحة كانت من القوة بحيث أفزعت الخلافة فحاولت أن تبعد ابن طولون عن مصر نهائيا على النحو التى ذكرنا ، ولكن دون جدوى . فقد تمكن ابن طولون من مصر وتخلص من ابن المدبر فخلصت له أموالها ، وبدأ فعلا فى بناء قواته المسلحة فى رغبة وإلحاح وإصرار .

فلنتحدث إذن عن الجهد الذى تجلت فيه همة ابن طولون وعبقريته وبعد نظره . أصبح جيشه قائماً فى الحرب والسلام ، إذا كانت الحرب خرج لتحقيق أهدافه ، وإذا كان السلام كان عدته فى إقرار الأمن والطمأنينة فى البلاد ، وأصبحت لمصر ربما للمرة الأولى منذ الفتح العربى قوات نظامية كبيرة العدد مستقلة عن الخلافة تخضع لأمير مصر مباشرة [١] .

ثم استفاد من التجربة المثيرة التى عاشها فى بغداد وما عرفه من غلبة الترك واستبدادهم ، فخاف أن يغلب على الجيش عنصر واحد يستبد بالأمر ويوجه أمور الدولة لصالحه . خاف أن يتخذ جند هذا الجيش كله من عشيرته الترك مخافة أن يستبدوا به ، كما استبدوا بأمور بغداد ، وأن يحيلوا عاصمة مصر إلى أتون من الفتن والدسائس ، ولم يكن من المعقول أن يتخذ جنده كله من القبائل العربية التى استقرت فى مصر منذ الفتح فهو لم يشأ أن يكرر تجربة الأغالبة الذين اعتمدوا على جند العرب ، وكان تاريخهم كله صراعاً مريراً مع هؤلاء الناس ، هذا إلى أن القبائل العربية فى مصر بعد أن حرمت من العطاء زمن المعتصم أخذت تنزح إلى الريف وتشتغل بالزراعة وتخالط السكان وتفقد ميزاتها العسكرية ، وهم رغم شجاعتهم عرفوا بتبرمهم بالنظام وحبهم للاستقلال .

فأحب ابن طولون أن يكون جيشه خليطا مـــن عناصر متعددة : من الأتراك ومن السودانيين [٢] ، ومن العرب أيضا ، فقد استخدم منهم نحـوا

---

(١) Zaky Hassan : Les Tulunides p 165

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٣ .

من ٧٠٠٠ من المطوعة . وتتمثل هذه الجنسيات المختلفة في بناء مدينة القطائع [١] ، فقد اختص كل عنصر واحد من عناصر جيشه بقطيعة مستقلة ، بهذا ضمن ألا يغلب على الجيش عنصر فيستبد به ، إنما ضمن أن هذه العناصر لن يجمعها ولاء له ولا طماعة ففي استطاعته أن يؤلب فريقا على فريق ، وأن يكونوا جميعا رهن إشارته وطوع يمينه .

ويبدو أن ابن طولون لم يكن متواضعا في هذا الشأن ، إنما بالغ في زيادة عدد الجيش وتدعيمه تحفزه آماله الكبار والمؤامرات والفتن والدسائس التي كانت تدبر له في عاصمة الدولة . وقد ذكر أغلب المؤرخين أن قوات ابن طولون بلغت نحوا من مائة ألف عنان ، ولا يمكن أن نسم هذه الرواية بطابع المبالغة ، بل يبدو أن قواته بلغت فعلا هذا العدد ، فرجال ابن طولون في الحاضرة كانوا يخوفون القواد الذين تحرضهم الخلافة علي حربه بقولهم « إنه لا يرجى فلول من حارب مائة ألف عنان [٢] » وابن طولون نفسه في كتابه الشهير الذي بعث به إلي الموفق يشير إلى هذه الحقيقة بقوله « ليس مثل الأمير أيده الله في أصالة رأيه وحزمه وتدبيره ونظره في عواقب أموره قصد المائة ألف عنان هي عدته فجعلها عليه [٣] » ويستفاد مما رواه البلوي وابن سعيد والمقريزي وابن اياس أن أحمد جند نحوا من ٢٤ ألفا من الترك و ٤٠ ألفا من السودان و ٧٠٠٠ من العرب وبقية المائة ألف من الأجناس الأخرى ، ولا ندري هل أشرك في جيشه هذا أبناء البلاد الأصليين [٤] ، ولا نستبعد أن يكون قد استعان بفريق من الجند المصريين تمشياً مع سياسته المعروفة بميله لأهل البلاد وتقريبه إياهم .

وكانت لابن طولون سياسته المرسومة في السيطرة على هذه الطوائف والتحكم فيها وتقريبها إليه وتسخيرها في تحقيق أهدافه ، فقد جعل ضباط

---

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٢٣ ، المقريزي:جـ ١ ص ٣١٥ .

(٢) البلوي : سيرة ابن طولون ص ٩٥ . (٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩١ .

(٤) Les Tulunides p . 167 .

هذا الجيش من فئة من الأتراك المقربين إليه المعترفين بفضله ونعمته . ولكى يكون هؤلاء الجند على استعداد دائم كان يدربهم تدريباً شاقا ، ويكبح جماح الفتنة فى صفوفهم بالقسوة والعنف . ثم كانت فتوحه وتوسعاته فتحاً لباب الأمل أمامهم ، الأمل فى الثروة والجاه ، وعرف ابن طولون بحرصه البالغ على العناية بهم وتوفير أسباب الراحة لهم ، فقد روى البلوى ما يدل على أنه كان يؤثرهم على نفسه « هؤلاء الغلمان فهم عدتى وينتسبون إلى انتساب الأبناء إلى الآباء ... فأنا أوثرهم بما يحبون وأرتفع أنا عنه كما أنهم يؤثروننى فى أوقات التضايق على نفوسهم فيبذلون فىَّ مهجهم دون مهجتى [1] » . لذلك كان يغدق عليهم دون حساب ويدفع أعطياتهم فى حينها ، ولم تحدث فى أيامه أية ثورة تنسب إلى التخلف فى الفوز بالأجور ، الأمر الذى كان يألفه المعاصرون له ، إنما كان فى بعض الأحيان يمنح راتب سنة منحة خالصة لهم « فتكون أيديهم وقلوبهم قوية [2] » .

وابن طولون فى سبيل تدعيم قواته المسلحة لم يهمل الناحية البحرية ، فقد عنى بالأسطول عنايته بالجيش ، ولكن يبدو أن بناء الأسطول جاء متأخراً بعض الشىء عن إنشاء الجيش ، ولم تتضح الحاجة الماسة إلى الأسطول إلا بعد توسع ابن طولون فى بلاد الشام ، واضطراره إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ، ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين الشام ومصر .

ثم زادت عنايته بالناحية البحرية لما وضحت مشروعات الموفق للقضاء عليه وتفكيره فى غزو مصر ، وخوف ابن طولون من أن يطأه العدو من ناحية النيل ، لذلك شرع فى بناء حصن الجزيرة والإكثار من بناء السفن [3] .

---

(١) البلوى : ص ٣٣٦ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١١١ ، ابن سعيد ص ٨٢ .

(٣) الكندى . الولاة والقضاة ص ٢١٨ .

وعنى بدور الصناعة عناية فائقة ، والبلوى يذكر أنه عهد بالإشراف على إحدى دور الصناعة إلى أبى شجاع كامل بن أسلم [1] .

وكان ابن طولون شديد الإحساس بقيمة الأسطول فى استكمال استعداده الحربى وحاجة هذا الأسطول إلى الضبط والإحكام والعناية الفائقة والصنعة المتينة ، فقد قال لصاحب دار الصناعة « كل ما تعمل لى من العدة يكتفى فيه بالقليل مع تقدم هيبتى فى صدور الناس إلا المراكب فإن البحر لا يهابنى ولا يخاف سورتى وليس يعمل فى البحر إلا الوثاقة والجودة فى الصنعة وتقديم الإحسان [2] ... » .

والبلوى يعطينا حقائق هامة عن الأسطول الطولونى ، فهو يعدد سفنه ، ويبين أنواعها وأنه كان يضم مائة مركب كباراً ، ومائة مركب حربية سوى العلابيات والحمائم والعشاريات والسناديل وقوارب الخدمة [3] .

وأسطول هذا شأنه لا بد أنه لعب دوراً كبيرا فى حياة ابن طولون وفى مشروعاته العسكرية بعكس ما يظن [4] . ويخيل إلينا أن مشروعاته فى بلاد الشام كانت تعتمد على حماية بحرية عظيمة ، كما أن تصديه لجهاد البيزنطيين كان يعتمد بدوره على هذه الحماية البحرية . وقد عرفنا كيف اشتركت سفنه فى قمع الثورة فى برقة وأسهمت فى القضاء عليها .

ولم يكن من المعقول أن يهمل أحمد بن طولون وهو بصدد التمكين لنفسه الناحية الاقتصادية فى البلاد ، فقد كانت مشروعاته كلها فى حاجة إلى أموال ونفقات طائلة ، ولم يكن من المعقول أن تنجح مشروعاته ما لم تقترن بإصلاحات اقتصادية بعيدة المدى مكنته من السيطرة على موارد البلاد وتسخير هذه الموارد فى سبيل تحقيق أهدافه .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٠٨ . (٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) البلوى:ص ٨٧ . (٤) Les Tulunides p . 174

فقد كانت أحوال مصر الاقتصادية قبيل مجيئه وفى السنوات الأولى التى أعقبت قدومه قد تناهت فى السوء ، وبدأت دلائل الاضطراب فى الأحوال المالية منذ أيام الخليفة المنصور العباسى [1] ، حينما أمر بأن يحمل الولاة إلى العاصمة قدرا معلوما من الخراج ، واعتبارهم مسئولين شخصيا عن الجباية ، أو بمعنى آخر طالب « بضمان خراج مصر » [2] . فانطلقت أيدى الولاة دون رقيب تفرض على الناس ما طاب لهم من الجبايات ، وحسبهم أنه مال الخلافة يدفع لها كل عام ، ثم جاءت الإقطاعية التركية وفى ركابها الإجراءت العنيفة والسياسة الزراعية المضطربة ، ومضاعفة الخراج بكل وسيلة ممكنة .

ونظرة إلى الوثائق التى أوردها Karabacek [3] تكفى لإعطاء صورة عن هذه الفوضى وهذا الاضطراب ، حتى آل الخراج إلى ابن المدبر ، فتمادى فى ظلاماته حتى أصبح المفروض أربعة أضعاف ما كان عليه بالأمس ، بل افتن فى فرض المال ، ففرض ضريبة على الكلأ وسماها ضريبة المراعى ، كما رسم ضريبة على المصايد ، واحتكر للدولة مادة النطرون ، وبلغ به الأمر حدا أنه فرض الضرائب على أشجار النخيل والسنط واللبخ ، فكان طبيعيا أن تنهار الحياة الاقتصادية وأن يتدهور الإنتاج ، وأن تصبح البلاد على شفا حفرة من الإفلاس [4] .

ولم يكن من المعقول أن يقف أحمد بن طولون من هذه الأوضاع موقفا سلبيا وإلا كيف ينجح فى تحقيق مشروعاته وبناء صرح حكومته ومناوأة الأعداء ! ! فلننظر إلى أى حد استطاع أن يقيل البلاد من عثرتها وأن يبنى اقتصادا سليما كلبنة فى صرح الاستقلال المنشود .

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٢ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) Karabacek : p. E. R. F. No 794

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨٥ . Les Tulunides p 242 .

ورغم ندرة الوثائق التى توضح الجهود التى بذلها هذا الرجل فى الميدان الاقتصادى إلا أنه فى استطاعتنا أن نشير إلى الخطوط العريضة فى سياسته الاقتصادية التى صادفت من النجاح فوق ما كان يريد .

كانت خطوته الأولى فى هذا الميدان أن يصبح له أمر الخراج فى البـلاد ، ومن هنا كانت حربه مع ابن المدبر ، ويمكننا أن نؤرخ بداية نجاح ابن طولون البلاد وأن يقصى ابن المدبر عنه اقصاء تاما .

وكان أول ما اتخذه بعد عزل ابن المدبر أن جعل ديوان الخراج خاضعا له خضوعا مطلقا ، وأصبح أبو أيوب عامل الخراج الجديد خاضعا له ، ثم شغل الإدارة المالية بموظفين يدينون له بالطاعة والولاء ، فجعل عبد الله بن دشومه أمينا على الخراج ، وجعل مولاه نعيما عينا ، ورقيبا على تصرفاته [١] ، أما الأملاك والضياع فإنه عهد بالإشراف عليها إلى واحد من رجاله يدعى سليمان ابن ثابت [٢] . ولا بد أن يده الحازمة قد امتدت إلى عمال هذا الديوان فى البلاد كلها تقصى من اشتهر بفساده ، وتعين أعوانه وأنصاره ليستقيم له الأمر ، وفرض رقابة صارمة على موظفى هذا الديوان ، ووضع حدا لنهبهم وسلبهم ، ولم يعد فى استطاعتهم أن يفرضوا ما طاب لهم من ضرائب دون رقيب على نحو ما كانوا يفعلون . وكان « حظره الارتفاق على العمال » [٣] من أنجع الخطوات التى اتخذها لضبط أحوال البلاد ، وكف أيدى العابثين عن التلاعب بها .

لكى يعيد للسوق المالية الطمأنينة والثقة التى هى من أبجديات النجاح الاقتصادى تراه يعمد إلى إصلاح العملة بسك الدينار الطولونى الجديد الـذى

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٨٥ .
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

يمتاز بثقل وزنه وخلوه من الغش والفساد . فكان إصلاح العملة على هذا النحو أهم ركيزة من ركائز الاستقلال الاقتصادي ، بل كان مجلبة للثقة والرخاء .

وكانت إصلاحاته الاقتصادية فى الحقيقة تجرى فى طريق واضح وهو : الاعتماد على الخراج باعتباره المورد الضريبى الأول مع الكف عن الجبايات الظالمة القديمة ، وهو كان يعتقد أن الخراج لو أحسن توزيعه وضبطه وجبايته والكف عن التلاعب به لأصبح من أهم الموارد المالية فى البلاد . لذلك نراه منذ اللحظة الأولى التى بدأت فيها رقابته على مالية البلاد « يرغب بنفسه عن أدناس المعاون [١] » ، ويلغى الجبايات الظالمة القديمة التى لم تكن حصيلتها تتجاوز مائة ألف دينار فى العام [٢] . فألغى ضريبة المراعى القديمة ، والدليل على هذا أنه لم ترد إليها أية إشارة فى أية وثيقة بردية من عصر ابن طولون ، وأنها عادت إلى الظهور من جديد فى وثائق عام ٣٠٣ هـ [٣] ، بعد القضاء على الدولة الطولونية .

ولا بد أنه أتبع هذا بإلغاء الضرائب الباغية الأخرى ، « وأجمع على إسقاطها وحياطة عمود الخراج [٤] » . فاختفت ضريبة المصايد وضريبة الأخشاب ، وأبيح للناس استخدام النطرون بالصورة التى يحبون . ومن دلائل توفيقه فى هذه الإصلاحات أن خراج مصر ارتفع فى عهده فبلغ رقما لم يبلغه من قبل فقد أصبح نحوا من ...ر...ر٤٫٣ دينار [٥] ، كان أغلبه يضيع من سوء الجباية واضطراب الضبط والنهب والسرقة والاختلاس .

أما الطريق الثانى الذى انحدرت فيه إصلاحاته فكان اتجاهه إلى مضاعفة الإنتاج فى ميادين الإنتاج كلها : فى الميدان الزراعى والصناعى والتجارى .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٨٥ . (٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٧ .

(٣) Grohmann : a percu p 74

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨٥ . (٥) المرجع السابق ص ١٣٢ .

ففى الميدان الزراعى عمل على حماية الفلاح والمنتج ، وبث الطمأنينة والاستقرار فى نفوسهم ، وذلك بإصلاحاته الإدارية الحازمة ، التى قضت على الفتن الداخلية وجردت الفلاح من عقده النفسية القديمة ، ووسائله من الهجرة والفرار من دفع الضرائب ، كما عمل على حماية هؤلاء الفلاحين من جشع العمال وطمعهم ، وإشارة ابن سعيد إلي قصة الفلاح الذى تظلم من ابن دشومه [١] ، وعمل ابن طولون على إنصافة تؤيد ما نذهب إليه من قول . وهو فى الوقت عينه يوفر للفلاح الأرض الزراعية وحاجته من الماء ، وقد أثبتت وثائق البردى أن عناية ابن طولون بتطهير القنوات والترع ومجارى الماء كانت أشد من عناية أسلافه [٢] .

وهو فى سبيل دفع الانتاج الزراعى لم يعتمد على الفلاح وحده إنما جعل الدولة فى عهده تشتغل بالانتاج الزراعى وتستطيع بإمكانياتها ووسائلها المساهمة فى هذا السبيل . وقد عمد ابن طولون إلى الاستيلاء على الأراضى الزراعية التى تركها أصحابها وتولى زراعتها بنفسه . كما عمد إلى استغلال الأملاك التى كانت لصاحب إقطاع مصر ، وكان يرسل لملاكها الأصليين نصيبا من خراجها [٣] . وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك عهد به إلى سليمان بن ثابت .

ولكى يشيع فى البلاد جواً من الطمأنينة الاقتصادية أبقى على المتقبلين الذين يفون بالتزاماتهم ، وأنف من « الفسخ » [٤] ، فسخ عقودهم وتولى أرضهم بنفسه ، وقد أشار عليه ابن دشومه بأن يفعل هذا فأبى . بل عمل على تشجيع هذه الطائفة على الإنتاج .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ١٣٢ .
(٢) Gerohmann : A percu de Papyrologie arabe p. 67
(٣) Les Tulunides p. 246 .
(٤) ابن سعيد : المغرب ٨٥ .

وقد انتصر ابن طولون فى هذه المعركة فزاد الإنتاج فى البلاد زيادة خيالية وامتلأت خزائنه بالقمح وانخفض سعره فأصبحت العشرة أرادب تباع بدينار واحد .

وانتقلت يد الإصلاح من الميدان الزراعى إلى الميدان التجارى لتعيد إليه الثقة والنشاط . ولم يعمد ابن طولون إلى احتكار التجارة أو المساهمة فيها ، ففى ابن سعيد [١] إشارات إلى أنه حاول ذلك مرة ثم أنف منه وعدل عنه . ولكن إصلاحاته فى الميدان التجارى هدفت إلى إصلاح العملة ، وسك الدينار الأحمدى والعملة الجيدة الموثوق بها تعمل على رفع الميزان التجارى ، واستعادة الثقة باقتصاد مصر والإقبال على أسواقها . ويكفى أن نقارن بين الدينارين العباسى والأحمدى من حيث الجودة والوزن لندرك سر إقبال التجار على أسواق مصر .

ولا ننسى أن نذكر أن أموال مصر التى كانت تحمل إلى العراق أصبحت تصرف فى البلاد على مئات الألوف من الجند والغلمان والموظفين ، وأصبحت مصر مركزا لنشاط سياسى صحبه نشاط اقتصادى عظيم . والمقريزى [٢] يبالغ فى وصف القطائع بقوله إنها كانت أكثر فخامة وبهاء وأشد رواجا من دمشق . وقد خصصت أسواقها للسلع كلها من كل لون وصنف .

ويبدو أن ابن طولون حرص على حماية اقتصاد البلاد فضرب نطاقا على حدودها « فلا تتسرب الكتب ولا نفيس الأمتعة [٣] » إلا بإذنه ، ولا ننسى أن اتحاد مصر والشام وبرقة فتح آفاقا جديدة من النشاط والمغامرة أمام التجار من كل فج .

وامتد تيار النهضة إلى الميدان الصناعى فنشطت صناعة النسيج فى مراكزها فى تنيس والاسكندرية والبهنسا والأشمونين ودمياط وأخميم ، كما راجت صناعة الأسلحة [٤] ، وعمرت دور الصناعة وساهمت فى حركة التصنيع .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٨٦ . (٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٥ .
(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١١٤ . (٤) Les Tulunides p. 239

جمع ابن طولون بفضل هذه الإصلاحات أموالا ضخمة كانت عدة له فى خطواته التى خطاها فى سبيل الاستقلال ، أعانته على شراء الذمم الحرية ببغداد واستمالة القواد والموظفين ومكنته من شراء العبيد والسلاح والإكثار من الجند ، ومن اختطاط القطائع ، وبناء القصر والميدان والمسجد والجامع ، والقيام بكافة الإصلاحات العمرانية ، ومتابعة الجهاد فى بلاد الشام والإغداق على أهل البلاد ؛ ورغم هذه النفقات الطائلة فإن ابن طولون ترك بعد وفاته ثروة طائلة أحصاها ابن سعيد على هذا النحو :

١٠	مليون دينار
٧٠٠٠	من الموالى
٢٤	ألفا من الغلمان
٧٠٠٠	من الخيل
٢٧٠٠	من الجمال
٦٠٠	من البغال

وأجمل نفقاته على هذا النحو :

الجامع	١٢٠٠٠٠ر١
البيمارستان	٩٦٠ر٦٠
العين	٠٠٠ر٤٠
حصن الجزيرة	٠٠٠ر٨٠
صدقاته كل شهر	١٠٠٠ دينار [1]

الآن وقد اكتملت لابن طولون مظاهر القوة كلها فأصبح أميراً على البلاد وخلصت له الجبهة الداخلية دون منازع ، وأمن شر الفتن والمؤامرات ، وأنشأ الجيش والأسطول ، وأصلح الأحوال الاقتصادية ، وسال فى يديه المال أنهاراً يستخدمه كيف يشاء ، نستطيع أن نتساءل هل عمل ابن طولون وهو يستكمل أسباب قوته على خطب ود أهل البلاد الأصليين والفوز برضاهم والاعتماد عليهم فى معركته من أجل النفوذ والقوة ؟ هل سعى إلى أن يفوز بولاء هذا الشعب الذى هيأته الأقدار ليرعى شأنه ويمسك بزمامه ؟

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٢ .

وظهور ابن طولون فى مصر قد صحبه تطور بعيد المدى فى تاريخ الشعب المصرى ، فقد نجحت الجهود التى بذلت منذ الفتح ، وتتابعت موجات الداخلين فى الإسلام ، حتى أصبح المسلمون فى عصره غالبية سكان البلاد ، وبدأت الصبغة الإسلامية تشكل المجتمع المصرى وتطبعه بطابعها فى العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية . وليس أدل على وفرة عدد الداخلين فى الإسلام من تضاؤل حصيلة الجزية فلم تعد بابا رئيسياً من أبواب الميزانية ، ثم اختفاء ثورات القبط التى كانت طابعاً مميزاً للعصرين الأموى والعباسى .

وفى نفس الوقت كانت هذه الغالبية المسلمة تتخذ اللغة العربية لغة للحديث والعلم ، بل بدأت الأقلية المسيحية تنسى لغتها الأصلية بالتدريج وتتعلم اللغة العربية ، أو بمعنى أوضح اكتملت مظاهر التعريب ، فشملت كل شىء تقريباً حتى دماء الشعب نفسه تسربت إليها المؤثرات العربية . فالقبائل التى كانت قد استقرت فى مديرية الشرقية والفسطاط أو الاسكندرية أو غيرها من المهاجر فقدت ميزاتها القديمة ، فلم تعد لها الكلمة الأولى فى العطاء ، أو فى الجيش ، أو فى وظائف الدولة ، فبدأت تنزح إلى الريف وتشتغل بالزراعة وتخالط المسلمين من المصريين وتصهر إليهم توطئة لتكوين شعب مصر الإسلامية الذى اختلطت دماؤه بدماء العرب الوافدين .

ولا يمكن أن تخفى على رجل حصيف كابن طولون مثل هذه التطورات الهامة ، ورغم قلة المصادر التى بين أيدينا فإننا نرجح بل نقطع بأن أحمد بن طولون عمل جاهداً على كسب ود طبقة المسلمين من أهل البلاد ، وظهر فى ثوب المدافع عن حقوقهم المعبر عن أمانيهم والمتحدث باسمهم ، ولو فعل غير هذا لما استحق أن يخلده التاريخ كقائد مجرب وسياسى داهية ..

نعم عمل على استرضاء طبقات المسلمين حين عمل على إلغاء الضرائب الظالمة من « المرافق والمعاون » التى فرضها ابن المدبر ، هذه الضرائب التى أسخطت المصريين أشد السخط ، ودفعتهم إلى الثورة السافرة والعصيان

السافر ، الذى تزعمه عربي من أهل الاسكندرية يسمى جابر بن الوليد المدلجي سنة ٢٥٢ هـ ، وكان معبراً عن رأى المصريين كافة . فالكندى [١] يذكر أنه ظفر بتأييد « الموالى » ويقصد المصريين المسلمين ، بل انضمت إليه طائفة من النصارى . « وقوى أمر جابر بن الوليد وأثار الناس من كل ناحية وضوى كل من يومى إليه بشدة ونجدة » . وانتشرت الثورة فى الوجه البحرى كله ، وامتد لهبها إلى الفسطاط ، ثم شمل الفيوم ومصر الوسطى [٢] ، وكادت تعم القطر كله ولم تستطع الدولة العباسية أن تقضى عليها إلا سنة ٢٥٣ هـ [٣] ، أعنى قبل مجىء ابن طولون بنحو سنة .

فكانت إصلاحات ابن طولون الاقتصادية خير ما كسب له ولاء هؤلاء الناس الذين ثاروا ضيقا وسخطا . ثم تتابعت إصلاحاته الاقتصادية التى أشرنا إليها ، وتواترت أنباء حماية الفلاح ودفاعه عن المتقبلين ، وإقرار الأمن والسكينة ، فاطمأن الناس وانخفضت الأسعار .

وابن سعيد يكشف لنا عن أسلوب لابن طولون فى كسب ود المسلمين ورضائهم ، فهو يشير إلى أن أحمد بن طولون كان يفضل المصريين فى تولى الوظائف عن غيرهم من العراقيين ، فقد استكتب رجلا مصريا يسمى جعفر بن عبد الغفار فلما قيل له « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصرى على الكاتب البغدادى » قال « لا والله ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلدا أن يكون كاتبه منه وأن يكون شمل الكاتب فيه [٤] ... » . وليس بعيد أن يكون ابن طولون قد استخدم المصريين على نطاق أوسع من هذا ، إذ يصعب التمييز بين العرب المستقرين وأبناء البلاد الأصليين فقد اتخذ المصريون المسلمون أنساباً عربية .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٥ - ٢١١.
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٢١١ .
(٤) ابن سعيد : المغرب ص ٨٣.

ولم يقتنع ابن طولون باستخدام أهل البلاد فى الوظائف ، بل استخدمهم فى الجيش ، وقد عرفنا كيف أن جيشه ضم فيلقاً من سبعة آلاف مقاتل يقول المؤرخون إنهم من الموالى ، وظن البعض أنهم من عتقاء ابن طولون ، وإن كنا نرجح أنهم من المصريين المسلمين ، وهم فى نظر المؤرخين ليسوا من العرب إنما من الموالى . كما قيل بأنه استخدم بعض العرب فى جيشه ، وهؤلاء العرب قد تمصروا باتخاذهم هذه البلاد داراً ومقاماً منذ مائتى سنة .

ويبدو أن ابن طولون قد ذهب إلى أبعد من هذا فى تقربه من المصريين ، فقد تزوج منهم ، وأصهر إليهم ، وقد ذكر ابن سعيد [1] أنه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال لها أسماء ، وذلك مبالغة منه فى تقريب المصريين إليه .

ثم كانت صدقاته التى جرت مجرى المثل خير ما يقرب المصريين ويرضيهم فقد ذكر صاحب النجوم [2] أن صدقاته بلغت ألفى دينار فى الشهر ، وكان يقول « هذه صدقات الشكر على تجديد النعم [3] » . ثم أضاف إلى هذا « جعله مطابخ للفقراء والمساكين ، فكان يذبح البقر والغنم ويفرق للناس فى القدور الفخار ، وكان يقيم سماطاً عظيما وينادى فى مصر : من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر ، ويجلس هو بأعلا القصر ينظر ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم وهم يأكلون ويحملون [4] » . وبلغ من تعلق الناس به أن كان أسفهم يوم وفاته عظيما ، وكانت فجيعتهم أعظم يوم دكت قوات بنى العباس صرح دولته وأحرقوا القطائع ، وأزالوا معالم النهضة التى ترعرعت فى حجرهم ، وبقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين ، يعبر عنهما المؤرخون والكتاب ، ويتناقلون أخبارها جيلا بعد الآخر .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٢٥

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٢-٢٦

ولم يهمل ابن طولون طبقات أخرى من الشعب المصرى ، فقد عمل على كسب ود النصارى وكانوا فى عصره أقلية كبرى لها وزنها ولها خطرها فى حياة البلاد ، فقد استخدم أهل الفن والصناعة منهم فى بناء المسجد وتخطيط القطائع وصناعة السفن والنسيج وغيرها مـــن الصناعات ، كما أفادوا من مشروعاته الاقتصادية ، ولم تكن الجالية اليهودية أقل حظا من أهل البلاد المسيحيين ، فقد كان أغلبهم من الأثرياء ورجال الأعمال الذين أفادوا من مشروعاته الاقتصادية (١) .

* * *

دفاع ابن طولون عن الاستقلال :

إذن تحقق لابن طولون الشطر الأول من هدفه الكبير ، واستطاع أن يمكن لنفسه فى البلاد على النحو الذى بيناه ، فكيف سعى إلى تحقيق الشطر الثانى من هذا الهدف ؟ إلى أى حد استطاع أن يستقل بأمور هذه البلاد ؟

ولتقدير الجهود التى قام بها فى هذا الصدد ، ومعرفة مدى ما أصابته من نجاح أو إخفاق ، ينبغى أن يتبين معنى الاستقلال فى المصطلــح الإسلامى .

الاستقلال فى المصطلح الإسلامى يختلف عما نفهمه اليوم من تحقيق السيادة الداخلية ، ثم تحقيق السيادة الخارجية ، فلا يكون على الدولة سلطان إلا سلطان أبنائها وأن هذا الاستقلال لا يشوبه انتقاص من هذه السيادة أو أى تدخل فى شئون الدولة الداخلية ، أو أى حد من مكانتها فى المجتمع الدولى . أما فى العصور الوسطى فإن العالم الإسلامى كان يؤلف وحــدة

(١) Les Tulunides p. 216, 217, 218, 219.

روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وفى رأى الفقهاء أنه إذا انحلت الأمانة انحل المجتمع [1] الإسلامى ، وأن الإمامة لقريش وأنه « لا تتم ديانة إلا بإمامة يدعى إليها وتجرى السنن عليها [2] » . وكان الناس لا يفهمون حكما لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلى من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلى الخوارج الذين يشذون عن رأى الجماعة .

وللوالى أو الأمير أن يعطى نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الأمر لبنيه على الصورة التى يراها وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكما شرعياً على البلاد التى يحوزها .

واعترافه بالخليفة له مظاهره ، أن يكتب اسمه على النقود ، وأن ينقش اسمه على الطرز ، وأن يدعو له على منابر البلاد ، وأن يحمل قدرا من خراج البلد إذا استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن لا يخرج على السنة والجماعة ، وأن لا يتخلف عن نداء الجهاد .

واعتراف الخليفة له مظاهره ، فهو الذى يضفى على حكمه صفة الشرعية عن طريق تقليد أو عقد يبعث به الخليفة إلى العامل أو الأمير يعترف بسلطانه وسلطان أبنائه من بعده ، ثم يرسل إليه الخلع وشارات الخلافة .

هذا إذن الاستقلال كما تصوره المسلمون فى العصور الوسطى . ولم يكن أحمد بن طولون يتصور الاستقلال غير هذا التصور ، وكان من رأيه أن هذا الاستقلال يقوم على أركان ثلاثة إذا تحققت تحققت أحلامه :

أولا : أن يبقى فى مصر لا تعزله قوة ، ويدفع هذا ولو بقواته المسلحة ، وأن تكون أمور مصر خالصة له لا تستطيع الخلافة أن تتدخل قيد

(١) الذخيرة : قسم ٢ مجلد ٢ ص ١٤٨ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٩١ .

شعرة فى أموره ، أو أن يكون لها حق التوجيه فى مقابل إخلاصه لها واحترامه لحقوقها الشخصية .

ثانيا : أن يتخذ مصر قاعدة يعتمد عليها ليلعب الدور الأول فى الامبراطورية الإسلامية ، ويتوسع فى بلاد الشام ، ليحمى حدود مصر ويظهر بمظهر المجاهدين فى سبيل الله .

ثالثا : أن تكون له الشارات الرسمية .

رابعاً: أن تكون إمارة مصر وراثية فى عقبه برضى الخلافة وموافقتها .

فى سبيل تحقيق الركن الأول والدفاع عن حقوقه المكتسبة فى مصر نراه يتصدى لأكبر قوة فى الدولة العباسية ، ولا نقصد بها قوة الخلافة ، فقد ربطته بالخلافة صداقات ومصالح مشتركة ، إنما نقصد قوة أبى أحمد الموفق طلحة أخى الخليفة .

وصراع ابن طولون مع الموفق يمثل فصلا ممتعاً من نضاله عن حقوقه ودفاعه عن كيانه مهما تكن النتيجة . لم يكن الصراع بين فردين لكل منهما رأى أو أطماع ، إنما كان صراعا بين السلطة المركزية التى تعتمد على صيتها القديم ، وبين السلطة الإقليمية النامية التى تريد أن تتحرر من هذا النفوذ فى حدود مرسومة .

وقد ظهر الموفق على مسرح الخلافة العباسية فى وقت كانت تهددها الأزمات العنيفة ، فقد اشتعلت ثورة الزنج للمرة الأولى سنة ٢٥٤ [١] ، ثم استفحلت بعض الشيء فى خلافة المهتدى [٢] ، ثم استعر أوارها بصورة قوية حينما آل الأمر إلى المعتمد وبويع بالخلافة ، ولم يكن المعتمد بالرجل الذى يقوى على مغالبة هذا التيار الجارف ، ومواجهة هذه الأحداث المفجعة . فما كادت تتم له البيعة حتى أرسل إلى أخيه يستدعيه من مكة [٣] ، وكان قد نفي إليها من قبل ، ويبدو أن المعتمد كان يعرف فى أخيه البأس والحـــزم ،

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٧٧ .
(٢) الفخرى:فى الآداب السلطانية ص ٢٠٤ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٤ .

وكان أحوج ما يكون إليه فى أزمته تلك ، فأراد أن يشركه في الأمر ، وأن يستعين به فى مغالبة هذه الأحداث ، وفى سنة ٢٥٧ هـ قسم الدولة قسمين ، ولى على القسم الغربى ولده جعفر ولقبه المفوض ، وهذا القسم يشمل مصر والمغرب . ولما كان جعفر هذا لـم يزل صغيراً فقد عين موسى بـن بغا عوناً له [١] .أما القسم الشرقى من الدولة ويشمل الكوفة والحجاز والحرمين واليمن وبغداد وواسط والبصرة والأهواز فقد ولى عليه أخاه أبا أحمد الموفق طلحـــة [٢] .

ولم يقنع الموفق بهذه السلطات أو بالعقد الذى علقه أخوه فى جوف الكعبة والذى يلزم كلا من ابنه وأخيه « بألا ينظر فى عمل صاحبه ، وأن تكون النفقة على كل من خراج القسم الذى هو عليه [٣] » ، فقد بايعه المعتمد ولياً للعهد بعد ابنه المفوض ، ودعى له على منابر العالم الإسلامى ، بـل سما بالموفق قدره إلى أبعد من هذا ، فقد أصبحت له الكلمة الأولى فى الدولة « كان المعتمد مستضعفاً وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره » .

وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع . كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الأمراء [٤] . وأطلقت يده فى شئون الدولة ، وانصرف للقضاء على خطر الزنج .

وقد تمكن الموفق من هذا السلطان الواسع ، واجتمع له هذا النفوذ كله فى الوقت الذى توطدت فيه أقدام ابن طولون فى مصر ، بل فى القسم الغربى من الدولة ، ووضح توفيقه فى إقرار الأمور وإصلاح الأحوال الاقتصادية ، كما ظهر جيشه موحداً عزيز الجانب . ولم يكن من المعقول أن تجرى الأمور هينة بين الموفق صاحب الكلمة الأولى ، وبين أحمد بن طولـــون

---

(١) نفس المرجع والصفحة . (٢) الطبرى : جـ ٧ ص ٥٩٨-٥٩٩.

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٨٧ . (٤) الفخرى:فى الآداب السلطانية ص ٢١٤.

الأمير صاحب هذا النفوذ . ، بل كان طبيعياً أن يبدأ الصراع بين العملاقين .

والمراجع [١] تصور بداية الصراع على أنه حاجة الموفق إلى أموال مصر لينفق منها على حرب الزنج ، فقد قلت موارد القسم الشرقي الذي يشرف عليه بسبب هذه الحرب ، فقد استولى الثوار على شطر من هذه الأموال ، وخاف بعض الناس أن يحمل المال إلى بغداد فينهب في الطريق ، وبعضهم « رأى أن يتربص بالحمل لينظر كيف تكون الأمور ولمن يصبح الأمر [٢] » .

ونحن لا ننكر حاجة الموفق إلى المال ، ولكنا نعتقد أن اتصاله بابن طولون لم يكن لمجرد حمل المال المطلوب ، لأن أحمد بن طولون لم يكن قد احتجز هذا المال لنفسه ، إنما كان يدفع بعضه إلى الخليفة سراً ، ولا نعتقد أن الموفق كان يخفى عليه هذا الأمر وجواسيسه في كل مكان يطلعونه على ما خفى من الأمور . إنما كانت مطالبته بالمال تحرشاً بابن طولون واستفزازاً له وإظهاراً لتبعيته وخضوعه ، فالبلوى [١] ٣ذكر صراحة أنه أخذ على أحمد بن طولون ميله إلى المعتمد ودفاعه عنه . بل واضح الأمر كما يفهم من روايات المؤرخين مؤامرة كبيرة الغرض منها النيل من ابن طولون والإطاحة به ، وإلا لماذا يهلع الخليفة ويكاتب ابن طولون سرا يحذره من نحرير رسول الموفق ، ويقول له « إنما أنفذ نحريرا الخادم إليك عيناً عليك ومستقصياً على أخبارك ، وأراه أنه قد كاتب بعض أصحابك فاحترس منه [٤] » .

وقد صدقت ظنون المعتمد فقد كان نحرير يتظاهر بطلب المال ولكنه يخفي مؤامرة مبيتة للنيل من ابن طولون . ولم يكن أحمد يخدع بسهولة ، فقد أنزل نحريراً معه في دار واحدة ، ومنعه من الخروج ، وراقبه واستولى على الكتب التي يحملها ، وتبين أنها لجماعة من قواده « يغريهم عليـــــه

---

(١) انظر البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٩ .

(٢) البلوى : ص ٧٩ .

(٣) نفس المصدر ص ٨١ . (٤) البلوى : ص ٨١ .

ويستميل قلوبهم إليه [١] .. » . ولم يتخلف ابن طولون عن إنفاذ الخراج فهو حق مشروع لدار الخلافة لا يمكن أن يعارض فيه ، فقد بعث مع نحرير ...ر..٢ر١ دينار [٢] ، وحمله ما اعتاد أن يحمله كل عام ، ثم قبض على المتآمرين واقتص منهم . ولهذا غضب الموفق أشد الغضب ، لم يكن غضبه كما يقول البلوى [٣] لأنه استقل المال وطمع فى مزيد ، إنما لانكشاف أمره وليقظة ابن طولون وقضائه على رأس الفتنة . وكتب إلى ابن طولون كتاباً يناقشه فيه الحساب ويعرض به ويدل بقوته ومكانته وسطوته .

وكان من الممكن أن ينخلع قلب ابن طولون أمام هذا التهديد الذى يأتيه من صاحب أعظم سلطان فى الدولة ، وكان من الممكن أن يحنى الرأس لكنه رأى فى هذا التعريض تدخلا فى شئونه ونيلا من الاستقلال الذى حازه بجهده والقوة العظيمة التى تسنده .

فلما قرأ كتاب الموفق قال : « وأى حساب بينى وبينه أو مال توجب مكاتبتى بمثل هذا وغيره » ، وأعد للموفق كتابا يعتبر من أعظم الوثائق أهمية فى تاريخ النضال بين ابن طولون وبين المركزية فى بغداد ، بل يكشف لنا فى غير التواء عن أغراضه وأهدافه الحقيقية ودفاعه عن حقوقه المكتسبة فى مصر . وقد ورد نص هذا الخطاب فى كتاب البلوى [٤] وابن سعيد [٥] ، وبمقارنة النصين مقارنة دقيقة يبدو لنا نص ابن سعيد أكثر انسجاماً وضبطا ، وأقرب إلى أن يكون هو النسخة الحقيقية من الكتاب الذى أرسل إلى الموفق فعلا ، بخلاف النص الذى أتى به البلوى فإن فيه كثيرا من الاضطراب والخلط .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٨١ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٨٢ – ٨٥ .
(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٨٩ – ٩١ .

ومثل هذا الكتاب الهام يتطلب منا أن نقف عنده بعض الشيء لنتبين وجهة نظر ابن طولون ، ومواجهته للتحدى الذى بدأ به الموفق . فهو ينكر على الموفق استخدامه العنف معه ، ويستكثر عليه ذلك فى الوقت الذى يجب أن يستميله ويسترضيه « ومثلى يسترضى [1] » ، ويظهر أنه المدافع عن الخلافة فى وجه أى مغتصب دخيل ، ويشير ضمناً إلى تدخل الموفق غير المشروع واستبداده بأمر الخليفة « كنت باب السلطان وسيفه الذى يصول له وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده [2] » . ولم يفت ابن طولون أن يفاخر الموفق بما بذل فى مصر من إصلاح ، وما اتخذه من عدد وعدة ليدخل الذعر إلى قلبه . « وكان كدى فيما أنصب فى طلبه واحتمل المؤن والكلف بسببه وأجعل الفكر منصرفا إليه ، والعناية بأجمعها موفورة عليه فى اجتلاب كل موصوف بشجاعة وغناء وكفاية ، والتوسعة عليهم فى أرزاقهم وتعهدهم بالمعاون والصلات وجميع الأسلحة والكراع والاستكثار من العدد والمال[3] » ، وأن هذه القوة العظيمة التى بناها كفيلة بأن تنيله المرتبة الأولى فى الدولة ، « بأن يعرف له حقه ويوفى من الإعظام والإكرام نصيبه ويعطى من التقدير والإيثار قسطه [4] ... » . وهو فى نفس الوقت يستصغر شأن خصمه ، ويندد بإخفاقه فى حرب الزنج وضعف عدته « لا ناصر له غير من يجتمع إليه من لفيف البصرة وأوباش العامة [5] » . فكيف لمن له هذه القوة الواهنة بمقابلة مائة ألف عنان .

ثم نجد ابن طولون فى هذا الكتاب التاريخى لا يستخدم لغة عامل متواضع من عمال الدولة ورجالها ، بل تبلغ به ثقته بقوته واطمئنانه إلى مكانته أن يهدد باتخاذ الاجراءات العنيفة وتسييره كتائبه لتحقيق أهدافه إذا لزم الأمر « ... أن جعل ما أعددته لحياطة هذه الدولة المتكاثفة والعساكر المتضاعفة التى قد ضرست رحى الحرب ، وجرت عليهم محن الخطوب على الاختيار والابتلاء وجروا من الله على عادة الظهور والاعتلاء [6] » . وأنه

(1) ابن سعيد : المغرب ص ٨٩ . (2) ابن سعيد : ص ٨٩ .
(3) ابن سعيد : ص ٨٩ . (4) نفس المصدر والصفحة .
(5) ابن سعيد : ص ٩٠ . (6) نفس المصدر والصفحة .

لولا بقية من وفاء وصبر لعمل عل « أن يزيل اسمه ويسقط رسمه [1] . بل يمضى ابن طولون إلى أبعد من هذا حين يهاجم مكانة الموفق فى بنى العباس ، وأنه فرض نفسه فرضاً ، وأن غيره من بنى العباس يرى نفسه أحق بالتقليد ، وأن الخارجين عليه من بنى عمومته ما يلوذون بابن طولون ويستصرخون « وإن قبلنا وفى حيزنا من يرى أنه أحق بهذا الأمر من الأمير أيده الله ، وأولى بتقليده ، ولو أمنونى على أنفسهم ... لاشتدت شوكتهم [2] » .

ثم هو لا يكتفى بهذا التعريض بل يهاجم الموفق من حيث أحس بضعفه، فهو يندد بوضعه القانونى وأنه ليس له حق التدخل فى شئون القسم المغربى من البلاد « العمل الذى أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة فى أموره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ولا ولاته ... والأمير جعفر قد قسم الأعمال والعمال وصار لكل واحد قسم تفرد له دون صاحبه » [3] .

بل يظهر الموفق فى صورة الناقض لشروط البيعة والمخالف للميثاق الذى علقه المعتمد فى جوف الكعبة ، والذى يقضى بألا يتدخل كل أمير فى شئون الأمير الآخر « وأنه نقض عهده وخفر ذمته ولم يف بما أكره على نفسه فالأمة بريئة من بيعته وفى حل وسعة من خلعه » [4] . فهذا تهديد بالخلع ومقدمة لما سيقدم عليه ابن طولون فيما بعد . ولعل ما ورد فى هذا الكتاب ما يوضح أن هذه ليست اللغة التي عهدنا الولاة يخاطبون بها أصحاب النفوذ فى بلاط بنى العباس ، إنما هى لغة أمير قد اطمأن إلى قوته واستقل بشأنه ووقف ينافح عن حقوقه المكتسبة .

ولم يكن من المعقول أن تستمر حرب الكلام طويلا إذ بدأ العملاقان يدخلان فى صراع حقيقى كل يحاول أن ينال من خصمه بالمكيدة إن استطاع وبالقوة المسلحة إن أمكنته الفرصة .

---

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) ابن سعيد : المغرب ص ٩٠ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩٠ . (٤) ابن سعيد : المغرب ص ٩٠ .

ويمكننا أن نتتبع مراحل هذا الصراع مما رواه مؤرخو ابن طولون ، وإن كانت روايات هؤلاء المؤرخين يسودها الغموض ، ولم يستطع واحد ممن سجل هذه الأحداث أن يؤرخ لهذا الصراع تاريخا متتابعا صحيحا .

وكان الموفق هو البادىء فى هذه الجولة ، وكان حريصا كل الحرص فى تقدير الخطوات التى يخطوها ، فقد عمل على أن يكسب أعماله تلك ثوبا قانونيا بأن يحصل على موافقة المعتمد أحيانا ، أو موسى بن بغا باعتباره وصيا على جعفر المفوض من ناحية أخرى .

وكان أول ما أقدم عليه أن حاول أن يعزل أحمد بن طولون عن ولاية مصر ، فيقوض الأساس القانونى الذى يستند إليه . ووجد فى أماجور عامل الشام منذ سنة ٢٥٧ هـ خير من ينتدبه لولاية مصر عوضا عن ابن طولون [١] . فقد كان أماجور يخشى أحمد ، ويخاف أن ينقض على بلاد الشام فينتزعها منه ، وحاول أن يدس له عند الخليفة فلم يستطع ، وحال عجزه دون الالتجاء إلى القوة ، فاستصدر من موسى بن بغا كتابا بتقليد أماجور ... [٢] ولكنه لم يستطع أن يتقدم للقاء ابن طولون وهو حيث هو من القوة والمنعة ، فلم يجد الموفق بدا من أن يعمد إلى القوة المسلحة ليطرد ابن طولون ويولى صاحبه أماجور ، واختار موسى بن بغا نفسه لحرب أحمد والقضاء على نفوذه ، موسى صاحب الأمر فى القسم الغربى من الدولة أو صاحب السيادة الاسمية على ابن طولون [٣] .

ولكن موسى كان يعلم أى قوات يلقى وأى قوات يحارب ، فمكث بجنده عند الرقة نحو عشرة أشهر وابن طولون لا يحرك ساكنا ، إنما يتربص لهم فى مصر باقامة الحصون وبناء السفن ، ثم باءت محاولات موسى بالإخفاق فقد ثار عليه الجند ، وطالبوه بالنفقة المتأخرة ، واضطر كاتبه عبـــد

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٨ ، ابن سعيد : ص ٨١ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ٨١. (٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٨٣ .

الله بن سليمان أن يستتر لقلة المال ، وطلب إليه الجند إما أن يتقدم أو يعود إلى بغداد ، فعاد يجر أذيال الخيبة ، ثم ما لبث أن مات بعد حين عام ٢٦٤ هـ [١] ، ولم يستطع الموفق أن يسير أحدا لحرب أحمد بعد أن أخفق موسى بن بغا على هذا النحو ، وبقى ابن طولون فى مصر لم يطلق سهما واحدا ، ولم يرق قطرة دماء واحدة محتفظا بقوته وهيبته وسلطانه .

وإذا كان الموفق قد عجز عن غزو مصر على هذا النحو فإنه ما لبث أن اتجه وجهة أخرى للنيل من ابن طولون ، فحاول أن يقصيه عن ولاية ثغور الشام وأن يحول بينه وبين الجهاد الذى يحب ، وكانت محاولته كما يتضح من رواية البلوى [٢] لاحقة لمحاولته الأولى مستعينا بموسى بن بغا ، ذلك أن أحمد بن طولون ظفر من المعتمد بولاية الثغور الشامية فى نفس الوقت الذى انتزع فيه من الخليفة نفسه موافقته على عزل ابن المدبر [٣] .

ولكن يبدو أن ابن طولون لم يخرج هذا التقليد الاسمى الى حيز التنفيذ الا بعد وقت طويل . والمراجع تحدثنا أنه حاول أن يولى أخاه موسى فلم يقبل ، ثم عهد بالولاية الى رجل آخر يسمى ابراهيم بن عبد الوهاب فامتنع أيضا [٤] ، فى الوقت الذى كان فيه الموفق يلتمس ثغرة يناله منها . فأظهر أحمد بمظهر العاجز عن حماية الثغور والقيام على أمر الجهاد وأن « الثغور تحتاج الى أن يقيم فيها من يغزو بأهلها » [٥] . وما زال بالخليفة حتى وافق على هذا العزل ، وبدأ الموفق يولى العمال ويعزلهم غير أنه لم يفلح فى اقرار الأمن والطمأنينة ، وثار أهل طرسوس وساءت الأحوال [٦] ، فلم يجد الخليفة بدا من أن يقلد أحمد بن طولون ولاية الثغور مرة أخرى ، فعقد عليها الطخشى بن بلبرد عام ٢٦٤ هـ .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٨٧ . (٢) نفس المصدر ص ٨٩ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٨ . (٤) نفس المصدر ص ٢١٧
(٥) ابن سعيد : المغرب ص ٨١ .
(٦) الطبرى : جـ ١١ ص ٣٣٢ ، البلوى: ٩٠ - ٩١ .

اذن أخفق الموفق مرتين ، مرة حين سير موسى بن بغا لعزل ابن طولون ففشل ، ومرة أخرى حين عزل أحمد بن طولون عن ولاية الثغور فأعيد اليها من جديد . وخرج ابن طولون من هذا الصراع معززا ظافرا . مات موسى بن بغا وتلاه أماجور ولم يجد الموفق رجلا واحدا يقبل أن يقف في وجه ابن طولون ، فلم يجد مفرا من أن يعترف بالأمر الواقع ، فقد شغلته حرب الزنج ، وانصرف عن مصر وعن أحمد بن طولون . وتمكن أحمد من أن يواجه قوات الدولة العباسية مجتمعة وأن يحافظ على المكاسب التي حازها .

بل استطاع في غمرة هذا النصر أن يحقق أحلامه في بلاد الشام ، فقد قلده الخليفة بلاد الشام كلها بالإضافة إلى ثغورها ، وخرج سنة ٢٦٤ هـ ليجعل هذا النفوذ حقيقة واقعة ، فدخل دمشق وتأكد نفوذه [1] ومضى إلى طرسوس سنة ٢٦٥ هـ ليشبع رغبته في الجهاد [2] ، بل اتسع نفوذه حتى بلغ الغاية ، وأمعنت جيوشه في بسط نفوذه إلى حران والرقة [3] .

ولم يكن من المعقول أن ينهى هذا النصر الخصومة العنيفة بين الموفق وأحمد ابن طولون ، بل كان من المعقول أن يزيدها ضراما ، وقدر للفترة الواقعة بين سنتى ٢٦٥ و ٢٦٩ أن تعتبر من أطرف الفترات في تاريخ هذا الصراع المرير . في هذه الفترة تبلورت آراء ابن طولون في الاستقلال ، وبلغ دفاعه عن حقوقه المكتسبة الذروة ، واستخدم الفريقان كل سلاح ، المكيدة والحرب الباردة والدبلوماسية .

ولم يكن من المتوقع أن يشغل الموفق بحرب الزنج المستعرة عن هذه الأطماع الطولونية التي لم تقف عند حدود مصر بل جاوزتها إلى بلاد الشام ووقفت عند أطراف العراق ، ولم يكن من المتوقع أن يتقبل الموفق هذه الهزائم المتتالية بقلب مطمئن ، ولم يكن من المعقول أن يلجأ الموفق لقوة السلاح وقد

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٩١ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٢ . (٣) نفس المصدر ص ١٠١ .

جربها فى مأساة موسى بن بغا فانتهت إلى ما انتهت إليه ، فضلا عن حرب الزنج التى كانت لا تكاد تخبو حتى تشتعل ، إنما كان يتربص الفرص المواتية للنيل من خصمه بطريق غير طريق الحرب والقتال .

وقد واتته الفرصة المناسبة فى نفس الوقت الذى أحرزت فيه قواته نصرها الأول الكبير على قوات صاحب الزنج سنة ٢٦٧ هـ [١] ، فقد وضحت بوادر الشقاق بين ابن طولون وبين تابعه لؤلؤ غلامه الذى ولاه على حلب وقنسرين وديار مضر وحمص [٢] ، ووثق به وأطلق يده فى الثغور الشامية ، وظهر اسمه على النقود إلى جانب اسم ابن طولون نفسه ، كما يدل على ذلك دينار ضرب سنة ٢٩٨ هـ فى الرافقة قرب الرقة [٣] .

ولم تكن للموفق يد فى بذر بذور الشقاق بين هذا التابع والمتبوع ، انما كان من الفطنة بحيث استغل أسباب توتر كانت واضحة .

والمؤرخون يعجبون لخروج هذا التابع المخلص على ولى نعمته ، ومن ثم اختلفوا فى تفسير أسباب هذا الخروج والبلوى [٤] يفسر هذه الأسباب تفسيرا مقبولا إذ يردها إلى تشديد الوطأة على لؤلؤ ، فى جباية الخراج ، وأن عامل الخراج كان تابعاً لأحمد يأتمر بأمره ويغل يد لؤلؤ ، فأبدى سخطه ، واستولى على شطر من الخراج [٥] ، وكان يعرف حساسية سيده فى الشئون المالية ، فخشى أن ينال غضبه ، وظن أن أمير مصر الذى لم يرحم ولده لن يغفر له تصرفه هذا .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٢ – ٤٣ ؛
(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٠٢ ، Les Tulunides p 77
(٣) Lane - Poole : No 905 .
(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٧٦ .
(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٢٦ .

وابن سعيد [1] يضيف إلى هذه الأسباب سببا آخر هو أن ابن طولون عهد إلى صهره محمد بن فتح بن خاقان بديار مضر دون أن يستشير غلامه لؤلؤ [2] ، وإذا كان ما رواه البلوى [3] يوحى بأن لؤلؤ هو الذى بدأ بالاتصال بالموفق ، إلا أننا نعتقد أن الموفق استطاع أن يستغل هذا الشقاق لصالحه خير استغلال ، وكانت عدته فى هذا كله محمد بن سليمان الكاتب الذى صاحب لؤلؤ ورافقه فى بلاد الشام .

والمؤرخون يظهرون محمد بن سليمان هذا على أنه المحرض الحقيقى لغلام ابن طولون وأنه كان يستحثه للانضمام إلى الموفق ، وإرسال الخراج إليه ، ولم تجد محاولات ابن طولون لكسب ود غلامه الخائن ، فقد استولى على نحو مليون دينار ، ثم هرع إلى الموفق منحازا إليه ، وبدا للناس كأن ابن طولون بنى قصره على الرمال ، وأن نفوذه فى بلاد الشام الذى بناه بالدم والعرق مهدد بالضياع .

لكن ابن طولون فى هذه المعركة الدائرة الرحى طلع على العالم الاسلامى بأمر جديد كان له دوى هائل فى الأوساط الإسلامية المعاصرة ، فقد نصب نفسه مدافعاً عن الخلافة بالسيف وقوة السلاح ، فقد كتب فى سنة ٢٩٨ هـ [4] . إلى الخليفة المعتمد كتابا هاما ورد نصه فى كتاب البلوى ، جاء فيه « وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان أنجاد ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر فإن أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز ، ولا يتهيأ لأخيه فيه شىء مما يخافه عليه منـــه فى كل لحظة [5] » .

---

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٧٦ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٢٦ .

(٥) البلوى : سيرة ابن طولون ٢٨٠.

بل الرغبة الصريحة فى استخدام القوات المسلحة فى نصرة الخلافة تتضح من قول ابن طولون « وقد عزمت على الخروج إليه بنفسى وجميع جيشى حتى أنصر دعوته وأنقله إلى [1] » .

ويبدو أن المعتمد استجاب لهذه الدعوة ففيها الخلاص من تضييق الموفق ، وفيها فكاك من محبسه وفرار مما يناله من إيذاء وامتهان بل فيه ما يرضى حاجته إلى المال ، ويضفى عليه الأمن والطمأنينة فى ظل هذا الأمير العملاق ، فقد ذكر المؤرخون أنه تلقى كتاب ابن طولون وتسلم الأموال التى بعثت إليه ، وكتب وكيل أمير مصر إلى سيده يقول : « إنه خارج إليه مع المعتمد ، ويذكر فى كتابه أن يتأهب لموافاته إليه كما استدعاه [2] » ، وخروج الخليفة إجابة لدعوة ابن طولون حقيقة واضحة لا يمكن أن يشك فيها ، ولم يشر إليها مؤرخو مصر الإسلامية وحدهم ، بل أشار إليها أمثال الطبرى [3] وابن الاثير [4] ، بل كانت من الأحداث البارزة المثيرة التى لا يعقل أن يهملها مؤرخ . فقد تظاهر الخليفة بالخروج للصيد حتى وصل إلى الرقة حيث كان فى انتظاره ضابطان من رجال ابن طولون ، وكان من الممكن أن يدخل الموصل وأن يجاوزها مغربا حيث يعتصم بقوات ابن طولون ، لولا أن كشف أمره وأخفقت محاولته ، وأعيد إلى العاصمة محروسا مقهورا [5] .

ونحن نريد أن نعرف هل كان ابن طولون مخلصاً حقاً فى دعوته هذه يبغى من ورائها حماية الخلافة والدفاع عن مصالحها ، أم أن ثمة أغراضا خفية قد اتخذت هذه الرغبة ستاراً تكمن من ورائه ؟

---

(١) نفس المصدر ص ٢٨٢ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٥ ، والبلوى:ص ٢٨٦
(٣) الطبرى:جـ ٨ ص ١٠٧ .
(٤) هما أحمد بن جيغويه وعلى بن العباس الكلابى . الطبرى:جـ ٨ ص ١٠٧ .
(٥) Les Tulunides p, 83 .

نحن لا نستطيع أن نشك فى إخلاص ابن طولون للخلافة العباسية ، وهو إخلاص وضح منذ السنوات الأولى التى بزغ فيها نجم ابن طولون فى بغداد . وضح هذا الإخلاص فى أكثر من مناسبة ، ووضح فى عهد المتوكل والمستعين والمهتدى ، وتجلى بصورة أوضح فى عهد المعتمد ، وقد استعان به هذا الخليفة فى القضاء على ثورة عيسى بن الشيخ ، ولجأ إليه يطلب حمل الخراج سراً حتى لا يستولى عليه الموفق .

ولا نستطيع أن نشك فى أن ابن طولون غضب حقا لما نال الخليفة من عدوان وامتهان ولاعتداء الموفق على سلطان جعفر المفوض ولى العهد .

ورغم هذا يحق لنا أن نسأل لم اختار ابن طولون هذا الوقت على وجه التحديد ليظهر فى صورة حامى ذمار الخلافة ، والمدافع عن حقوقها بجنده ورجاله ؟ . وقد وضح عدوان الموفق على الخليفة منذ استدعى من مكة قبل أحد عشر عاما ! ! لماذا غضب ابن طولون هذه الغضبة فى الوقت الذى خرج فيه لؤلؤ وحرضه الموفق ، ووضح انتصاره على الزنج ، وزلزلت أركان الحكم الطولونى فى بلاد الشام ؟

لم تكن هذه الغضبة خالصة لوجه الخلافة ، وإنما كان يراد بها الموفق دون سواه . الدليل على هذا ما تكشفه المراجع من هلع الموفق واضطرابه وإحساسه بالمكان الذى تصوب إليه طعنة ابن طولون ، فقد كان يعرف أنه إذا « تم هذا الأمر استولى أحمد بن طولون على أمره فلم يكن لكم ولا لأحد منكم مقدار ... فيكون ذلك سبباً لزوال دولة بنى العباس [1] ... »

فقد كان ابن طولون فى الحقيقة لا يريد إنقاذ الخليفة بقدر ما يريد تجريد الموفق من السند الشرعى الذى يعتمد عليه ، فقد كان يجبر المعتمد على توقيع المراسيم التى يريد ، فإذا نجح ابن طولون فى تحقيق هذا لم يكن أيسر

---

(١) البلوى : سيرة بن طولون ص ٢٩٠ .

من أن تتحرك قواته الرابضة على حدود العراق ، وأن تدخله دفاعاً عن حق الخليفة ، أو على الأقل تصبح مصر داراً للخلافة ، ويصبح ابن طولون حامى حمى الخليفة .

وكان ابن طولون فى الحقيقة يريد أن يرفع من شأن هذه البلاد التى نهض بها واستجابت له على النحو الذى رأيناه ، وأن يجعل لها المقام الأول فى العالم الإسلامى بأن تصبح دارا للخلافة ، فقد نسب ابن سعيد إلى أحمد ابن طولون قوله « أريد أن أنتاش الخليفة من تلاعب أبى أحمد وغيره وأنقل كرسى الخلافة إلى مصر [1] » وبذلك يصبح أحمد وصياً على الخلافة كما كان الأتراك أوصياء عليها .

ولم يكن خروجه إلى بلاد الشام للمرة الثانية استجابة لرغبة الخليفة فحسب بل أملته اعتبارات أخرى ، أملتها مصلحته الخاصة ، فقد كان نفوذه فى بلاد الشام على وشك أن ينهار بعد مأساة لؤلؤ ، وكان شديد الرغبة فى أن يلحق لؤلؤ ببلاد الشام قبل فراره إلى العراق ، فيرده إلى الطاعة ويؤدبه جزاء خيانته ، وكان يريد فوق هذا أن يمكن لنفوذه فى البلاد ، وأن يقر السكينة فى منطقة الثغور التى بدأت تخرج عن سلطانه بعد وفاة طخشى بن بلبرد [2] ، وكان يعرف أن حرب الزنج كادت أن تنتهى بنصر الموفق ، وأنه سيفرغ بعد ذلك لشئون الشام فينال منه ، « وتوالت الأخبار أن الناجم بالبصرة قد شارف القبض عليه فحرك ذلك أحمد بن طولون [3] » .

وقد رتب الأمور على أن تتم محاولة الخليفة أثناء وجوده فى بلاد الشام حتى يستطيع أن يكفل للخليفة الحماية المنشودة ، إذ يتضح مما رواه البلوى [4] أنه لم يغادر مصر إلا بعد وصول رد الخليفة بالموافقة ، وأنـــــه

---

(1) ابن سعيد : المغرب ص ١٢٣ . (2) Les Tulunides p . 82 .

(3) ابن سعيد : المغرب ص ١٢٨ .

(4) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩١ - الكندى:الولاة والقضاة ص ٢٢٧ .

استخلف خمارويه على مصر قبل ان يسير إلى الشام ، وأدرك دمشق حين تلقى الخبر بخروج المعتمد « وأنه يسلك علي طويق البريد إلى مصر » .

لكن الموفق لم يكن بالذى يؤخذ بهذه السهولة ، فقد أحس بمحاولة الخليفة وكشف عن خبيء ابن طولون ، وكتب إلى إسحق بن كنداج عامل الموصل فخرج لمنع المعتمد فى أربعة آلاف مقاتل ، فمنعه من مجاوزة الموصل ، بل حمله إلى بغداد وسلمه لرجال الموفق ، وأخفقت محاولة ابن طولون وباء مشروعه بالخسران وأحرز الموفق نصراً ، فخلع على ابن كنداج ، وكرمه وعقد له على مصر نكاية فى ابن طولون [1] .

وتصرف ابن طولون يعطينا صورة للوزن الذى أصبح له فى الحياة الإسلامية المعاصرة ، تصرف فيه تحد سافر ، وفيه استهانة إلى أبعد الحدود ليس بسلطان الموفق وحده ، بل بسلطان الخلافة وتراث بنى العباس ، ويمثل أيضاً الأوج الذى الذى وصل إليه فى دفاعه عن الاستقلال ، بعد أن وصلت قواته إلى الغاية ، واتسعت حنوده إلى أبعد الحدود ، ولم تنل منه قوات الموفق ، ولم تعد فى بغداد قوة تستطيع أن تقف فى وجهه .

فقد اتخذ ابن طولون أمراً أشد غرابة مما رأيناه من تنصيب نفسه مدافعاً عن الخلافة بالقوة المسلحة ومحاولة إيواء الخلافة المستضعفة ؛ فقد عمد إلى خلع الموفق من ولاية العهد ، ومن أجل ذلك عقد مؤتمر دمشق .

وتعتبر أخبار هذا المؤتمر من أطرف الأخبار فى تاريخ الصراع بين العملاقين ومن حسن الحظ أنه قد وردت عنه تفاصيل ممتعة نقلها البلوى [2] فى سيرة ابن طولون ، يستفاد منها أن أحمد جمع أشهر القضاة فى دولتـه :

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٥ .

البلوى : ص ٢٩١ ، الطبرى : جـ ٨ ص ١١٤ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩٤ - ٢٩٦ .

عبيد الله بن محمد العمرى القاضى بجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية وجند حمص وأنطاكية ، وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضى بدمشق والأردن وفلسطين ، وأحمد بن أبى العلاء قاضى ديار مضر ، وبكار بن قتيبة قاضى مصر [١] . وقد استصدر هذا المؤتمر قرار بخلع الموفق [٢] ، وكتبت منه نسخ بعثت إلى كافة بلاد الطولونيين لتقرأ على المنابر وقرر المجتمعون « إسقاط اسم الموفق وخلعه وترك الدعاء له وأنه غير مستحق لإمامة المسلمين ولا مأمون عليهم [٣] » ، واستند قرار الخلع إلى أن الموفق نقض البيعة بعدوانه على الخليفة ، وأنه خرج على السلطات التى رسمت لولى العهد وأنه غير أهل لإمامة المسلمين .

إذن لم يكتف ابن طولون بأن يجعل من نفسه حامياً لذمار الخلافة بالقوة المسلحة بل أعطى نفسه سلطات ما كانت تتهيأ له أو لأمثاله لولا ضعف الخلافة وتدهورها ، أعطى نفسه حق خلع ولى العهد وإقصائه عن إمامة المسلمين ، ولا ندرى بأى حق يخلع ابن طولون ولى العهد : وبأى حق ينحيه عن إمامة المسلمين ؟ اللهم إلا حقه الذى بناه على القوة العسكرية الهائلة التى سوغت له أن يفعل ما يشاء . ومالنا نعجب والأتراك فى بغداد درجوا على عزل الخلفاء وتوليتهم ، بل عمدوا إلى سجنهم وتعذيبهم وقتلهم ، فلم لا يدعى ابن طولون لنفسه ما طاب له من الحقوق وقد أعطى نفسه لقباً جديدا ورد فى صيغة كتاب الخلع « أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين [٤] » ، ولعل حق الولاء هذا هو الذى سوغ له إتيان ما يريد . ثم أمر بلعن الموفق على المنابر وإسقاط اسمه من الدعوة ومحو اسمه من الطرز [٥] ، وتعقب الداعين للموفق فى كل مكان حتى فى البلاد المقدسة نفسها ، ومن أجل هذا جرد حملته المشهورة ليمنع من أن يدعى لأبى أحمد علي منابر مكـــــة أو

---

(١) انظر الكندى:ص ٢٢٦ : ومعه منهال بن حبيب وإسحق بن محمد بن معمر وقيس بن حفص وعبد الله بن بشير وحوثرة بن عبد الرحمن وسعيد بن سعدون وفهد بن موسى وعلى بن محمد بن عبد الحكم ومحمد بن إبراهيم الاسكندرانى .

(٢) الكندى : ص ٢٢٦ . (٣) الكندى : ص ٢٢٦ .

(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ٢٩٦ . (٥) Les Tulunides p . 119

بالموفق بعرفات [1] » فأرسل الغنوى وابن السراج فى جيش ضخم لكنه هزم وارتد دون أن يحقق بغيته [2] .

وفى غمرة هذه الأحداث طلع ابن طولون بأمر آخر ، فقد بنى « على قبر معاوية بن أبى سفيان أربعة أروقة ورتب عند القبر أناساً يقرأون القرآن ويوقدون الشموع عند القبر » [3] . ولا ندرى سر هذا الاهتمام المفاجىء بمعاوية وقبره وقد زار أحمد الشام قبل ذلك عدة مرات ، ولا ندرى أنعتبر ذلك تحدياً لبنى العباس وكرههم التقليدى للأمويين ، أم نعتبره استرضاء لأهل الشام الذين يحبون سيرة معاوية ، أم رعاية لذكرى صحابى له منزلة فى نفس ابن طولون .

مهما يكن من أمر فقد استنفد العملاقان المتصارعان كل ما فى جعبتهما من وسائل وأساليب ، والآن وقد مضى على هذا الصراع المرير نحوا من ثلاث عشرة سنة حافلة بالنشاط فلنعرض لحصيلة هذا النزاع وماذا أفاده كل فريق .

أما عن الموفق فقد خرج من حرب الزنج مثخناً بالجراح مثقلا بالأعباء لا يقدر علي بذل مجهود آخر [4] ، وقد استنفد كل وسيلة ، جرب السيف والدبلوماسية فلم تحقق له ما يريد .

أما ابن طولون فقد حاول أن يحمى الخليفة وأن يأويه ، وأن يخلع الموفق ، وأن يستولى على الأراضى المقدسة ، كما استطاع أن يحافظ على حقوقه المكتسبة فى مصر وبلاد الشام ، وأن يبقى كالطود لا ينال منه نائل ، أو ينتقص منه منتقص . ولكنه حقق ذلك كله بثمن باهظ حقا . حملاته المتتابعة على بلاد الشام وأماله المتدفقة على بغداد كانت فى حاجة إلي موارد جمة ما كان أحوجه إلي إنفاقها فيما يعود على البلاد بالنفع .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩٨ . (٢) الطبرى:جـ ٨ ص ١٥٣ .
(٣) النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٤٧ .
Wiet : Inscriptions arabes de Damas , Syria , III , p . 16
(٤) Les Tulunides p. 93

إذن خرج العملاقان من الصراع وكل منهما راغب فى الصلح تواق لتفاهم يضع حداً لهذا الحرب الضروس .

وكان الموفق أول الطرفين ميلا للتفاهم واقراراً للسلام ، فلم يكن كما قلنا قادراً على عدوان جديد ، وقد أخذ لؤلؤ غلام ابن طولون يحرضه على الحرب فلم يستجب [1] ، إنما بدأ يتصل بابن طولون فكان البادىء بخطب وده ، فأرسل إليه يعاتبه على المبادرة بخلعه وإسقاط اسمه ، ويعتذر له على ما كان من لعنه على منابر بغداد « إن اللعن الذى خرج عن غير إرادة منى ولا محبة ولا اختيار وإنى لكاره لما جرى من ذلك [2] ... » ولما تأكد أحمد من صدق رغبته جنح بدوره إلى المسالمة واعتذر إليه بقوله « أنه إنما انحرف عنه لحصره الخليفة وأنه لو خلاه ... لكان لبعض خدمه ، وأن جميع ما فى يده من مال عمله محفوظ للخليفة ، وإن أقام على ما هو عليه من حصره إياه فى يده وتوكيله به حاربت عنه ولو لم يبق معى أحد [3] » .

وقد طرب الموفق لهذه الاستجابة وبادر بتكريم الخليفة ورد إليه اعتباره وأطلقه من محبسه [4] . واستحث الخليفة حتى كتب لابن طولون يسأله رد الدعوة وأنفذ إليه كتاب إسقاط اللعن عنه . وكانت الخطوة المرتقبة أن يعترف الخليفة رسمياً بشرعية بنى طولون فى حكم مصر لولا أن المنية وافت ابن طولون وهو على أبواب النصر .

مهما يكن من أمر فحسب أحمد بن طولون أنه أحسن الدفاع عن أهم ركن من أركان الاستقلال الذى بناه ولم يأل جهداً ، أو يدخر وسعاً فى سبيل ذلك ويكفيه فخراً أن أكبر قوة فى الدولة جنح إلى مسالمته وعمل على خطب وده ولم يستطع أن ينال منه .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ٣٠٢ . (٢) نفس المصدر ص ٣٠٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٣٠٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٠٤ ، الكندى ص ٢٢٨ .

اتساع رقعة الدولة الطولونية :

آمال ابن طولون فى الاستقلال لم تكن لتقنع بحدود مصر الإقليمية ، وهو إذا كان قد مكن لنفسه فى البلاد إلا أنه اتخذها قاعدة لتحقيق أطماعه بالتوسع إن غربا فى برقة وإن شرقا فى بلاد الشام متطاولا إلى حدود العراق وحدود الدولة البيزنطية .

ونحن نريد أن نعرف إلى أى حد استطاع أن يحقق هذا الركن من الاستقلال كما حقق الركن السابق ، وأن نكشف عن أهم الاعتبارات التى كانت تحدوه أو تدفعه فى هذا الاتجاه .

وهو فى سبيل تحقيق أهدافه تلك نجده يتبع نفس الأسلوب الذى اتبعه فى بناء قوته والتمكين لنفسه فى البلاد ، وهو أن يكيف هذا الاسلوب حسب الظروف ، وأن تكون الوسيلة ذات صبغة مشروعة ، وأن لا يظهر أمام جمهرة المسلمين بمظهر المعتدى الباغى ، ثم هو يتحين الفرص لتحقيق أهدافه خطوة فى إثر خطوة تاركا لعامل الوقت والزمن أن يرسم الطريق الموصل ... بل نجد نفس الظروف التى قدرت له أن يتمكن من مصر مكنته من تحقيق الكثير من أهدافه فى هذا الميدان .

فقد امتد نفوذ ابن طولون إلى برقة ربما دون أن يطمع فى ذلك أو يفكر فيه ولكنها أضيفت إليه ، ونفس يارجوخ الذى رأيناه يطلق يده فى أمور مصر كلها أضاف إليه برقة ، فوجد نفسه من حيث درى أو لم يدر ، وقد انبسط نفوذه غرباً حتى حدود طرابلس ، ولكنه من المؤكد أن أحمد بن طولون لم يفرط فى هذا النفوذ أبدا ، ولم تتراخ قبضته فى برقة فى أسوأ الظروف ، بل دافع عن نفوذه فيها دفاعاً مجيدا ، وأخمد كل الثورات والفتن التى اشتعلت ، فقضى على ثورة بغا الكبير ثم تصدى للثورة التى انبعثت فيها مرة أخرى فى عهد أبى روح . ويتجلى إصرار ابن طولون فى عنف على ألا تخرج

برقة من يده فى القوات التى سيرها للقضاء على هذه الثورة ، فقد سير جيشا ضخما يقوده أبو الأسود الغطريف ويزبك الفرغانى وأيدهما بأسطول قوى . ولم يتوان فى بعث جيش آخر يقوده غلامه لؤلؤ الذى استطـــاع أن يخمد الفتنة ، وأن يقر نفوذ سيده ، ثم دخل الفسطاط يعرض الغنائم والأسرى ، « وطاف بهم البلد فسكنت رهبة أحمد بن طولون فى قلوب الناس » [١] .

وفى نفس القوة والإصرار قضى على ثورة ولده العباس ، لأنه لم يرفى هذه الثورة مجرد خروج على سلطانه ، بل رأى فيها ذهابا بنفوذه فى برقة وجلبا لعداء الأغالبة ، وقد توطد نفوذه فى برقة نهائيا بعد ثورة العباس ، واستقام له الأمر ، وامتدت حدود مصر الغربية حتى شارفت طرابلس .

وفى نفس الوقت بدأت أنظار ابن طولون تمتد إلى الشام ليمد نفوذه إليها وتوسعه فى هذه البلاد يكشف فى صورة فريدة عن طبيعته وخلقه وسياسته وهى أن لا يخطو خطوة إلا وقد اكتسبت صبغة مشروعة وأن لا يتعجل الحوادث ، إنما يحدد الهدف ، ويخطو إليه خطوة فخطوة متربصا مستعينا بعنصر الوقت . وثمة اعتبارات كثيرة كامنة من وراء تطلعه إلى بلاد الشام ومد نفوذه إليها ، اعتبارات يمكن أن نكشف عنها على النحو الآتى :

أولها : الدفاع عن نفوذه وسلطانه فى مصر نفسها ، فقد كان يعلم أن مصر إذا تعرضت لخطر فلن ينبعث إلا من بلاد الشام ، وأن السلطة المركزية لو فكرت فى مناوأته لسلكت إليه مسالك الشام ، فدفاعه عن مصر أملى عليه اهتمامه بأمور الشام وقضاءه على كل خطر يلوح منها ، ولم يكتف بسلبية الدفاع إنما كان يعتبر الهجوم فى بعض الأحيان أحسن وسائل الدفاع .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك اعتبارا آخر هو حرص ابن طولون على أن تكون قواته قريبة من مسرح الأحداث فى بغداد توطئة للقيام بدور بارز فـــى

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون : ص ٤٦ و ٦٢ و ٧٠ و ٧٢ .

الحياة الإسلامية المعاصرة ، ولم يكن دون أماجور أو ابن كنداج أو موسى بن بغا كفاءة أو قدرة ، فلم لا يكون له ما لهما من وزن ونفوذ ؟ . وتكمن من وراء أطماع أحمد فى بلاد الشام رغبة فى الجهاد فى غاية الوضوح والقوة لا يمكن نكرانها أو جحودها بل كانت من أهم العوامل التى جعلته يحرص على نفوذه فى الشام ويدافع عنه دفاعه عن نفوذه فى مصر .

وقد سلكت أطماعه فى بلاد الشام مراحل عدة حتى قدر لها أن تتم وأن تكمل وأن تتوطد ، وقد كان من أهدافه الأولى أن يحصل على ولاية الثغور الشامية فقد كانت « أجل ما طلب [1] » لتكون له صفة المدافع عن حدود الشام وحامى دار الإسلام من أعظم خطر كان يتهددها وهو الخطر البيزنطى ، وليس من شك فى أن ولاية الثغر تعطيه كلمة مسموعة فى شئون البلاد . وكان حرصه على هذه الولاية تجديدا لذكريات شبابه الأول فى هذا الثغر العظيم . وكان عدته فى تحقيق ذلك صهره ياركوج أيضا ، فقد كان يتوقع أن ينفذ إليه الكتب بولاية هذه المنطقة [2] ، وقد تحقق أمله فى نفس الوقت الذى تمت له السيطرة على خراج مصر ، فقد قلده الخليفة الحريص على أن تحمل إليه أموال مصر سرا ولاية الخراج والثغور الشامية ، بل أتبع ذلك بأن ولاه خراج الثغور الشامية أيضا . وقد أصبح ابن طولون منذئذ من المقررين لمصير بلاد الشام ، وبدأ يحس بالخطر الذى يمكن أن يتدفق إلى مصر من هذه البلاد إذا لم تكمل سيادته عليها حينما اشتعلت ثورة عيسى بن الشيخ الشيبانى الذى خرج عن طاعة المعتمد « وقوى طمعه فى التغلب على الشامات بأسرها [3] » ، بل وضح طمعه فى مصر ، وبات من المؤكد أنه إذا صمد للمعتمد فسيتطاول إلى مصر دون شك ، ومن هنا كانت مبادرة ابن طولون إلى تلبية رغبة الخليفة فى القضاء على هذا الثائر ، وكان ذلك رغبة منه فى دفع هذا الخطر . وكان يود أن يشارك مشاركة فعاله فى تأديب هـذا

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٧ .
(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٧ .
(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٠ .

الثائر لولا تدخل أماجور . إذ لو تم لابن طولون القضاء على ثورة ابن الشيخ لأتبع ذلك باستكمال نفوذه على بلاد الشام [1] . ثم تجدد الاحساس بالخطر على نفوذه بمصر بعد ولاية أماجور ، فقد كان يتوق إلى اقصاء ابن طولون عن بلاد الشام ، بل كان يتوق إلى ضم مصر نفسها ، ولو لمس فى أحمد بن طولون ضعفا لتم له ما أراد ، ولكن أحمد قد وضحت قوته فى ذلك الحين ، فطوى أماجور الجناح على أطماعه .

وتحققت ظنون ابن طولون من انبعاث الخطر من بلاد الشام بعد قطيعته مع الموفق الذى كان يعرف أطماع أماجور ، فأوعز إلى موسى بن بغا بتولية أماجور وحرضه على غزو مصر على النحو الذى رأيناه . وقصر به عن تحقيق ذلك ضعفه الواضح أمام ابن طولون ، فكانت محاولة موسى بن بغا الشهيرة ورغبته التى وضحت فى القضاء على ابن طولون قضاء تاما [2] . ثم كان إخفاق هذه المحاولة بالصورة التى عرضنا لها من قبل .

وقد تأكد الموفق من أن الخطر يكمن فى ولاية ابن طولون علــــى الثغور ، وأنه إذا أراد أن يقصى صاحب مصر عن شئون بلاد الشام نهائيا ، فلا بد من عزله من ولاية الثغور . وتم للموفق ما أراد وقلد أرخوز بن أولغ طرخان التركى سنة ٢٦٠ هـ [3] ، فلم يستطع أن يسمو إلى ما سما إليه ابن طولون ، اضطربت أمور الثغر ، ووضح عدوان البيزنطيين [4] . فلم يجد مناصا من إعادة أحمد إلى ما كان عليه وارتدت إليه ولاية الثغور مــرة أخرى .وقد اسفرت هذه المرحلة عن نتائج هامة ، فقد وضح للناس كافة أن الثغور لن يحميها بصورة فعالة إلا رجلها أحمد بن طولون ، وأن جهاد البيزنطيين لن ترتفع له راية إلا راية أحمد .

---

(١) Zaky Hassan : Les Tulunides p . 46 - 47 .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٨٥ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩١ .

(٤) الطبرى : جـ ١١ ص ١٦٢ .

وكان موت خصميه موسى بن بغا وأماجور بداية لمرحلة جديدة فى تحقيق أهدافه فى بلاد الشام ، وبداية التدخل الحقيقى ، التدخل الإيجابى .وقد حرص ابن طولون كعادته على ألا يتخذ هذا التدخل صفة العدوان ، فطلب من الخليفة أن يقلده بلاد الشام كلها ، ولم يتقدم خطوة واحدة إلا بعد فوزه بهذا التقليد سنة ٢٦٤ هـ [١] . الدليل على هذا كتابه لعلى بن أماجور الذى خلف أباه فى بلاد الشام [٢] ، ويتضح لنا من دراسته أنه كتاب متبوع إلى تابع ، وفيه إشارة صريحة إلى تقليد أمير المؤمنين إياه ، وإلى أنه أصبح صاحب الحق المشروع فى البلاد كلها ، بل فيه ما يشير صراحة إلى أوامر صدرت عن ابن طولون لعلى بن أماجور بتهيئة الأمر للقوات الطولونية المتقدمة بإعداد العلف والميرة والدعوة لابن طولون على منابر البلاد ، ثم تصرف على بن أماجور نفسه فيه ولاء وطاعة لأمير البلاد الشرعى ، ولو كان ابن طولون قد تقدم دون الحصول على هذا التقليد لقاومه على وأنصاره دون شك .

وقد دخلت قوات ابن مدينة الرملة ، وقدم له عاملها محمد بن رافع فروض الطاعة ، فأبقاه فى عمله [٣] ، ثم دخل دمشق وخرج إليه على بن أماجور وأتباعه يستقبلونه « ويوفونه حقه من الرئاسة » [٤] ، وأعدوا له الميرة والعلف ، وانضم إليه أنصار أماجور وأتباعه ، واستخلف على دمشق أحمد بن دعباش ومضت قواته إلى حمص وبايعه عيسى الكرخى ، غير أنه عزله عنها وولى يمن التركى بدلا منه [٥] ، ثم حاصر أنطاكية بعد أن رفض صاحبها سيما الطويل أن يدخل فى طاعته ، واقتحم المدينة وقتل سيما الطويل ودان له أهلها بالطاعة [٦] ، وكان طبيعياً أن ينتهى به المطاف إلى طرسوس ثغره المحبب ، فدخلها هو وصحبه وأقام بها زمنا ثم انصـــــــرف

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٩ .
(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٩٢ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢١٩ - البلوى ص ٩٣ .
(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٠ - البلوى ص ٩٣ .
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٢ .
(٦) الكندى : ص ٢٢٠ ، والبلوى:ص ٩٤ - النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٠ .

عنها [1] . وقد بلغ نفوذه فى بلاد الشام الغاية فوصلت قواته بقيادة أحمد بن جيغويه حران وما جاورها ، ومضت قوات له أخرى بقيادة لؤلؤ إلى الرقة ، فدخلت فى دائرة نفوذه التى امتدت حتى حدود العراق ، وبدأ يهتم بشئون هذه البلاد ، وجعل الكلمة الأولى فيها لغلامه لؤلؤ الذى اتسع سلطانه ، وخطب له على المنابر بعد ابن طولون وكتب اسمه على السكة .

وكان من الممكن أن ينصرف ابن طولون إلى تحقيق غايته والمضى بمعركة الجهاد فى طرسوس إلى أبعد غاية أو دخول بغداد نفسها وإنهاء نزاعه مع الموفق بحد السيف ، وكانت الظروف كلها تمهد لتحقيق ذلك ، الموفق خصمه العنيد غارق فى ثورة الزنج والخلافة تسنده وتؤيده وتبارك خطواته ، وخصومه جميعا دانوا بالطاعة والولاء لولا أن طعنته ثورة ولده العباس من خلفه فعاد إلى القطائع سنة ٢٦٥ هـ [2] ليقضى على هذه الثورة .

وقد عاد أحمد بن طولون لبلاد الشام مرة أخرى سنة ٢٦٩ هـ [3] . ورجوعه الى بلاد الشام هذه المرة لم يكن بقصد توسع جديد ، انما كان لتثبيت سيادته فى البلاد بعد أن كادت تؤدى بها خيانات لؤلؤ ومؤامراته وانضمامه الى الموفق ، ولتأمين حدد بلاده فى وقت كان الموفق قد انتصر على الزنج واستراح من شرهم وبات متوقعا أن يواجه ابن طولون بقوته كاملة ، وكان خروج ابن طولون لأمر جليل ، للقاء الخليفة وتهيئته سبيل الفرار أمامه للاعتصام بمصر ، وقد عاد ابن طولون إلى دمشق مرة أخرى ولبث بها بعض الوقت مترقبا للنبأ العظيم الذى كان يهز العالم الإسلامى هزاً عنيفا ، فلم تتحقق أمنيته على النحو الذى رأيناه .

---

(١) البلوى : ص ٩٨ .

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٤ .

وفى نفس هذه المدينة عقد مؤتمره الشهير الذى قرر فيه خلع الموفق من ولاية العهد وقصده القضاة والفقهاء من كافة بلاد الطولونيين ، وأصبح أحمد ابن طولون وهو فى دمشق فى يده تقرير مصير الامبراطورية الإسلامية كلها تسنده قواته ويسنده نفوذه ، وتسنده دولته المترامية الأطراف .

ولم ينس ابن طولون أن يعنى بمنطقة الثغور عنايته بسائر بلاد الشام ذلك أنه بعد وفاة موسى بن طولون خلا الجو ليازمان الخادم ، وتمكن من طرسوس ، واستمال أهلها وعزل خليفة طخشى بن يلبرد [1] ، ومن دمشق كتب ابن طولون إلى خلف الفرغانى الذى استخلفه طخشى عند وفاته ، وأمره بالقبض على يازمان ، فلما لم يستجب لم يجد ابن طولون بدا من أن يسير بنفسه ، فمضى إلى المصيصة وأقام بها [2] ، وراسل يازمان يدعوه إلى الطاعة ، ثم سار إلى أذنة وراسله مرة أخرى فلم يجد بدا من أن يسير إلى طرسوس ليضع حدا لهذه الفتنة ، فلما حوصرت المدينة قام يازمان بإطلاق مياه نهر البردان [3] ، وكان الوقت شتاء ، فغرق المعسكر واضطر ابن طولون إلى الانسحاب بعد أن تكبد خسائر فادحة ، وأقام بالمصيصة زمنا ثم حمل منها إلى مصر مريضا يسعى حثيثا الى الموت [4] .

ولم تله هذه الكارثة ابن طولون عن العناية بشئون الشام ولم يقعده المرض عن متابعة هذه العناية ، فقد أشيع أن اسحق بن كنداج وابن أبى الساج لما علما بمرضه طمعا فى أملاكه ، فكتب إلى قواد جيشه ببلاد الشام يطلب منهم توحيد الكلمة لمواجهة العدوان « وأمر بمضاربه فأخرجت إلى منية الاصبغ وأنفذ إلى الشام جيشا فيه خاقان ويلبق [5] » ، وأقام فى مضاربه تلك ستة أشهر يتابع المعركة حتى واتته الأنباء بزوال الخطر ، وكان انتقاله على هذه الصورة مما أجهده وعجل بمنيته ، فكأنه استمات فى الدفاع عـــن

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٥ ، البلوى:ص ٣١٠ .
(٢) النجوم الزاهرة : جـ٣ ص ٤٥ .
(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣١١ .
(٤) نفس المصدر ص ٣١٢ .
(٥) نفس المصدر ص ٣٢٠ .

حقوقه فى بلاد الشام حتى آخر رمق ، بل ذهب ابن طولون شهيد أطماعه فى هذه البلاد ، أصابه المرض بعد تقهقره عن طرسوس ، وقضى عليه انتقاله الى منية الأصبغ وهو على فراش الموت .

ومن قبيل الإنصاف لأحمد بن طولون أن نذكر أن أطماعه فى بلاد الشام كانت تحدوها رغبة صادقة فى الجهاد ، وأنه استطاع فى فترة حرجة فى تاريخ الإسلام – فترة ضعف الخلافة وانشغالها بحروب الزنج – أن يحمى الجناح الغربى لدار الإسلام ، وأن يؤمن حدود الشام الشمالية ، وأن يوقف عدوان البيزنطيين ، وأن يعتمد على مصر ومواردها ورجالها فى دفع هذا الخطر .

ويبدو أن السنوات التى قضاها فى طرسوس واشتراكه فى الجهاد والغزو وتقديره للدور الذى تقوم به الثغور فى رد العدوان ، ثم إحساسه الدينى العميق جعله يتبنى فكرة الجهاد ، ويدافع عنها فى عمق وإيمان .

وقد وضحت هذه الرغبة فى الجهاد فى السنوات الأولى من حكمه فى مصر ، يتجلى هذا من حرصه الشديد على الفوز بولاية الثغور ، وإعداد أخيه موسى لقيادة المجاهدين هناك نائبا عنه [1] ، فكان له ما أراد وولاه الخليفة الثغور على النحو الذى رأيناه .

ويبدو أن ابن طولون لم تكن له دراية واسعة بأمور الثغور فحسب ، بل كان أهلها يتعلقون به إلى حد بعيد ، فلم تفلح مؤامرات الموفق فى إقصائه عن الثغور وإخضاعها لنفوذه المباشر كما رأينا ، وعاد أحمد بن طولون إلى الثغور مرة أخرى يذكى فيها الحمية الدينية والرغبة الأصيلة فى الجهاد ، فولى عليها الولاة من قبله ينفذون سياسته ومن أشهرهم طخشى بن يلبرد .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٤٧ .

وابن طولون لم يكد يتقدم لبلاد الشام فى حملته الأولى ، ولم يكد يتم له الأمر حتى غزا أنطاكية ، ثم انطلق إلى الثغر الخالد لإشباع رغبته فى الجهاد ، والبلوى يعطينا صورة طريفة للأيام التى قضاها فى مدينته المحببة ، فقد كان يدخل المسجد الجامع « ليصلى راجلا برداء ونعل ومعه ثلاثة غلمان [1] » وأنه كان يجلس لقضاء الحوائج ويفرق المال على الأهلين ، « وكان يطوى أياما ويحيى الليل بالصلاة إلى الصبح [2] » .

ومن آيات معرفته بطبائع الناس فى طرسوس وبموقف المدينة من العدو الرابض وراء الحدود ، أنه لما ضج الناس بكثرة جنده وارتفاع الأسعار وندرة الأقوات خرج عنها متظاهرا بالانسحاب رغم قدرته على قمع الفتنة وإلزام أهل البلد الطاعة لأنه لا يريد محاربة طرسوس « وذلك لا يرانى الله عز وجل وأنا أجهز جيشا لمحاربة طرسوس إذ كانت سكن الإسلام [3] » ، إنما نصب نفسه لمحاربة الأعداء لهذا تظاهر بالانسحاب « لأنه إن لم يخف عن متملك الروم العدة التى دخلت هذا البلد ... وما نحن عليه من القوة والنجدة فأحببت أن يستقر فى قلبه وعنده وعند عساكره وجنوده أنا على ما نحن عليه قد ضعفنا عن أهل طرسوس ، ولم يمكنا مقاومتهم فانهزمنا عنهم ، وعزهم فهو لله عز وجل وعزكم فهو لى والله جل اسمه أولى أن يؤثر » [4] .

وكانت خطة ابن طولون فى الجهاد واضحة : هى الدفاع عن الثغور أولا ومقابلة الهجوم بهجوم مثله وإذا جنح العدو للسلم جنح هو له ، فلمـــا سأله الامبراطور البيزنطى أن يعقد الهدنة كتب إلى عامله طخشى يطلب إليـــه قبولهامع العناية بإصلاح الحصون وتجديدها حتى لا تكون الهدنة خدعة يعقبها هجوم مفاجىء ، ولولا ثورة العباس واضطراره للعودة لشهدت منطقة الثغور نشاطا حربيا لم تشهده من قبل [5] .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٩٨ . (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) البلوى : ص ٣١٢ . (٤) البلوى : ص ٩٨ .
(٥) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٠٩ ، ابن سعيد : ص ١١٨ .

وما كاد يعود إلى بلاد الشام للمرة الثانية حتى كانت طرسوس نصب عينيه فقد فسدت أمورها بعد وفاة موسى بن طولون ووفاة عاملها طخشى واستبداد يازمان الخادم بالأمر وتضييقه على الناس . وخاف ابن طولون أن يؤدى ذلك إلى طمع العدو . وقد رأيناه منذ وطئت أقدامه دمشق يراسل هذا العاصى ليدعوه إلى الطاعة . وبعث خلفا الفرغانى خليفة طخشى ليغزو فقتل من العدو وغنم حتى بلغ السهم أربعين دينارا [١] . ورأيناه يصير إلى المصيصة ثم إلى أذنة وينتهى به المطاف إلى طرسوس . وهو يخفى الألم الدفين لأنه لا يريد قتال هذه المدينة . ولعل تقاعسه عن الهجوم هو الذى أطمع فيه يازمان وجرأه على إطلاق مياه نهر البردان وما تلى ذلك من الخسائر الفادحة التى نزلت بأمير مصر [٢] والعلة التى ألمت به فأودت بحياته . وفى استطاعتنا أن نقول إن ابن طولون مات شهيد طرسوس .

ولم تقف رغبته فى الجهاد عند هذا الحد . بل نجده يخصص قدرا من أموال مصر وغلة إقطاعاتها وأوقافها لإصلاح الثغور وإذكاء شعلة الجهاد فى نفوس أهلها فكانت تحمل إليها الأموال « والسلاح والكراع والثياب ما لم يحمله إليها أحد قط [٣] » .

وهكذا استطاع ابن طولون أن يوسع رقعة دولته حتى امتدت فى آخر أيامه إلى حدود العراق فى الشرق وجبال طوروس فى الشمال وطرابلس فى الغرب . فهل توفر لعامل من عمال مصر السابقين مثل هذا النفوذ ومثل هذا السلطان ومثل هذه القوة ؟ أليس هذا كله دليلا على هذا الاستقلال الـذى شيده وبناه ؟ ألم يحى فى ميدان الجهاد تراث عبد الله بن سعد ومعاوية ؟ ألم يجعل من مصر الإسلامية حصن الإسلام وخط دفاعـــه الأول ؟

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٥ .

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٨٤ .

على أن الاستقلال الذى تحدثنا عنه ليس مجرد الظفر بالاستقلال الداخلى أو توسيع رقعة الملك ، إنما من علاماته مبدأ التوريث . إذ ليس من المعقول أن ينفق مؤسس الدولة هذه الجهود كلها ثم لا يورث ما يملك لأولاده من بعده . وكل الإمارات المستقلة التى ظهرت فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر توارث الملك فيها أبناء المؤسس جيلا بعد جيل : الأمويون فى الأندلس ، والأدارسة والأغالبة والطاهريون والسامانيون كلهم نهجوا هذا النهـج . وحق التوريث هذا أمر لم يألفه عمال الدولة من قبل ، فهو يعتمد على القوة ، وما دام الخليفة لم يستطع أن يخلع مؤسس الدولة فإنه قد لا يستطيع أن يخلع أبناءه إذا توارثوا الملك ، وقد يعمد مؤسسو الدول إلى إكساب هذا التوريث صبغة شرعية بالحصول على اعتراف من الخليفة صاحب الحق الشرعى فى إمارة المسلمين .

وقد رأينا كيف استطاع ابن طولون أن يحقق أركان الاستقلال ، ظفر باستقلاله الداخلى ، وناضل أكبر قوة فى الدولة ، ثم بسط نفوذه خارج حدود مصر على النحو الذى فصلناه ، ولكنا نريد أن نتبين هل حاول ابن طولون أن يستكمل الأركان الباقية ؟ وأن يفكر فى مبدأ التوريث ؟ نحن نستبعد ألا يفكر ابن طولون فى توريث أولاده من بعده ، وإلا فهل يرضى بتسليم الأموال المدخرة والأملاك الواسعة لغيره غنيمة باردة ؟

وفى رأينا أنه لم يفكر فى هذا الأمر إلا بعد أن توفرت له أسباب القوة والمنعة ، لم يفكر فيه على ما يبدو قبل خروجه إلى الشام إنما فكر فيه بعد خروجه إلى الشام متقلداً إياه من قبل الخليفة . فقد استخلف ولده العباس ، ولولا خيانته وخروجه على أبيه لكان صاحب الحق الأول بعده ثم ظهرت هذه الرغبة فى صورة أوضح حين خرج لبلاد الشام للمرة الثانية ، فقد توطدت قوته وبان نفوذه ، وتهيأ لاستقبال الخلافة وإيوائها فى مصر ، والبلوى يلقى ضوءا على ما اتخذه الأمير فى هذا الصدد ، فحينما وردت موافقة الخليفة على السير إلى مصر أحضر شيوخ البلاد والقواد واستخلف خمارويه وترك

معه جماعة شيوخ القواد لمشاركته الحكم [١] .

غير أن هذه الرغبة وضحت فى غير ما لبس حينما عاد من بلاد الشام مريضاً محمولا ، فلما أحس بمنيته تقترب وأيامه تطوى بايع أبا الجيش خمارويه بولاية الأمر من بعده ، فيروى البلوى أنه جمع الكتاب وكبار القواد واستشارهم فى الأمر فأقروه وتحمسوا له ، وبعث إلى خمارويه ولده وأوصاه وأخذ منه العهد والميثاق على ألا يحنث ببيعة الخليفة ، ومظهر عدم الحنث أن يحمل إلى دار الخلافة مائة ألف كل عام ، بل جمع رجال الجيش الذين مكنوه من الظفر ، واستشارهم فى بيعة خمارويه فوافقوا جميعاً لأنهم كانوا يخافون العباس ولا يرضون به بديلا لأبيه ، وحديثه معهم طريف ، فهو يشركهم فى المسئولية ويعرفهم أن الدولة دولتهم ، وأن بقاءها رهـــن بوحدتهم ، وأنه لا تتم الرئاسة فيها إلا له أو لأولاده « فليس يرأسكم مثلى ولا أحنى منى ومن ولدى عليكم فلا تخفروا ذمتى واحفظوا محبتى [٢] » .

هذه إذن تولية للعهد من بعده واعتراف منه بمبدأ التوريث ، بل نجده يستقدم ابنه العباس ويطلقه من محبسه ويقلده جميع الأعمال الخارجة عن مصر ؛ بلاد الشام والثغور على أن يخضع لخمارويه .

ولم يكن ينقص ذلك كله إلا أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة أو يوافق الموفق على مبدأ التوريث ، هذا وكانت ظروف التفاهم بين الموفق وأحمد بن طولون تمهد لإقرار الأمر الواقع ، وربما لإقرار مبدأ التوريث لولا أن المنية وافته دون أن يحقق ما يريد .

وبعد فهل نشك فى أن ابن طولون حقق لمصر استقلالا وضحت علاماته وبانت شاراته ؟

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٨٦ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ص ١٣١ .

الباب الثالث

ازدهار الدولة الطولونية
(عهد خمارويه)

انقضى عهد أحمد بن طولون حافلا بالجهود المضنية التى بذلت لتدعيم القوة وتثبيت السلطان ومغالبة الأعداء ، وأظل البلاد عهد جديد بولاية خمارويه [1] ، فهل نستطيع أن تسميه عهد الازدهار فى تاريخ الدولة ؟ وهل توفرت له الأسباب التى تدفعنا إلى وسمه بهذه التسمية ؟ .

لكى نجيب عن هذا السؤال بالنفى أو الإيجاب ، يحسن بنا أن نعرض لمنهج الإسلاميين فى فهمهم لمعنى الدولة والأدوار التى تمر بها ، وأن نطبق هذا المنهج فى إصدار ما نريد من حكم .

لم تكن الدولة فى عرف الإسلاميين فى العصور الوسطى تعنى ما نفهمه اليوم من المصطلح الحديث من هذه الكلمة وربطها برقعة معينة من الأرض ينزلها شعب متحد اللغة موحد التقاليد تحدوه آمال وأمانى واحدة ، إنما هى ترتبط فى أفهامهم بأسرة حاكمة ذات سلطان ، وبعصبية تعتمد عليها هذه الأسرة فى الحكم وتحقيق الأطماع .

يتمثل هذا الرأى بصورة أشمل فيما عرضه ابن خلدون فى مقدمته من دراسة لنشأة الدول وعوامل سقوطها وانحلالها . فهو يقرن الملك أو الدولة بعصبية تسندها وتشد أزرها وتسير فى ركابها « .. ذلك أن الرئاسة لا تكون بالغلبة والغلب إنما تكون بالعصبية ... فلا بد فى الرئاسة على القوم أن تكون

---

(١) ولد خمارويه بسر من رأى سنة ٢٥٠ هـ ويبدو أنه جاء مصر مع أسرته سنة ٢٥٧ وتلقى تعليمه فى مصر ملحقه بجامع ابن طولون حيث كان أبناء الطولونيين وقوادهم يتلقون تعليمهم الدينى .

من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة [١] » . وأن بقاء الدولة أو الملك رهن ببقاء هذه العصبية ووحدتها وقوتها ، فإذا وصلت العصبية إلى الملك وحازت السلطان أغرقت فى الترف والنعيم الذى « يذهب بخشونة البداوة ويضعف البسالة فإن عوارض الترف والغرق فى النعيم كاسر من سورة العصبية [٢] » . فالترف مفسدة للعصبية والدولة ، إذا بلغت هذا الحد من الترف والقوة والاتساع سعت حثيثاً نحو الضعف والاضمحلال والانحلال المؤذن بالسقوط والزوال « والدولة فى الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال [٣] » .

فالدولة إذن كما يستفاد من هذه المفاهيم لها فترة طفولة ونشوء ولها طور شباب وازدهار وعنفوان ، ثم هى كالأفراد لها كهولة وشيخوخة وضعف وفناء .

فإذا طبقنا هذا المنهج على الدولة الطولونية تبين لنا أنها مرت بدور النشأة فى عهد أحمد بن طولون ، وأن فترة النشأة تلك تحققت فيها شروط ابن خلدون ، فقد اعتمدت على عصبية تسندها وتشد من أزرها وتحميها ، غير أن هذه العصبية لم تكن عصبية القبيلة والنسب والدم ، إذ لم تكن لابن طولون قبيلة تسنده وتشد من أزره ، إنما كانت عصبيته من الموالى والعبيد وهم فى عرف ابن خلدون يدخلون فى باب العصبية « الشرف بالأصالة والحقيقة ، إنما هو لأهل العصبية ، فإذا اصطنع أهل العصبية قوماً من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالى ... ضرب معهم أولئك الموالى والمصطنعون بنسبهم فى تلك العصبية ولبسوا جلدتها كأنها عصبهم ، وحصل لهم من الانتظام فى العصبية مساهمة فى نسبها ... وكذا كل دولة وخدمها إنما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ فى ولاتها والأصالة فى اصطناعها .. [٤] » .

والعبيد الذين استكثر منهم ابن طولون وجندهم فى الجيش وأشركهم فى النفوذ والسلطان ، هم عصبيته التى اعتمد عليها كل الاعتماد .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٣٦ . (٢) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٣) نفس المصدر ص ١٧٠ . (٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٣٤

لقد مرت الدولة الطولونية إذن معتمدة على العصبية التى ذكرت فى دور النشوء والتكوين فى عهد ابن طولون ، فهل مرت بدور العنفوان والقوة والازدهار فى عصر خمارويه . ودور الازدهار فى حياة هذه الدولة طبقاً لمنهج ابن خلدون له مقومات لابد من توافرها ، منها أن تبقى العصبية متحدة لا تتفرق وأن يتحد أبناء البيت المتزعم للعصبية لأن تفرقهم مبدد للعصبية مذهب بوحدتها وأن لا يذهب النعيم والكسب وخصب العيش والسكون فى ظل الدولة بخشونة البداوة فيؤدى ذلك إلى الشيخوخة والانحلال .

هذه المقومات التى رأى ابن طولون أنها مبقية على العصبية حافظة للدولة آخذة بيدها إلى دور الازدهار تصورها أبلغ تصوير وصية ابن طولون إلى ولده أبى الجيش خمارويه ، والتى ورد ذكرها فى كتاب البلوى سيرة ابن طولون [١] . فهى من هذه الوجهة فى حاجة إلى أن نقف عندها وقفة طويلة لنوضح الخطوط الرئيسية التى رسمها ابن طولون لخليفته من بعده .

وأول ما اشترطه ابن طولون على خليفته أنه إذا أراد لدولته بقاء طويلا ألا يجردها من سندها الشرعى ، بالمحافظة على بيعة الخليفة التى هى أمانة فى عنق كل أمير . ومظهر هذه المحافظة عدم انقطاع المال الذى يحمل كل عام إلى عاصمة الخلافة ، لأنه إذا حفظ على هذه البيعة قداستها جعل جيشه يقاتل عن عقيدة وإيمان ، ويدافع عن قضية عادلة ، عن قضية الخلافة المضطهدة المظلومة « فإنك تدفع بها حنث هذا الجيش بأسره فى يمين البيعة وتشرح بها صدورهم فى قتال من قصدك ممن قهر الخليفة ومنعه أمره وتصرفه فى إنفاذ حكمه [٢] » . فإذا تم له هذا حفظ على الدولة عصبيتها التى هى سر قوتهاوبقائها ، فنجده يوصيه بالحفاظ على هذه الوصية بأن يبقى الجيش متحداً فى الخضوع له والولاء لدولته ، وأن يفهموا أنهم صناع هذه الدولة وشركاؤه فيها « قد وطأت لكم المهاد بهذه الدولة وخلفت لكم من عدتها مـا

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ٣٣٩-٣٤٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٨

يكفيكم فاطرحوا الأحقاد بينكم واسقطوا التحاسد ولتكن كلمتكم واحدة وجماعتكم كرجل واحد [١] » . وأن مما يكفل لهذه العصبية الوحدة والبقاء أن يلتف عبيده وغلمانه ومواليه حول أولاده « فليس يرأسكم أبداً مثلى ولا أحنى منى ومن ولدى عليكم ، فلا تخفروا ذمتى واحفظوا صحبتى وتربيتى لأكثركم وإيثارى وإحسانى وتفضيلى لجماعتكم [٢] » .

وليس أكثر تأليفاً لهذه العصبية وجمعا لكلمتها من أن ينال الموالى والعبيد والغلمان فى الجيش عطاءهم موفوراً « يا بنى فى حاصلى ألف ألف دينار وسبعمائة ألف وهى غير الوديعة .. يكون ذلك لعطاء جيشك وما عسى أن يعرض لك عند مقاومة من يقصدك .. ومادة الخراج بعد ذلك فغير منقطعة عنك [٣] » .

ولا يكفى لوحدة هذه العصبية الطولونية أن تتحد فى ولائها للخليفة أو ولائها لأمير البلاد أو أن يأتيها عطاؤها بانتظام ، انما يجب أن تتحد كلمة الأبناء ، لأنه إذا تفرقت كلمتهم كانت هذه الفرقة مفسدة للعصبية ذاهبة بريحها ، لهذا نجد أحمد ابن طولون يشترط لبقاء الدولة وازدهارها فوق وحدة العصبية وحدة القيادة بوحدة صفوف الأسرة « اقسم الأموال فى ولدى وانظر إليهم بعينى وتغمد هفواتهم وسد خللهم وكفهم عن الفاقة إلى غيرك وبصرهم ورشدهم وامنعهم من سرف الإنفاق فإنك أبوهم بعدى ، جبر الله جماعتكم ، وأحسن الخلافة فيكم [٤] » .

ثم لا بد من المحافظة على اتساع الدولة بالصورة التى تركها ابن طولون بالمحافظة على بلاد الشام وبرقة وأن تتسع الرقعة إلى أبعد من هذا إذا أمكن ولن تكون المحافظة على هذا الميدان بوحدة العصبية فحسب أو وحدة القيادة ،

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٩ .
(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٨
(٣) نفس المصدر ص ٣٤٠ . (٤) نفس المصدر ص ٣٤١ .

إنما بالتسليح الدائم والاستعداد والحرص من الفتنة المنبعثة من العراق « فلا تغرنك وجميع مخلفى وحاشيتى السلامة فتنسوا ما فى نفوس أهل العراق عليكم فأنتم شجا فى حلوقهم فلا تأمنوهم ولا تناموا عن الحزم فيهم فإن أحسستم بضعف عنهم فابذلوا جميع ما تملكونه فى السلامة منهم [1] » .

وليس أدعى إلى ضعف العصبية وتفرق الكلمة من السرف فى المال والاغراق فى الترف دون تدبر وتحوط ، ومن أجل هذا نجد ابن طولون فى وصيته تلك يوصى ولده بالاعتدال فى نفقاته ، ويحضه على اقتفاء آثاره « واسلك يا بنى سبيلى واقتف آثارى فى سائر من خلفت يأنسوا بناحيتك ويحسنوا طاعتك ولا يميلوا إلى عدو يخالفك ... قد خلفت دخل بلدك يزيد على ما ينوبك بجيشك وسائر مئونتك فلا تطلقن فيه يدأ بجور ، فيختل أمرك بخرابه ولا تقبل بنصيحة من ينصح لك بما يؤول إلى خراب بلدك والإجحاف بعامليك فيه فإنه عدو مبين من حيث لا تعلم [2] » .

ثم لا بد لهذه العصبية فوق هذا كله من أن تكسب ود أهل البلاد وتفوز برضائهم وتعاونهم « وقد خلفت لك رعيتك لا يطلبون منك إلا لين الجانب والأمن من المخاوف ولم أكن أمنعهم لين جانبى بخلا به عليهم ولكن آثرتك على نفسى بمنعى لهم لين جانبى والأمن من مخافتى فاستعمل أنت ذلك معهم تملك قلوبهم ويبادروا إلى طاعتك ويهشوا إلى التصرف بين أمرك ونهيك فى صغير أمرك وكبيره [3] » .

كان على خمارويه إذن - إذا أراد أن يحفظ على العصبية بقاءها وعلى الدولة قوتها حتى تتم نقلتها إلى فترة الازدهار من حياتها :

أن يحقق الأمور الآتية : أن يحفظ على الجبهة الداخلية سلامتها بالإبقاء على وحدة الجيش ووحدة الأسرة وكسب ود الشعب ورضاه .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ٣٤١ (٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٩

(٣) نفس المصدر والصفحة .

أن يحفظ على الملك سعته بالإبقاء على أملاك الأسرة فى بلاد الشام وبرقة وأن يتابع سياسة الجهاد .

أن يستكمل للاستقلال شرعيته وأن يسوى المشاكل التى عجز أبوه عن تسويتها وأن لا يعدو الاعتدال إلى الإسراف فى النفقات فيؤدى الإغراق فى الترف إلى تراخى العصبية وتكاسلها فتتفرق وتذهب ريحها .

فإلى أى مدى حقق خمارويه هذا الركن الأول بالإبقاء على وحدة القيادة ووحدة الجيش وكسب ود الشعب ؟

كانت أولى المشاكل التى واجهت خمارويه والمحيطين به من رجاله غداة وفاة أبيه أن تصبح وصية هذا الأب حقيقة واقعة ، وأن يختار خمارويه أميراً ، وأن تثبت قدمه فى حكم البلاد مخافة الفرقة والتنازع ، لأنه إذا اختلف الأبناء وتنازعوا كان ذلك أدعى إلى اختلاف الجند وتفرق القيادة وتفتت العصبية . لذلك بويع خمارويه بعد وفاة أبيه مباشرة تنفيذاً للوصية وإرضاء لزعماء الجند وقادتهم الذين فضلوا خمارويه والتفوا حوله إبقاء على تراث الدولة ومكاسبها . وبدت وحدة الصف كاملة فى موكب خمارويه عندما خرج مشيعاً لأبيه يحف به رجال الدولة وقواد الجيش وزعماء طوائف العسكر والجند (1) . ووضح للناس أن خمارويه اجتاز هذه المرحلة بنجاح وملأ مكان أبيه وخرج الجيش وخرجت العصبية سليمة دون تصدع .

ثم كان مقتل العباس الابن الأكبر مثبتاً لأركان هذه الوحدة ، ويبدو أن مصرعه كان أمراً لافكاك منه لصيانة وحدة الصف ، فقد كان من المفروض طبقاً لوصية ابن طولون أن يتولى العباس بلاد الشام ومنطقة الثغور بشرط أن يبايع خمارويه وأن يخضع له ويذعن لدولته بالطاعة ، وكان من المتوقع فى حالة مبايعة العباس وإذعانه وصونه وحدة العصبية أن يلى ما أوصى به أبوه ، وأن يسمح له بمباشرة سلطانه فى ولايته الجديدة . ويبدو من

---

(1) البلوى : سيرة : ابن طولون ص ٢٤٤ .

الروايات التي عرضت لمصرع العباس خصوصاً رواية ابن سعيد [1] والكندى والمقريزى أن العباس لم يعمل بالوصية ولم يلتزم حدود الطاعة ، بل تدل هذه الروايات على أنه لم ينزل عن حقه المشروع فى الحكم باعتباره أكبر الأبناء .

يستفاد ذلك من رواية ابن سعيد نقلا عن أوثق المصادر مثل نسيم أو القرطى أن العباس لم يكن حبيساً [2] ساعة مات أبوه « وكان العباس متلوماً على وفاة أبيه يرتقب الغلبة على موضعه ويتوهم أن أبا الجيش لا يقوى قلبه على مناهضتـــه [3] » ، وأن رجال خمارويه مثل الحسن بن مهاجر وأحمد بن محمد الواسطى « وخواص الأولياء والغلمان [4] » قد بعثوا فى طلبه ، ثم أحضر المصحف لأخذ البيعة .

ويتبين من هذه الرواية أن العباس تردد فى البيعة « فقد قال له الواسطى : بايع أخاك أبا الجيش ، فقال العباس : أبو الجيش ليس يسومنى هذا السوم ومحال أن يكون أحد من حضر أشفق على منه [5] » . فكان هذا المسلك مما كشف عن طوية العباس وأثار الريبة والشك فى نفوس زعماء الجند وقادته ، فقد كانوا يكرهون العباس أشد الكره ويأخذون عليه صلفه وتعاليه وجفوته ، ويخافون أن يؤول إليه الأمر فينكل [6] بمن آذاه إبان محبسه ومحنته . ولم يكم من المعقول أبدا أن يتولى السلطان رغماً عن زعماء الدولة ورجالها ، فكان رفضه المبايعة أو تباطؤه فيها بمثابة الحكم بالنهاية المحتومة ، فقد قتل بعد ذلك بأيام .

وكان مصرعه على يد زعماء الجند ، إذ بعد رفضه البيعة « قال له أبو عبد الله : ما أصلحت منك هذه المحنة شيئاً وأبو الجيش أميرك وسيدك ومن

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٣ . ابن سعيد : ص ١٣١ .

(٢) رواية أبى المحاسن جـ ٣ ص ٤٩ تناقض ما قاله ابن سعيد ص ١٣١ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ١٣١ . (٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) ابن سعيد:ص ١٣١ .

(٦) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 107-108 .

استحق من أبيك بحسن طاعته التقديم عليك ، وقام طبارجي وسعد الأيسر حتى أخذ سيفه ومنطقته وعدلا به إلى حجرة من الميدان فأمن الخائف من العباس [1] » ، ولعل هذه النهاية أراحت خمارويه من هم مقيم ، وإن كنا نرجح أن مصرع العباس كان بتدبير منه ، فقد نسب إليه ابن سعيد [2] قوله « الحمد لله الذى لم نتقلد دم العباس دون قصاص » ، على كل حال شاوره الواسطى فى ذلك فأقره ووافق عليه ولا يعفيه من اللوم شعوره بالندم فيما بعد .

اجتاز خمارويه إذن هذه المشكلة بنجاح ، واستطاع أن يوحد الأسرة والقيادة وأن يصون وحدة البيت ودان له الأمراء بالطاعة ، ولم نجد فى أخبار خمارويه ما يدل على تفريطه فى وحدة الأسرة أو خروجه على وصية أبيه ، بل نجد رعاية لهذه الأسرة وحفاظا عليها ، فقد روى أبو المحاسن أنه « بنى داراً جديدة للحرم من أمهات أولاد أبيه مع أولادهن وجعل منهن المعزولات من أمهات أولاده ، وجعل فيها لكل واحدة حجرة واسعة لتكون لهم بعد زوال دولتهم ، وأقام لكل حجره من الخدم والأسمطة الواسعة ما كان يفضل عن أهلها منه شيء كثير [3] » . وإذا كان خمارويه قد أصبح مضرب الأمثال فى كثرة البذل فهل يضن على إخوته وأعمامه وبنات أبيه .

وهو إذا كان قد ظفر بوحدة الصف ووحدة القيادة فإنه انصرف إلى الجيش الذى كان عدة الدولة فى نضالها من أجل البقاء ، بل من أجل القوة والنفوذ ، بل كان هذا الجيش بعناصره وطوائفه وما يضم من عبيد وموالى هو العصبية التى صنعها بنو طولون والتى اعتمدوا عليها فى تحقيق أهدافهم ، بل يعزى إليها وجود دولتهم .

---

(1) ابن سعيد: ص ١٣١ .

(2) نفس المصدر ص ١٣٩ .

(3) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ .

ولم يكن خمارويه بالذى يغفل عن إدراك هذه الحقيقة . فكانت عنايته بالجيش لا تقل عن عناية أبيه إن لم تكن قد فاقتها . وقد تجلت هذه العناية فى أمور عدة . تجلت فى زيادة عدد المجندين ، وإدخال عناصر جديدة . فقد روى أنه استقدم مجندين جددا من آسيا الوسطى ، بمعنى أنه استكثر من عنصر الأتراك فى الجيش . وضم إلى جيشه طائفة من المصريين [١] ، فتضاعف العنصر الوطنى فى الجيش ، بل نجد خمارويه يعنى بتجنيد العـرب ، فقد جند قوماً من العرب المقيمين فى منطقة الحوف وغيرها من مستقرات العرب ، وانتقى من عرف منهم بالشجاعة والشدة والبأس وضخامة الأجسام [٢] . وعنى بتدريبهم وتنظيمهم وتسليحهم وكون منهم فرقة خاصة أسماها « المختارة » [٣] . فكانوا أشبه بحرسه الخاص أو أشبه بقوات الصاعقة « كانوا يقاتلون أمام جند خمارويه أضعاف ما يقاتله الجند [٤] » . وكان يريد أن تكون له عصبية خاصة يعتمد عليها عند اللزوم إذا استعصى عليه كبح جماح العصبيات الأخرى . ولا يمكن أن يكون ذلك مجرد رغبة فى وضع حد لعدوان عرب الحوف وتهديدهم للأمن على حدود مصر الشرقية [٥]، فهو لم يجند كل عرب الحوف ، إنما جند أكثرهم شباباً وأوفرهم قوة . ولم يقتصر على منطقة الحوف إنما جاوزها إلى « سائر الضياع » ..

ولم يكن خمارويه مقلا فى عنايته بالجيش بل كان مسرفاً فيها ، فقد بلغت درجة الفخامة والأبهة فى تفننه فى اتخاذ البديع من الزى والسلاح . ربما كان أحمد يمد الجيش بحاجته الضرورية ، أما خمارويه فقد « ألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه [٦] » . فيمشى زيهم هذا مع الفخامة التى غلبت على الحياة فى عصر خمارويه والتى شملت كل شـــىء

---

(١) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 170 .
(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٥٩ . المقريزى : جـ ١ ص ٣١٨ .
(٣) نفس المصدر . (٤) نفس المصدر .
(٥) النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٥٩ . (٦) النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٥٧

تقريباً . بل تجلت هذه العناية فى مواكبه الرسمية التى كانت على أوفر ترتيب وتنظيم ، كل طائفة بزيها وسلاحها ، فرقة المختارة أولا ثم أصناف العسكر وفى أعقابهم السودان « فيخالهم الناظر بحرا أسود يسير على وجه الأرض لسواد ألوانهم ويصير لبريق درقهم وحلى سيوفهم والخوذ التى على رءوسهم من تحت العمائم زى بهيج للغاية [1] » .

وامتدت عنايته إلى التنظيم وحسن التدريب ، فقد كان لكل عصبية فى الجيش سلاحها وزيها ، ولا بد أنه قد حدد لكل منها دورها فى القتال ، ولا بد أنه تعهد هذا الجيش العظيم بالتدريب الشاق المتواصل ، ولم يبخل عليه بالمال ، بل أعطاه أكثر مما أعطى أبوه ، فكان يمنحهم أعطياتهم منتظمة ، ويوزع عليهم الهبات بوفرة فى كل مناسبة فوق ما كانوا يحوزونه من أسلاب وغنائم ، الأمر الذى ربطهم بالدولة برباط قوامه المصلحة المتبادلة . وقد ذكر كل من أبى المحاسن والمقريزى أن نفقات الجيش بلغت ٩٠٠ ألف دينار [2] ولا ندرى أكان ذلك لعطاء الجيش وحده أم شمل نفقاته جميعها .

وقد علت كلمة الجيش فى شئون البلاد الداخلية وأصبح لرجاله سلطان يما أكثر مما كان لهم زمن ابن طولون [3] ، فقد كان أحمد يكبح جماحهم فى نوة وحزم ، ويحملهم على الطاعة حملا ، أما خمارويه فكان يسكتهم بكثرة المال ويبهرهم بوفرة العطاء ، وقد لعبت طوائف الجند دوراً كبيرا فى سياسة مصر الداخلية فى عهد خمارويه ، ولم يلههم عن الأحقاد والفتن إلا بقـــاء

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٧ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٩ .

(٣) انظر الكندى ص ٥١٦ – ٥١٧

ذكر الكندى فى معرض ترجمته للقاضى محمد بن عبده بن حرب أن ثمة خلافا وقع بين خمارويه وبين أكابر جيشه فتوسط بينهم القاضى إلى أن انصلح الحال فشكره أبو الجيش .

وكان فى جملة ما قال لهم القاضى : أنا أشد السيف والمنطقة فأحمل عن الأمير ومازال حتى تراخوا كما ذكر نقلا عن الذهبى فى تاريخ الإسلام « أنه رأى من أبى الجيش خمارويه انكساراً فقال له : ما الخبر فشكى إليه ضيق الحال واستتار القواد بالضياع فخرج إليهم القاضى وهم فى موضع من دار فائق وصافى وبدر وجماعة » .

الدولة متسعة كما كانت وحروبهم المتصلة خلف خمارويه . وقد ظهرت نتيجة هذه العناية التى خلعها خمارويه على الجيش فى حروب الشام وفى نضال هؤلاء الجند فى الدفاع عن الامبراطورية الطولونية .

ويبدو من النزر اليسير من الوثائق [١] التي بين أيدينا أن عناية خمارويه بالأسطول لم تكن أقل من عناية أبيه ، وأنه لعب دوراً هاما فى حروبه فى بلاد الشام ، فقام بدور فعال فى جهاد العدو .

ولكى يتم لخمارويه تدعيم الجبهة الداخلية نراه يعمل على استرضاء أهل البلاد متبعا نفس السياسة التى سار عليها أبوه من قبل ، فشمل النصارى بتسامحه وظفروا فى عهده بحريات لم يفوزوا بها من قبل ، كما استمال قلوب المسلمين [٢] من المصريين ، وأشركهم فى الجيش على نحو ما فعل أبوه ، بل لعله استزاد منهم ، ولم يعدم الشعب أن يفيد من الرخاء الذى خيم على القطائع وعلى قصور بنى طولون بصورة لم تشهدها مصر الإسلامية من قبل .

وإذا كان خمارويه قد استقام له أمر الجبهة الداخلية على هذا النحو ، فقد كان عليه - ليحفظ على الدولة بقاءها - أن يدافع عن أملاكه فى بلاد الشام ، وأن يستأنف النضال القديم بين حاضرة الدولة وبين سلطانه النامى ، وأن يقف للمؤامرات التى قد تنحدر من العراق وقفة الحذر المترقب . فقد كان واضحاً أنه إذا فقد السيادة على بلاد الشام انتهى أمره فى مصر . وقد صح ما توقعه ابن طولون ، فما كادت تصل إلى بغداد أنباء وفاة أحمد بن طولون وتولى خمارويه حتى انبعثت الفتنة من مراقدها وضاعت عروض السلام هبـــــاء .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٥١ - ٥٩ .

(٢) Les Tulunides p. 218 .

وتطلع أعداء الطولونيين إلى بلاد الشام يريدون اقتطاعها متجاهلين الجهود التي أنفقت طيلة خمسة عشر عاما . وكان الموفق قد فرغ من أمر الزنج واستقام له الأمر واستراح من خصمه العنيد أحمد بن طولون ، فبدأ يفرغ لمصر ليأخذ بثأره القديم ، وكان يعتقد أن الفرصة سانحة والظروف مواتية ، فخمارويه لازال فتى في ميعة الصبا ليس له دهاء أبيه ولا خبرته ، ولازال الفراغ الذى خلفه أبوه لم يملأ بعد .

واستخدم الموفق نفس الأسلحة القديمة التى حارب بها أحمد ، وهى أن يجمع بين القوة والدهاء ، وأن يكسب أهدافه طابعاً مشروعاً ، فقد استغل اسحق بن كنداج ، باعتبار أنه لم يزل الأمير الشرعي للبلاد ، فقد عقد له على مصر إبان الأزمة التى ثارت بينه وبين أحمد بن طولون ، ومادام الخليفة لم يعترف بخمارويه أميراً ، فإن إسحق هو صاحب الحق الشرعى ، وأن عليه إذا أراد أن يجعل هذه الولاية حقيقة واقعة أن يسير إلى مصر . على أن يؤيده الموفق بما يحتاجه من جند . ثم ضم إليه خصم الطولونيين العنيد محمد بن ديوداد بن أبى الساج [1] .

وإذا بالموفق يكشف عن نية سافرة ، فقد كان فى عهد أحمد يستتر خلف موسى بن بغا الوصى على جعفر المفوض ، أما اليوم فإن قواته يقودها ولده أبو العباس .

ونحن نريد أن نسأل هل امتدت دبلوماسية الموفق إلى الجبهة الداخلية فى مصر تريد أن تنال منها ، أو تستغل ما يظهر فيها من عداوات . أليست من وراء خيانة الواسطى رجل الطولونيين المخلص يد للموفق تدفعه وتحركه ليخون خمارويه كما خان لؤلؤ أحمد بن طولون من قبل . فالأسباب التى ذكر كل من الكندى [2] وأبى المحاسن [3] أنها دفعت الواسطى إلى الخروج أسباب واهية ، فليس تسييره على رأس جيش يدافع عن مصر والشام انتقاصا لقدره إنما هو إعلاء لهذا القدر . أكان من المعقول أن يدفع به

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٤ – النجوم الزاهرة : جـ ٣ ص ٥٩ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٤ (٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ٥٠ .

خمارويه إلى الشام ليخونه فى ذلك الوقت ؟ لا نعتقد أن إرساله على هذا النحو فيه بعد عن السلطان والراحة ، أو فيه ما يخفيه من أن يستغل أعداؤه الفرص للإساءة إليه والطعن فيه . فقد كانت تحت إمرته قوات يستطيع أن يستخدمها . وكان من الممكن إذا ظفر بالنصر أن ترتفع مكانته فى الدولة أضعاف ذى قبل . ولا محل لما يذكره صاحب النجوم من خوف الواسطى أن يوقع به خمارويه لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس وقد أراحه مقتل أخيه من هم كان سيقعده ، وكان مقتل العباس بعلمه وموافقته وموافقة غلمانه وعبيده .

يخيل إلينا أن ثمة تراسلا وتفاهما واتفاقا تم بين الموفق والواسطى لينحاز إليه إذا خرج لبلاد الشام ، حتى إذا وجد خمارويه قواته التى سيرها لدفع أهل العراق تنحاز إليهم أسقط فى يده واستسلم لأعدائه « فكتب الواسطى إلى أبى أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه عنده ويحرضه على المسير إلى قتاله [١] » . إذن فقد كتب إليه قبل أن يسير لقتاله ، لعله كتب إليه من مصر ، ولعله استجاب لاتصالات سابقة . وأبو المحاسن [٢] يربط فى وضوح بين كتاب الواسطى وبين مقدم ابن الموفق من بغداد ، وهو ربط يوحى بما نذهب إليه من تفاهم سابق [٣] .

كانت خطة مبيتة إذن ، تسير قوات الخلافة بعد أن يخرج الواسطى إلى فلسطين على رأس قوات مصر وأن ينحاز إلى المهاجمين فتنتهى المعركة على النحو الذى أراده الموفق .

---

(١) الكندى : ص ٢٣٤ من شعر الواسطى إلى الموفق :

يا أيها الملك المرهوب جانبــــه	∴	شمر ذيول السرى فالأمر قد قربا
كم ذا القعود ولم يقعد عدوكم	∴	عن القتال لقد أصبحتم عجبـــا
ليس المريد لما أصبحت تطلبــه	∴	إلا المشمر عن ساق وإن لعبـــا
فأنت ذو غفلة يقظان ذو سنـة	∴	وطالب الوتر ذو جد إذا طلبـــا
إنى أرى فتنتا تغلى مراجلهــا	∴	والملك بعد أبى ليلى لمن غلبـــا

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥ .

(٣) يتبين مما ذكره جست فى الملحق الذى أفرده للقضاة الذين تولوا من سنة ٢٣٧ إلى سنة ٤١٩ نقلا عن ابن حجر العسقلانى فى ترجمة القاضى أبى زرعة محمد بن عثمان الدمشقى أنه سار مع أبى العباس إلى أنطاكية ثم رحل معه إلى بغداد وكان بها سنة ٢٨١ هـ .
انظر الكندى:ص ٥٢٠ .

ويبدو أن الموفق كان مطمئناً إلى النجاح واثقاً منه إلى أبعد الحدود ، فقد استولت قواته على الرقة وقنسرين [1] والعواصم ، وهزم بعض أنصار الطولونيين عند شيزر [2] . ثم دخلت القوات العراقية دمشق ومضت إلى الرملة تريد أن تشق طريقها إلى مصر [3] فكأن الموفق ذهب فى عهد خمارويه إلى أبعد مما ذهب إليه فى عهد أحمد ، فقد رأينا قوات موسى بن بغا تقف عند حدود الشام ثم يتفرق شملها وتعود أدراجها ، فإذا بالقوات العراقية هذه المرة تريد الاقتراب من حدود مصر والقضاء على الدولة الطولونية . ومواجهة خمارويه لهذا الموقف تكشف عن الدور الذى لعبه هذا الرجل فى المحافظة على كيان الدولة والوصول بها إلى مرحلة الازدهار ، ففى الوقت الذى كانت فيه قوات الموفق تريد أن تنال من الطولونيين على هذا النحو كان خمارويه قد بلغ التاسعة عشرة أو العشرين من عمره [4] ، ولم يكن قد شهد قتالا طوال حياته التى حفلت بالطمأنينة والهدوء فى ظل أبيه . ولم يكن له تمرس بالقتال أو خبرة بأحابيل السياسة مثل أبيه الذى نشأ فى جو بغداد وتمرّس على فنون القتال . مثل هذا الفتى دفع إلى هذه الحرب ووجه بخيانة رجله الأول ، وجابه أحقاد الخلافة وقواتها التى تريد أن تأكل أخضره ويابسه ، وهذه أحداث كفيلة بأن يهتز لها أعظم القواد ، وقد رأينا أحمد بن طولون يهتز لقوات موسى بن بغا التى لم تكن قد تجاوزت حدود الشام [5] .

---

(١) الطبرى:جـ ٨ ص ١٤٧ .

(٢) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 111

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ٢٣٥ . النجوم الزاهرة:جـ ٣ ص ٥

(٤) Les Tulunides p. 109 .

(٥) قال محمد بن داود لأحمد بن طولون : أنظر الكندى:ص ٢١٩ :

لما ثوى ابن بغا بالرقتين مـلا ساقيه زرقا إلى الكعبين والعقب

بنى بالجزيرة حصنا يستجن به بالعسف والضرب والصناع فى تعب

له مراكب فوق النيل راكـدة فما سوى القار للنظار والخشب

يرى عليها لباس الذل مذبنيت بالشط ممنوعة من عزة الطلب

فما بناها لغزو الروم محتسبا لكن بناها غداة الروع للهرب

ويبدو أن خمارويه كان يحس بما قد يخبأ له في بغداد ولعل عيون أبيه وجواسيسه كانوا يطلعونه على ما يدبر له ويراد به ، فواجه الموقف في حزم وعقد لأبي عبد الله أحمد بن محمد الواسطي على جيش إلى الشام في ٦ ذي الحجة سنة ٢٧٠ هـ ، ولسعد الأيسر على جيش آخر (١) وسيّر قطعاً من الأسطول للمرابطة بالسواحل استعداداً للطوارىء (٢) . ولم تكن هذه الإجراءات إبعاداً للواسطي عن مسرح السياسة في مصر إنما كانت مواجهة لهذه المؤامرة الجديدة . وكانت خيانة الواسطي هي التي مهدت لهؤلاء الأعداء أن يتقدموا وأن يهزموا جنود الطولونيين عند شيزر وأن يدخلوا دمشق وأن يقتربوا من الرملة يريدون مصر . وقد واجه خمارويه هذا الخطر في شجاعة ، لم يعمد إلى ما عمد إليه أبوه من تركيز الدفاع في مصر وبناء الحصون ، إنما تقدم إلى بلاد الشام مباشرة غير مبال بالخطر رغم علمه بسوء الحال وخيانة الواسطي ، فالتقى بالقوات المعادية عند الطواحين على نهر أبي فطرس بين الرملة ودمشق (٣) .

ومتوقف خمارويه يوم الطواحين في حاجة إلى التوضيح الذي يخرج به عن الصور التي ذكرها الكندي وأبو المحاسن . فقوات العدو كانت أبعد من أن تحرز نصراً « وابن الموفق في أربعة آلاف (٤) » ، وكان الخلاف قد دب بين ابن كنداج وابن أبي الساج (٥) ، فهل تستطيع مثل هذه القوات أن تحرز النصر بالصورة التي وردت في الروايات السابقة ؟ . وهل كان جيش خمارويه قد بلغ سبعين ألفاً على نحو ما يذكر الكندي (٦) . فإذا أضفنا إلى هؤلاء السبعين ألفا الجيش الذي خرج به الواسطي وسعد الأيسر كان معنى ذلك أن خمارويه لم يترك في مصر قوات كافية يعتمد عليها في الدفاع عن البلاد إذا لم يكن من التقهقر بد . نشك كثيراً في عدد قوات خمارويه كما ورد في هذه الكتب ويخيل إلينا أن هذا العدد مبالغ فيه إلى حد كبير .

---

(١) الكندي : ص ٢٣٥ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٠ (٢) نفس المصدر والصفحات
(٣) الكندي :الولاة والقضاة ص ٢٣٥ (٤) النجوم الزاهرة:جـ ٣ ص ٥٠ .
(٥) Les Tulunides p. 111 . (٦) الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٣٧ .

وحتى إذا صحت هذه الأخبار فإنا نعتقد أن أبا العباس بن الموفق لم يلتق إلا بطليعة جيش خمارويه ، فقد كان أمير مصر فى مقدمة الجيش ، ولم يكن مستغرباً أن يهاب الموقف لأول وهلة وأن تخور عزيمته لأول لقاء . ويبدو أنه فر لا يلوى على شئ عندما شد عليه المهاجمون ، وأوقع هذا الفرار الارتباك فى صفوف الجيش وإلا لما استطاعت هذه الفئة الصغيرة أن توقع الذعر بذلك العدد الكبير .

ولم يكن من المعقول أن يمضى الجيش الصغير المنقسم بهذا النصر إلى نهايته بعد أن يذهب عن الجنود الطولونيين هول المفاجأة . ولا يقاس النصر بفوز فى أول لقاء إنما بالفوز النهائى . فسرعان ما استطاعت قوات سعد الأيسر [1] أن ترد الجيش إلى صوابه ، ويبدو أنه ضم الصفوف واستطاع بمعاونة أحمد بن اسماعيل العجمى وتشركين وحو طامش [2] أن يردوا القوات العباسية على أعقابها ، وأن يقلبوا هزيمة خمارويه إلى نصر ، وأن يضطروا الجيوش المتحالفة إلى التراجع صوب دمشق حيث أغلقت المدينة أبوابها فى وجوههم « ومضى أبو العباس إلى طرسوس فى نفر من أصحابه قليل [3] » وعاد إلى بغداد منهزماً فى ٩ جمادى الآخرة سنة ٢٧٢ هـ [4] وانهارت مشروعات الموفق [5] .

وإذا كان القائد خمارويه قد خارت عزيمته على هذا النحو فإن القوات الطولونية استطاعت بفضل ما اكتسبته من حسن التدريب أن تسترد زمام المبادأة ، واستطاع سعد الأيسر أن يعيد أغلب مدن الشام إلى الطولونيين على كل حال كانت هذه أول تجربة لخمارويه اشتدت بعدها عزيمته ونمت خبرته وأظهر من ضروب البسالة ما لم يتوفر لأبيه ، واستطاع أن ينال من جيوش الخلافة وأن يوسع حدود الدولة .

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٤٩ . النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٠ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .
(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٤٩ . (٤) نفس المصدر ص ١٥٠ .
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

وقد خرج إلى بلاد الشام سنة ٢٧٢ هـ واستطاع بعد إخضاع سعد الأيسر أن يدخل دمشق ، وأن يسترد سلطانه على البلاد كاملا [١] ، بل عاد برغبة صادقة فى مدافعة أعدائه ومحاربتهم مهما كلفه ذلك . فلم يعمد إلى الحيلة والمهادنة كما فعل أبوه إنما خف إلى لقائهم فى ديارهم . وبدأ بإسحق ابن كنداج الذى كان أداة فى يد الموفق وقاتله بموضع يقال له باجروان من أرض الرافقة [٢] . وقد استبسل فى القتال وثبت فى طائفة من أصحابه حتى أحرز النصر ورد ابن جنداج على أعقابه ، بل ظل يتعقبه ويجد فى أثره حتى مدينة سامرا [٣] . فقد اكتملت خبراته العسكرية وتألف قلوب جنده ورجاله « ووصلت خيله إلى تخوم العراق ودوخت الجزيرة [٤] » . وكان نصراً عظيما على الموفق الذى خرج ظافراً من حروب الزنج ، وهو نصر أذهل المعاصرين وفل عزيمة الموفق وأذل ابن كنداج الذى كان يدعى الإمارة على مصر فإذا به يرضى أن يصالح خمارويه [٥] ، وأن يكون عاملا من عماله يدعو له على المنابر [٦] ، وتوطد نفوذه فى إقليم الجزيرة وضرب نقودا بمدينة الرافقة سنة ٢٧٣ هـ [٧] .

ويبدو أن الموفق لم يكن قد ألقى سلاحه بعد ، إذ ما كاد خمارويه يعود إلى مصر بعد إحرازه هذه الانتصارات على ابن كنداج حتى خرج محمد بن أبى الساج منقضا على أملاك خمارويه فى منطقة الجزيرة . ولم يكن خروجه هذا بسبب تحالف ابن كنداج [٨] مع خمارويه ، إنما كان بتحريض من الموفق ، إذ بين أيدينا دينار ضرب بنفس مدينة الرافقة تاريخه ٢٧٤ هـ [٩]

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢ . (٢) الكندى : ص ٢٣٦ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ . (٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٥ .
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٧ . (٦) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
(٧) دينار ضرب باسم خمارويه : Lon-Porle : Arabic Coins p. 137 piece 959
(٨) Les Tulunides p. 115 - 116 .
(٩) Lon-porle : Arabic coins p. 82 piece 610 .

وهو لا يحمل اسم خمارويه إنما يحمل اسم الخليفة المعتمد واسم أحمد بن الموفق . وقد يدل هذا في وضوح على أن ابن أبي الساج حينما انتزع الرافقة من ابن كنداج عامل الطولونيين وانصرف نحو دمشق ، إنما كان يعمل باسم الموفق ولحسابه . وعاد خمارويه إلى بلاد الشام مرة أخرى لمواجهة هذا الخطر ، وقد واجهه بنفس البسالة التي واجه بها خطر ابن كنداج من قبل ، التقى بابن أبي الساج بثنية العقاب قرب دمشق ، وقاتله « حتى هزم أقبح هزيمة وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة وأسر وغنم » ، وتعقبه حتى الموصل والتقى به قرب الرافقة وهزمه مرة أخرى [1] .

وبذلك قضى على أعدائه الذين كانوا قد اجتمعوا منذ عامين على القضاء عليه ، وأقر السلام على حدوده الشرقية ، وامتد نفوذ الطولونيين من برقة حتى الفرات ، ومن آسيا الصغرى حتى بلاد النوبة [2] بل شمل أرمينية ، بصورة لم تتوفر له من قبل ، وبدا الطولونيون قوة رهيبة يحسب لهم ألف حساب .

وكانت نتيجة هذه الانتصارات أن ارتفع قدر خمارويه في أعين المعاصرين [3] ورأى الناس أنه يملأ مكان أبيه في قوة وجدارة « وتمكن من البلاد والعباد وملك الديار المصرية والبلاد الشامية ومد يده لبلاد الجزيرة وتأثل سلطانه المتوارث [4] » ، وإذا بالموفق ينشد السلام بعد أن أعيته السبل فاعترف بخمارويه أميرا على مصر ، واعترف الخليفة بشرعية حكمه بل أصهر إلى خمارويه [5]، وبدا كأنه عدل بني العباس وقرينهم ، واستطاع

---

(١) الطبري : جـ ٨ ص ١٥٤ . وفي الكندي ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

وقد رأيت جيوش النصر منزلة ... على جيوش أبي الجيش بن طولونا
يوم الثنية إذ ثنى بكرتـــه ... في النقع خمسين ألفا أو يزيدونـا

عاد خمارويه وضرب نقوده بالرافقة . انظر Lone-porle p. 139 , piece 917

(٢) Tulunides p. 115 .

(٣) Les Tulunides p. 115 .

(٤) قصيدة أبي القاسم بن يحيى المريمي :

فتوح الأمير نجوم تلـوح ... فليست تقاس إليها فتوح
تسير لها في جميع البلاد ... ركائب تغدو بها وتــروح

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٦ .

بعد إقرار السلام أن ينصرف إلى شئونه الداخلية [١] ، وأن ينعم بالدعة والأمن ، وأن تتألق الحياة الاجتماعية فى عهده بصورة لم تألفها مصر الإسلامية من قبل . وشعت البهجة من قصور القطائع وزهت على قصور العباسيين [٢] .

ولم يكن من المعقول بعد أن استقرت أمور الشام على هذا النحو وامتدت حدود الطولونيين حتى إقليم الجزيرة أن يغفل خمارويه أمرا كان أبوه من أحرص الناس عليه ونعنى به أمر الجهاد . وقد رأينا كيف كانت مشروعات ابن طولون فى بلاد الشام مقترنة بمحافظته على أمر الثغور ومدافعته عن حدود دار الإسلام . وفى الفترة التى أعقبت وفاة ابن طولون حتى سنة ٢٧٧ كان قد برز فى ميدان الجهاد اسم يازمان الخادم الذى تقلد أمور طرسوس فى أواخر أيام أحمد ، واستطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها رغم جهود ابن طولون فى دفعه عنها . وقد استطاع يازمان هذا أن يقود معاركه بنجاح ، فكانت قوات المسلمين البرية توغل فى آسيا الصغرى ثم تعود ، وقد أشار الطبرى إلى غارتين من هذا القبيل سنة ٢٧٤ و ٢٧٥ هـ [٣] .

وامتد هذا النشاط إلى الميدان البحرى فكانت سفن المسلمين تلقى البحرية البيزنطية وتنال منها [٤] ، كما كانت تغير على الجزر البيزنطية القريبة من ساحل الشام أو على شواطىء آسيا الصغرى [٥] . ولم تكن هذه السفن سفن يازمان وحده ، إنما نعتقد أن سفن الطولونيين أسهمت فيها ، ولم يكن من المعقول أن تتخلف عن مثل هذا الواجب المقدس . ونرجح أن الأسطول الذى بعث به خمارويه لحماية ساحل الشام سنة ٢٧١ هـ قد مد يده إلى المجاهدين المسلمين فى طرسوس الأمر الذى ساعد على مضاعفة الجهود فى هذا الميدان .

---

(١) الطبرى : جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٧٠ ، ١٨١
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ – ٦٢ .
(٤) الطبرى : جـ ٨ ص ١٥٢ – ١٥٣ . (٥) Les Tulunides p. 158 .

ولم تكن صلة يازمان بالخلافة مقطوعة ، بل كانت موصولة وكانت رسله تختلف إلى عاصمة الخلافة تطلب المعونة أو تبلغ أخبار المسلمين فى هذه المناطق الهامة [١] .

وقد ظلت جهود يازمان فى طرسوس متتابعة حتى كانت مشروعات الموفق وحلفائه التى انتهت بالهزيمة ، وأحب أبو العباس بن الموفق فى طريق عودته من حملته الفاشلة أن يمضى إلى طرسوس [٢] ، إما ليتعاون مع يازمان فى جهد مشترك لمدافعة الطولونيين ، أو ليدخل صاحب طرسوس فى طاعة الموفق ويحول بين الطولونيين وبين أن يتشوفوا إلى هذه المناطق الهامة ، ويبدو أن يازمان لم يستجب لأبى العباس أو يشركه فى مشروعاته العدوانية ، فى وقت كان يجب أن تكرس فيه الجهود لدفع الخطر البيزنطى . ولم يشأ أن يعترف له بسيادة على طرسوس فى الوقت الذى كان قد أباها على أحمد ابن طولون ، وساء ما بين الموفق ومنطقة الثغور [٣] .

ثم وضحت جهود خمارويه وتتابعت انتصاراته حين استعاد السيطرة على بلاد الشام ، وأخضع إسحق بن كنداج وهزم ابن أبى الساج وفرض السلام فى منطقة الجزيرة . هذا كان سبباً فى تقارب تم بينه وبين يازمان الخادم [٤] . قد يكون هذا التقارب جاء من ناحية خمارويه الذى أعجب بهذه الجهود فأراد أن يبقى عليها ، وأن يضاعف منها وذلك بمعاونة هذا القائد ؛ فأشار كل من الطبرى [٥] وأبو المحاسن [٦] إلى صلات أرسلها خمارويه ، « أرسل إليه ثلاثين ألف دينار وخمسمائة ثوب وخمسين ومائة دابة وخمسين ومائة ممطر وسلاح » . ولم تكن هبة بقدر ما كانت عوناً لهؤلاء المدافعين عن الثغر .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٢ .

(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٥٢ .

(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٤٥ ، والنجوم جـ ٣ ص ٦٧ .

(٤) الطبرى : جـ ٨ ص ١٤٩

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٩ .

(٦) الطبرى : جـ ٨ ص ١٥٥ .

ولم يكن من المعقول أن يرفض يازمان هذه اليد التي مدت بالخير ، بل دعا لخمارويه على منابر الثغور سنة ٢٧٧ هـ [١] بعد أن أصبح خمارويه أميراً شرعياً يعترف به الموفق والخلافة . واعترافاً بهذه السيادة بعث إليه بخمسين ألف دينار لعلها ما يستحق على بلاده من خراج [٢] . وكان هذا الاعتراف بداية لتعاون وثيق بين الرجلين لدفع الخطر البيزنطي والدفاع عن حدود الشام . ولا بد أن مثل هذا التفاهم أسفر عن مساهمة فعالة من جانب قوات خمارويه البرية والبحرية .

وقد ظلت هذه العلاقات متصلة حتى جرح يازمان في حروبه مع البيزنطيين [٣] ولم تكن وفاته إنهاء للعلاقات التي نمت بين خمارويه وثغر طرسوس ، بل نرى أمير مصر يحرص على هذه العلاقات حرصه على استمرار الجهاد ، ويتدخل في شئون عمال طرسوس بالولاية والعزل حتى لا تضطرب شئون المدينة فتتفرق جهود المسلمين . فقد ولي طرسوس بعد يازمان محمد بن موسى الملقب بالأعرج [٤] ، وليها من قبل خمارويه . ويستفاد مما رواه الطبري أن ثمة خلافاً نشب بين الأعرج وبين راغب مولى الموفق الذي طمع في البلاد ، وأن طغج بن جف لقي راغباً بحلب وسيره إلى مصر للقاء خمارويه ، وكتب إلى محمد بن موسى عامل طرسوس بأن أموال راغب عند غلامه ، فلما أراد عامل طرسوس أن يضع يده على هذه الأموال منعه الناس وحبسوه وكتبوا إلى خمارويه ليطلق سراح راغب . ويبدو أنه أطلق سراح راغب ، وأطلقوا هم سراح محمد بن موسى الأعرج ، وولي على المدينة أحمد بن طغان من قبل خمارويه على أن يعاونه راغب استجابة لأهل طرسوس .

ثم كان استقرار الأمور في طرسوس استئنافا لجهاد يقوم عليه خمارويه بأمواله ورجاله ، وعهد إلى طغج بن جف والي دمشق وطبرية [٥] بأن يمد يد المعونة لأحمد بن طغان .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧٦ .
(٢) الكندي : ص ٢٣٩ .
(٣) Les Tulunides p. 158 .
(٤) الطبري : جـ ٨ ص ١٦٣ .
(٥) سيدة الكاشف : مصر في عهد الإخشيديين ص ٥٧ .

ويبدو أن هذه السياسة أثمرت ثمراتها المرجوة ، فكانت الصوائف تخرج بقيادة طغج بن جف موغلة فى آسيا الصغرى ، ويبدو مما رواه الطبـــرى أن نطاق هذه الغارات اتسع عن ذى قبل حينما استطاع طغج أن يغزو طرابيزون على البحر الأسود ، وأن يفتح مدينة ملورية [1] . ولا يستبعد أن يكون هذا النشاط البرى الواسع النطاق قد صحبه نشاط بحرى مماثل قامت به البحرية الطولونية . وتوفى خمارويه دون أن يرى نتائج جهاده الواسع النطاق ، فقد ركن البيزنطيون إلى المسالمة وطلبوا الصلح سنة ٢٨٣ هـ ، ومظهر ذلك ما رواه الطبرى فى أخبار سنة ٢٨٣ هـ من تبادل الفداء بين المسلمين والروم على يد أحمد بن طغان عامل طرسوس [2] .

هكذا حافظ خمارويه على أملاك الدولة فى بلاد الشام بل بسط من رقعتها وحافظ على تراث الجهاد بنفس الروح التى سادت زمن أبيه .

ثم قدر خمارويه أن يستكمل لدور الأزدهار مقوماته وأن تستكمل الدولة طابعها التقليدى وتضيف إلى وجودها الواقعى وجودها الشرعى ، وقد رأينا كيف أن الجهود التى أنفقها أحمد بن طولون طيلة أربعة عشر عاما لم تحقق لدولته وجودها الشرعى الذى كان يطمع فيه مؤسس الدولة . لم يفلح فى

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٦٨ .

(٢) أورد الطبرى نص الكتاب الذى أرسله أحمد بن طغان وقد جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : أعلمك أن أحمد بن طغان نادى فى الناس يحضرون الفداء يوم الخميس لأربع خلون من شعبان سنة ٢٨٣ هـ وأنه قد خرج إلى لامس وهو معسكر المسلمين يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان وأمر الناس بالخروج معه فى هذا اليوم فصلى الجمعة وركب من المسجد الجامع ومعه راغب ومواليه وخرج معه وجوه البلد والموالى والقواد والمطوعة باحسن زى فلم يزل الناس خارجين إلى يوم الاثنين لثمان خلون من شعبان فجرى الفداء بين الفريقين اثنى عشر يوما وكانت جملة من نودى به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمسمائة وأربعة أنفس وأطلق المسلمون يوم الثلاثاء لسبع بقين من شعبان سميون رسول ملك الروم وأطلق الروم فيه يحيى بن عبد الباقى رسول المسلمين المتوجه فى الفداء وانصرف الأمير ومن معه وخرج فيما ذكر أحمد بن طغان بعد انصرافه فى هذا الفداء فى هذا الشهر فى البحر وخلف دميانة على عمله فى طرسوس » .
الطبرى : جـ ٨ ص ٢٨٣ .

أن ينتزع من الخلافة اعترافا بحق أولاده في وراثته من بعده . لا ننكر أنه تولى شئون البلاد بتكليف من الخليفة المعتمد . ولكن هذا التكليف كان مهددا بأن ينقض في أى وقت ، وكان الموفق متربعا في بغداد يوجه الخلافة بالصورة التي يريد . كان المعتمد يعطف على ابن طولون ويؤيده ، ولكن تأييد المعتمد لم يكن بذى غناء ، فقد كان هذا الخليفة مسلوب السلطان ، وكان السلطان الحقيقى في يد الموفق . وحاول ابن طولون بالحرب حينا والدبلوماسية حينا آخر أن ينال من الموفق فلم يستطع ، بل استصدر الموفق من الخليفة نفسه مرسوما بعزله وتولية إسحق بن كنداج . وتوفى ابن طولون معزولا من الناحية الرسمية . وظل إسحق بن كنداج يعتبر نفسه الأمير الشرعى على البلاد . ولو كان الأجل قد امتد بأحمد لأثمرت محاولات التفاهم بينه وبين الموفق ولكن أمنيته لم تتحقق .

ثم تولى خمارويه وبدأ من حيث انتهى أبوه . واستطاع أن يحقق آمال الأسرة كلها في شهر رجب سنة ٢٧٣ هـ [1] . وكانت الظروف كلها في هذه السنة تمهد للوفاق وتدفع الأطراف المتخاصمين إليه دفعا . فقد استطاع خمارويه أن يملأ فراغ أبيه ، وأن يجابه الفتنة وأن يتغلب على هزيمة الطواحين . وأن يستعيد سلطانه كاملا في بلاد الشام ، وأن ينتصر على إسحق بن كنداج وحليفه ابن أبى الساج . ورأينا كيف أن هذا النصر أعلى قدره في نظر المعاصرين . أما الموفق فقد رأى مشروعاته للكيد من الطولونيين تصاب بالإخفاق المتواصل ولم تنجح له محاولة منذ سنة ٢٥٦ هـ . وكان قد خرج من ثورة الزنج مثقلا بالأعباء وتقدمت به السن ، وكان الخليفة المعتمد قد مل هذا النزاع ، وأصبحت الظروف تمهد لأن تتصل الجهود في سبيل السلام .

وكان خمارويه رغم انتصاراته هو البادىء بطلب الصلح والتفاهم ، فقد كان في الحقيقة أشد حاجة إلى السلام ، فذكر المؤرخون أنه كتب إلى أبى

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٧ – النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١

أحمد الموفق فى طلب الصلح [1] وهو ببلاد الشام ، وأن رغبة المعتمد والموفق وابنه أبى العباس قد اجتمعت على مباركة هذه الخطوة والترحيب بها وأن هذا الترحيب مظهره هذا الكتاب الذى بعث به هؤلاء الثلاثة إلى خمارويه مع فائق الخادم فى رجب سنة ٢٧٣ .

ومن الطريف أن يذكر كل من الكندى وأبـى المحاسن أن هذا الكتاب « كتبوه بأيديهم تعظيما لخمارويه [2] » ، وترحيبا بهذا السلام الوشيك . وحمل هذا الكتاب تطورا خطيرا فى تاريخ العلاقات بين الطولونيين والعباسيين بل تطورا خطيرا فى وضع الدولة الشرعى .

ومن الطريف أن نعلق على الشذرات التى نشير إليها والتى ذكرها الكندى وأبو المحاسن [3] والمقريزى [4] ، ويتفق هؤلاء على أنهم كتبوا بولاية خمارويه « على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة » . فكأنه أعطى خمارويه الحق فى أن يحكم هذه الدولة وأن ينفرد بها ثلاثين سنة لا يهدد بعزل أو تدخل فى شئونه ، ولم يظفر أحمد بن طولون بمثل هذا مـن قبل ، إنما كان يظفر بقرارات العزل تصدر كلما شاء الموفق أن ينال منه . ولكن الكندى يضيف إلى هذا الشرط شرطا آخر يغفله كل من أبى المحاسن والمقريزى ، وهو شرط التوريث ، فيضيف قوله « بولاية خمارويـه وولده [5] » وهذا أقرب إلى الصحة ، لأنه لا يعقل أن يعترف لخمارويه بالولاية مدة ثلاثين سنة وأن ينكر هذا الحق على بنيه ، فكان هذا الاعتراف أمرا جديدا فى تاريخ العلاقات بين الدولتين ، بل أمرا جديدا فى وضع الدولة الشرعى ، فقد استوفت الشكل وأصبحت من الناحية الرسمية دولة يعترف بها أصحاب النفوذ الاسمى والفعلى ، الخليفة القائم وولى عهده . الموفق ثم الخليفة القائم وولى عهده . الموفق ثم الخليفة القادم أبو العباس بن الموفق الذى لقب بالمعتضد [6] .

---

(١) الكندى : ص ٢٢٧ – النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ . (٣) المصدر السابق .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ . (٤) المقريزى : جـ ١ ص ٣٢١ .

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٦ . (٦) الكندى:ص ٢٣٧ .

ولكن هذا العقد لم يشر فى كثير أو قليل إلى الأمور المالية ، ولم يتعرض لمقدار الخراج الذى يحمل إلى بغداد ، ولم ترد فى نصوص الكندى [١] وأبى المحاسن [٢] والمقريزى أية إشارة إلى هذا الموضوع من قريب أو بعيد . فكأن هذا الكتاب كان تسجيلا لحقيقة قائمة ، واعترافاً بنفوذ حصل عليه خمارويه فعلا ، ثم قطعا لدابر الفتنة التى فرقت بين أصحاب النفوذ فى بغداد وأصحاب النفوذ فى القطائع . فكأنه وضع للعلاقات فى طريقها الطبيعى الصحيح ، وإقرار للسلام فى هذه المنطقة الهامة من الشرق الأدنى ، والدكتور زكى محمد حسن يضمن هذا الكتاب فقرة لم نجدها فى أى من المراجع التى ذكرنا ، فقد ذكر أنه اعترف بولايته على الشام والثغور وأرمينية [٣] . وإضافة أرمينية لا تخلو من مغزى فهى اعتراف بالجهود التى بذلها خمارويه فى منطقة الجزيرة وأعالى الفرات وهى امتداد لنفوذ مصر على بلاد لم تكن لها من قبل .

وكان طبيعياً بعد هذا أن يسترد الموفق مكانه الطبيعى فى خطبة الجمعة باعتباره ولى العهد ، فبدىء فى ذكر اسمه ، وامتنع الطولونيون عن لعنه على المنابر والدعاء عليه [٤] . ويبدو أن الطولونيين لم يكفوا عن لعن الموفق منذ وفاة أحمد بن طولون [٥] وهو أمر كان يؤذى الموفق ويزعجه [٦]، وكان يتوق إلى أن يوضع له حد .

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ .

(٣) Les Tulunides p. 115 .

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٨ .

(٥) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 116

(٦) ومما يجدر ذكره أن اسم الموفق لم يذكر على النقود إلى جانب اسم الخليفة وولى العهد ويبدو أن خمارويه ظل يعترف بالسيادة الاسمية للخليفة وحده فإلى جانب النقود هنالك قطعة نسيج عليها اسم المعتمد وخمارويه ، وهذا النسيج تاريخه ٢٧٢ هـ أعنى لاحق لمعركة الطواحين .

انظر : Repertoire, 11 , p. 232 .

فكانت هذه الاتفاقية نصراً عظيما توج به خمارويه فوق الانتصارا
العسكرية التى أحرزها ، فقد تمكن بعد هذا من بسط نفوذه على منة
الثغور ومن إقرار الأمن والطمأنينة فى البلاد خصوصاً بعد تمكنه من القض
على المحاولة الأخيرة التى قام بها ابن أبى الساج .

ثم توفى المعتمد وبويع المعتضد بالخلافة سنة ٢٧٨ ، وخيف أن يؤ
هذا إلى نقض المعاهدة التى عقدت من قبل ، وكثيراً ما كانت وفاة الخل
تحل من العهود والمواثيق . وكان من الممكن أن يدعى المعتضد أن ما وق
كولى عهد قد لا يلزمه كخليفة . وكان خمارويه أحوج ما يكون إلى أن تط
فترة السلام وإلى أن تجدد هذه المعاهدة مهما كانت الظروف ، فلم يغفل سا
الكياسة والدبلوماسية فما كادت البيعة تتم للخليفة الجديد حتى كان رس
خمارويه الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص فى طريقه إلى بغا
يحمل التهنئة بالمنصب الرفيع ، ويحمل هدايا تتمثل فيها عظمة الطولون
ووفرة ثرائهم الذى دونه ثراء الخليفة ، وكانت هدايا « من العين عشرون حم
على بغال وعشرة من الخدم وصندوقان فيها طراز وعشرون رجلا على عشر
نجيباً بسروج محلاة بحلية فضة كثيرة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم من
خمسة بذهب والباقى بفضة وثلاثون دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسر
ولجم وزرافة ... [1] » . فكان ذلك إغراء بما قد تصيبه الخلافة من طر
وهدايا إذا ساد السلام واستقامت الأمور ، وكان المعتضد بدوره يعرف ثر
الطولونيين وغناهم الذى كان مضرب الأمثال ، وكان فى حاجة إلى المال
فالتقت الرغبتان : رغبة خمارويه فى السلام بأى ثمن مهما غلا ، ورغ
المعتضد فى المال . وكانت ثمرة هذه الرغبات المتبادلة أن صدرت معاه
جديدة لا تختلف كثيراً عن المعاهدة الأولى من حيث الهدف أو الروح .

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٦٤ .

ونصوص المعاهدة الجديدة كما وردت فى الكندى [١] وأبى المحاسن [٢] والمقريزى [٣] فى حاجة إلى مزيد من التوضيح والدراسة للتحقق من المكاسب التى فاز بها الخليفة أو خمارويه ، « وورد كتاب المعتضد على خمارويه لخمس بقين من ربيع الأول سنة ٢٧٨ هـ بولايته هو وولده ثلاثين سنة من الفرات إلى برقة وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عن ما مضى وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل [٤] » .

والنصوص المالية الواردة بهذا الكتاب تحتاج إلى وقفة غير قصيرة لبيان ما تشير إليه على وجه التحقيق . فهى تمثل قيودا مالية اشترطها المعتضد ولم يجد خمارويه بدأ من الموافقة عليها ليفوز بالسلام المنشود ، واختلفت آراء الدارسين فى تفسير كنه هذه الشروط ، فالأستاذ فييت يفسرها على أنها مائتا ألف دينار عن العام الذى انقضى منذ توقيع المعاهدة [٥] ووستنفلد يرى أنها مائتا ألف دينار عن السنة الحالية وثلاثمائة ألف بعد ذلك ، ويرى بكرّ [٦] أنها مشكلة لا تزال تفتقر إلى التوضيح .

وتفسير هذه الشروط ليس بعسير ، إذ يبدو - كما ذكرنا - أن المعاهدة الأولى كانت بمثابة استئناف العلاقات بين مصر والقطائع ولم تتضمن أية

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٠ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥١ .

(٣) المقريزى،جـ ١ ص ٣٢١ .

(٤) الدكتور زكى حسن يعقد مقارنة بين هذه المعاهدة وتلك التى عقدها هارون الرشيد مع ابراهيم بن الأغلب .

انظر : . Les Tulunides p. 156

(٥) . Wiet : Mosquees p. 23

(٦) . Les Tulunides p. 118

شروط مالية [1] . كما يبدو أن خمارويه بسبب الفتق والمنازعات التى سادت بينه وبين الموفق منذ سنة ٢٧٠ حتى إقرار السلام سنة ٢٧٣ ، لم يحمل للخلافة حقها المعلوم من خراج مصر ، حتى إذا لاحت الحاجة إلى عقد المعاهدة الجديدة اشترط المعتضد أن يدفع هذا الدين القديم فوق ما يستحق له كل عام من خراج مصر . ويبدو أن المتفاوضين من أجل عقد هذه المعاهدة قد توصلوا إلى اتفاق معين يقضي بأن يسدد خمارويه ٢٠٠ ألف دينار كل عام من الدين القديم « يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عن ما مضى [2] » ، ويدفع كل سنة فوق هذا نصيب مصر من الخراج « ثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل » بمعنى أن مصر تدفع للمعتضد خمسمائة ألف دينار وهو عبء ثقيل على خزانة مصر لم يجد خمارويه فكاكا من دفعه مهما كانـــت الظروف .

وثمة شروط أخرى أو حقوق أخرى فى هذه المعاهدة فى حاجة إلى توضيح ، وهى ما قضت به من إعطائه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، فكأن هذه النصوص ألغت آخر قيد على استقلال مصر الداخلى فى عهد خمارويه ، ونعتقد أن أحمد بن طولون لم يكن له حق تولية الأعمال فى البلاد دون رأى الخليفة وموافقته ، وقد رأينا كيف أن أحمد بن طولون ستأذن المعتمد فى تعيين عامل الخراج ، ولا بد أنه كان يتصرف على هذا النحو كلما وضحت حاجة إلى تولية العمال فى مختلف الولايات .

ويبدو أن هذه المعاهدة أعطت خمارويه فوق ذلك كله حق تعيين القضاة وهذا تطور بعيد المدى فى استقلال مصر الإدارى والقضائى ، فقد كان القضاء فى الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ، وكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر منذ فتحها العرب حتى عهد خمارويه [3] ، فأحمد بـــن

---

(١) المقريزى:جـ ١ ص ٣٢١ .(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٠ .

(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ص ٢٠٥ .

طولون لم يستطع أن ينال من بكار بن قتيبة إلا بإذن الخليفة المعتمد وموافقته ، ونحن لا نوافق على ما يقال من أن أمر القضاء فى عهد خمارويه كان لا يزال مرجعه إلى الخلافة [1] بعد توقيع المعاهدة ، فابن حجر العسقلانى فى عهد خمارويه يشير إلى أنه هو الذى كان يولى القضاة أعمالهم ، فهو الذى ولى أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقى قضاء الشام ثم قضاء مصر ، كما ولى عبيد الله بن محمد العمرى ، ثم أقره على الأردن وفلسطين وأعاد أبا زرعة إلى دمشق [2] ، أعنى أنه كان يولى القضاة دون إذن من الخلافة مستخدماً السلطات التى منحتها له المعاهدة سالفة الذكر . ويشير ابن عبد الحكم [3] إلى تولية خمارويه للقاضى محمد بن عبده فيقول « قال أبو القاسم بن قديد : وأقامت مصر بعد بكار بلا قاض حتى ولى خمارويه محمد بن عبده القضاء سنة ٢٧٧ هـ فلم يزل قاضيا حتى سنة ٢٨٣ هـ [4] » .

وقد رد المعتمد على هدايا خمارويه ونواياه الطيبة بهدايا مماثلة « فقدم رسول المعتمد فى شهر رمضان سنة ٢٨١ بالخلع ومعه اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح مع خادم يسمى سنيف [5] » .

ثم حدث تطور هام فى العلاقات بين الخلافة والطولونيين فقد تمت المصاهرة بين البيتين ، وهى حدث بقدر ما له من أهمية بالغة يحتاج إلى أن نقف عنده بعض الشىء مبينين الظروف التى أفضت إليه والنتائج التى تمخض عنها . والإشارات الغامضة التى وردت فيما كتبه الطبرى والكندى وأبو المحاسن فيها خلط وغموض واضح يجعل من الصعب أن نعرف متى بدأ التفكير فى هذه المصاهرة وكيف تمت والأسباب التى أفضت إليها ؟ فالأخبار

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر .

ملحق الكندى:٥١٨ – ٥١٩ ، ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٢٤٧ . (٤) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٤٧

(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٠ .

التى رواها أبو المحاسن [1] يفهم منها أن التفكير فى هذه المصاهرة وضع بعد بيعة المعتمد مباشرة وربما قبل أن يصدر المعتمد المعاهدة المشهورة ، فهو يربط بين البعثة التى أرسلها خمارويه وبين الزواج فيقول « فبعث خمارويه إلى المعتمد بهدايا وتحف فسأله أن يزوج ابنته قطر الندى لولده المكتفى بالله [2] » ، الأمر الذى يدل على أن هذا التفكير لم يكن لاحقاً لعقد الاتفاقية .

ويتبين مما ذكره الطبرى [3] أن الحسين بن عبد الله المعروف بابن الجصاص هو الذى سفر بين الفريقين للوصول إلى هذا التقارب ، ويخيل إلينا أن هذه الفكرة نبتت أثناء المفاوضات التى جرت فى بغداد بين المعتضد الخليفة وبين مبعوث خمارويه بقصد تسوية المشاكل المعلقة بين بغداد والقطائع ، توطئة لعقد الاتفاقية المنشودة .

ويبدو مما رواه المؤرخون أن العرض جاء من جانب خمارويه ، ولعله كان من الأسلحة التى استغلها هذا الأمير لإغراء الخليفة بتجديد العقد مثل العروض المالية السخية التى تقدم بها . ولم يكن من المعقول أن يرفض هذا العرض الذى جاء من أقوى الأمراء المعاصرين وأعرضهم ثراء وأوفرهم غنى ، ولا بد أن هذا العرض وما صحبه من عروض مالية قد عجل بتوقيع الاتفاق المنشود .

وكان خروج الاتفاقية إلى حيز التنفيذ معناه وفاء مصر بما وعدت به من التزامات مالية ، ثم وفاء أمير مصر بهذا الزواج الموعود ، فقد طمع الخليفة نفسه فى هذه المصاهرة ورحب بها .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .
(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٦٤ .

والدوافع التى حدت بكلا الطرفين واضحة كل الوضوح ، فخمارويه كان يريد عن طريق هذه المصاهرة أن يربط بين البيتين بروابط مودة باقية ، وأن يكسب البيت الطولونى مجدا ونفوذا قلما فاز به بيت حاكم معاصر . ولم يكن من الأمور الهينة أن تتم مصاهرة بين خليفة المسلمين وبين وال من ولاة دولته . ولا يبعد أن يكون المعتضد المحتاج إلى المال قد طمع فى مزيد منه ، فقد كان متوقعاً أن تجهز العروس « قطر الندى » بجهاز يتفق مع الخلافة وهيبتها ومقامها الرفيع ومع مصر وثرائها العريض ، وأن تتدفق الهبات والصلات والهدايا إلى خزانة الخلافة التى كانت تفتقر إلى المال [١] .

على كل حال إذا كان التفكير فى المصاهرة مبكرا على النحو الذى ذكرنا فإن الزواج لم يتم إلا بعد توقيع الاتفاقية بنحو سنتين أو ثلاث سنين ، فقد حملت العروس إلى بغداد فى سنة ٢٨٢ [٢] ، وأصدقها الخليفة ألف ألف درهم [٣] .

وكان زفاف « قطر الندى » وجهازها الذى أفاض المؤرخون [٤] فى وصفه حتى كادوا يقربونَ من الخيال مظاهره العظيمة الأثر لإعلاء كلمة الطولونيين وإطلاع الناس على ما ينعمون به من ترف ورخاء . وكانت هذه الأموال التى أنفقت رغم ما تنطوى عليه من سرف واضح أريد بها أن يظهر تفوق مصر على حاضرة الخلافة ، تفوقا فى الثراء العريض وفى الذوق الجميل والصنعة البديعة . ولا بد أن حمل هذا الجهاز الذى وصفه المقريزى وأبو المحاسن إلى عاصمة الخلافة كان له أثره العظيم فى المعاصرين الذين رأوا هذه التحف الغالية تنقل إلى قصر الخلافة فتثير العجب والدهشة « وحمل معها من الجهاز ما لم ير مثله ولا يسمع به [٥] » .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ . (٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٠ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٦١ – ٦٢ .

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦٢ .

ولم يكن يهم خمارويه مهما أنفق من مال إلا أن يدعم بيته بهذه المصاهرة ويرسى الاتفاقية على أسس وطيدة ، وأن يرتفع اسمه بين المعاصرين صهرا للخليفة وأن تظهر القطائع بين العواصم الإسلامية مترفة مزدهرة . ولا يمكن أن نعرف حقيقة الآمال التى كانت تعتمل فى صدر خمارويه يوم خرج إلى دمشق بعد إتمام هذا الزواج بقليل ، وطبيعة الدور الذى كان يتهيأ لأن يقوم به ، فقد وافته المنية ولم يحقق ما أراد تحقيقه من أهداف .

ويكفى خمارويه فخراً رغم ما أنفق وبذل أنه سما إلى ما لم يسم اليه كثيرون من أمراء الدول المعاصرة ، وأنه سعى إلى الاتفاق مع الخلافة وأعطى دولته صفتها الشرعية وضمن لبنيه حقا طبيعيا فى الوراثة وصاهر الخليفة .

وإذا كان أبوه قد نظر إلى الخلافة نظرة التقديس ، وخلع على نفسه لقب مولى أمير المؤمنين ووضع نفسه فى خدمة المعتمد يلبى مطالبه ويدافع عن حقوقه ، فإن خمارويه نظر إلى الخليفة على أنه صهره ونده وعدله .

إذن كانَ خمارويه حفيظا على تراث أحمد بن طولون ، وحد العصبية وصانها من التفرق ، وقاد الجيش فى ميادين الشام كأحسن ما تكـون القيادة ، وأحرز الانتصارات التى أشرنا إليها ، ولم يهمل سياسة الجهاد انما أسهم فيه بنصيب موفور وبسط من رقعة الدولة وسوى مشاكله مع الخلافة فاعترفت به وبأولاده من بعده وأصهر إلى البيت العباسى صاحب الأمر . ولكن هل كان حريصا على اقتصاد البلاد حرص أبيه عليه ؟ هل التزم بوصية أبيه فصان أموال الدولة من الضياع ؟ لقد ترك له أبوه علي نحو ما ورد فى الوصية مليونا وسبعمائة ألف دينار وأوصاه بأن يسخر هذا المال لسد نفقات الجيش ومدافعة الأعداء والدفاع عن الدولة . وبين له أن دخل البلاد يربو على مصروفها وطلب إليه ألا يفرط أو يسرف « فيختل أمرك بخرابه ولا تقبل من ينصح لك بما يؤول إلى خراب بلدك والإجحاف بعامليك [١] » .

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٣٩ .

الحقيقة أن المؤرخين الذين عرضوا لخمارويه لم يفتهم أن يشيروا إلى حياة الترف التى طبعت جميع مظاهر الحياة فى عصره . وأظهروا أن خمارويه الذى ربى فى بحبوحة النعيم مضى فى هذا النعيم إلى الغاية ، وظهر فى مظهر الأمير الذواقة المترف الفنان رقيق الحاشية . يبدو هذا الطابع فى كل ما نسب إليه من أفعال ، فى تحويله الميدان إلى بستان به أنواع الرياحين المزروع فى هيئة نقوش وكتابات والنخل المكسو بالنحاس المذهب ومزاريب الرصاص وبرج النادر من الطيور وفسقية الزئبق ودار السباع ودار الذهب والدكة [١] .

ولم يبد هذا الذوق فى القصر والبستان فحسب ، بل بدا فى حياته الخاصة وفى مواكبه . إذا خرج خرج فى روعة وأبهة « كان طويل القامة يركب فرساً تاماً فيصير كالكوكب إذا أقبل لا يخفى على أحد كأنه قطعة جبل وكان مهيباً ذا سطوة » [٢] . وإذا كان العيد بدا فى أفخم زى متقلداً سيفاً بحمائل [٣] . وكان كلفا بالصيد يخرج إليه فى أوقات الفراغ ، لم يغفل كل ذى طرافة « كانت حلبة السباق فى أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح [٤] » .

وخمارويه الذى لم يبخل على نفسه بنعيم الحياة لم يبخل على الناس فبدا فى صورة الأمير السمح ، كان يغدق على الشعراء ، واختص الشاعر القاسم بن يحيى المريمى بعطائه [٥] ، واتصل به البحترى الشاعر فى دمشق فأحسن إليه وأجزل له العطاء . ويروى المؤرخون أخباراً كثيرة عن كرمه تقرب من القصص ، فيذكر ابن سعيد [٦] أن تاجرا من أغنياء خراسان وفد على دمشق ورأس ماله نحو مائة ألف دينار وعنده من الذخائر ما يليق أن يقدم

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٦ . (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٦ .
(٥) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٦ .
(٦) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٨ .

إلى عظماء السلاطين » فلما استقر بحضرة خمارويه قدم رقعة فيها تسمية ما جاء به من الذخائر إلى خمارويه فلما وقف عليها كان فيها ما استحسنه وفيها ما لا يحتاج إليه ، فقال له خازنه : نأخذ منه ما يحتاج إليه الأمير بما يقدره أرباب التجارة وصرف عليه ما لا يحتاج إليه ، فاغتاظ وقال : هذا فعل مثلك ممن لا تسمو نفسه إلى جسيمات الأمور ومخلدات المكارم وحسن الأحدوثة ، والذى تقتضيه المروءة والهمة أن نأخذ منه ما قدم إلينا ولا ترد عليه منه شيئا ... »

ومن قبيل هذه الأخبار ما يذكره صاحب النجوم [١] من أنه بعد الفراغ من جهاز قطر الندى أحب أن يحاسب ابن الجصاص الموكل بالجهاز ، فتبين أنه قد تبقى لديه أربعمائة ألف دينار فوهبها له ، وإذا كان قد وهبه هذه الأربعمائة ألف دينار فكم أنفق فى تجهيز ابنته ؟ ويفيض أبو المحاسن فى الحديث عن دار الحرم وما يصرفه خمارويه على مطبخه وجواريه فيغرب فى الوصف والخيال [٢] ، ومثل ذلك يقال عن جهاز قطر الندى ، فقد كان هذا الجهاز تحف مصر ونتاج فنها الرفيع محمولا إلى عاصمة الخلافة لإظهار روعة الدولة ورفاهة العصر . والذى لا يكاد يصدق أنه صنع فى مصر وأنه أنفق فيه هذا المال الأمر الذى أثار عجب القضاعى [٣] فقال « وانما ذكرت هذا الخبر ليستدل به على سعة نفس أبى الجيش خمارويه وكثرة ماله وعمارة مصر من ذلك الزمان ! ! لما طلب فيها ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت بأهون سعرى » .

الحق أن خمارويه أعطى صورة تختلف كل الاختلاف عن الصورة التى أعطاها أبوه . كانت حياة أحمد بن طولون يظهر فيها الاقتصاد فى النفقة والتقشف وكانت حياة خمارويه يظهر فيها طابع دور الازدهار من التـــــرف

---

(١) النجوم جـ ٣ ص ٦١ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ .
(٣) نفس المصدر ص ٦٢ .

والنعيم . ولم يفت المؤرخون أن يلاحظوا هذا الفرق الواضح ، روى ابن سعيد [1] « وقلت يوما لعلى بن مهاجر أيهما أوسع نفقة أبو الجيش أو أحمد بن طولون فقال : أبو الجيش أوسع صدراً وأكثر إنفاقاً » ، ثــم روى « أن أبا الجيش فرق كسوة أحمد بن طولون فما خلا ثوب منها من رفـــو أو رقعة » .

ومن الإسراف أن نطلب من خمارويه أن يتقشف كأبيه وأن يحيا الحياة التى كان يحياها ، فيغاير طبائع الأشياء وسنة التطور فى هذه الأسرات التى حفل بها تاريخ العصور الوسطى . فالمؤسس يشقى ويدخر ويؤثل ثم يعقبه جيل يركن إلى حياة الدعة والسلام وينفق ويبذر « ذلك أن الأمة إذا تقلبت وملكت ما بأيدى أهل الملك كثر رياشها فتتأثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته وزينته ... وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون فى ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ولبس الأنيق وركوب الفاره . ويناغى خلفهم فى ذلك سلفهم إلى آخر الدولة ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفهم فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة إلى أن تبلغها بحسب قوتها » [2] .

أحمد بن طولون كان يشترى السلام بالاستعداد الموفور والتربص الدائم وخمارويه اشترى السلام بالمال . أحمد بن طولون مات وهو فى خوف أن تنوشه قوات الخلافة وأن تنال منه قوات الموفق ، وخمارويه أنهى مشاكله جميعها ووطد صلاته بالخلافة ، وركن إلى السلام ليعب من الترف عباً . ولم يكن للحياة الاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر أن تزدهر إلا عن طريق هذا الرخاء وهذه النفقات الواسعة . ويخيل إلينا أن خمارويه لم يكن كما تصـوره

---

(1) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(2) ابن خلدون : المقدمة ١٦٧ .

هذه المراجع بالرجل السفيه الذى يرمى المال رمياً . ولا يمكن أن نستكثر على أمير نشأ فى قصور القطائع أن يحيا مثل هذه الحياة المترفة ، ولا يمكن أن نستكثر على المنافس لبلاط بنى العباس هذا المظهر الفاتن البراق . ولا يمكن أن نستكثر على خمارويه فى سبيل خطب ود الخلافة أن ينفق هذه الأموال فى جهاز ابنته ، فقد كان يفاخر العالم الإسلامى كله فى ذلك الوقت ، ثم كان يعتمد على خراج دولته المترامية الأطراف الممتدة من الفرات إلى برقة ، وكان يقدر أنه لو طال به الأجل لتدارك ما أنفق ولاستغل صلته بالخلافة فيما يعود عليه وعلى دولته بالنفع . ولم يكن يقدر أنه سيقتل فى نشوة النصر وذروة الظفر لتتفرق الدولة من بعده . ويصيبها ما يصيب الدول الطامحة بعد وفاة عظمائها ومشيدى نهضتها .

الباب الرابع

انحلال الدولة وسقوطها
(خلفاء خمارويه)

عهد خمارويه يمثل القمة التى وصلت إليها الدولة الطولونية فى سعة الملك ووفرة الثروة والرخاء [1] . ذلك أنه بعد مصرع خمارويه مباشرة بدا البيت الطولونى وكأنه أفقر من الرجال ، وبدت النظم التى وضعها والده والتى ظلت قوية طيلة ست وعشرين سنة - أعنى منذ سنة ٢٥٦ حتى سنة ٢٨٢ هـ - كأنها على غير أساس ، وأسرعت الدولة حثيثاً نحو الضعف والانحلال ، وتهاوى ملك بنى طولون فى نحو عشر سنوات ، وانتهت تجربة الاستقلال ، وانتكست البلاد وارتدت إلى طاعة الخليفة مباشرة سنة ٢٩٢ .

هذه السنوات العشر (٢٨٢ - ٢٩٢) فى حاجة إلى أن تدرس بعناية وأن تعلل أحداثها تعليلا منطقياً مقبولا ، وأن نتعرف على الأسباب الحقيقية التى أفضت إلى هذه الخاتمة .

هل يرد ذلك إلى ضعف العصبية وفقاً لنظرية ابن خلدون [2] « وأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العز والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنقوه من النعيم وغضارة العيش ، فيصيرون عيالا على الدولة ومن جملة النساء والولدان والمحتاجين للمدافعة عنهم وتسقط العصبية بالجملة ، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلتبسون على الناس فى المشاره والزى وركوب الخيـــل

---

(١) Wiet : L'Egypte arabe p. 105 .

(٢) المقدمة:ص ١٧١ .

وحسن الثقافة ... فإذا جاء المطالب فهم لم يقاوموا مدافعته ، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ، ويستكثر بالموالى ويصطنع من يغنى عن الدولة بعض الغناء ، حتى يأذن الله بانقراضها فتذهب الدولة بما حملت » .

أم نلتمس لتلك الخاتمة أسباباً أخرى .. هل يمكن أن نضيف إلى هذا ما كان من تفرق القيادة وانقسام الأسرة وتناحر أفرادها من أجل السيطرة والنفوذ وتقلد الحكم : أمراء أطفال ضعاف ليس لهم مثل ما كان لمؤسس الدولة من الكفاية والقدرة ، انصرفوا إلى اللهو فأغرقوا فيه ، وتركوا الأمور للطامعين من رجال الدولة وقواد الجيش الذين أفرخت أطماعهم فى ظل الأمراء المستضعفين . وما ترتب على ذلك من تفرق العصبية التى رأيناها سبب القوة والمنعة فى عهد أحمد وخمارويه ، عصبية الموالى والعبيد وأجناد الجيش . فقد كانت وحدة القيادة خير ما يضمن لذلك الشتات من الأجناس أن يندرج تحت طاعة أمير واحد قوى يوازن بين القوى ويوجه العناصر جميعها لتحقق أهدافه والدفاع عن دولته ويشاركها فى المكاسب ويضمن ولاءها بكثرة المال .

وهل يمكن أن نضيف إلى هذا كله أنه فى نفس الوقت الذى تفرقت فيه القيادة وتفتتت العصبية وساءت أوضاع البلاد الداخلية ما كان من فراغ الخلافة من مشاكلها جميعها والصحوة المفاجئة التى صادفتها فى عهد المعتضد والمكتفى ، وما كان من استردادها قوتها ، واستطاعتها أن تجد مطعنا فى الطولونيين المنقسمين الضعفاء ، ثم ما ترتب على ذلك كله من تفتت الامبراطورية التى بناها المؤسس ، وحافظ عليها خليفته ، فضاعت بلاد الشام وبرقة بعد أن عجز القائمون بالأمر عن الدفاع عنها ، وما أدى إليه ذلك من حرمان الخزانة من موارد هذه البلاد ، وما جره هذا الحرمان من إفلاس .

الإجابة الشافية على هذا التساؤل تدعونا إلى دراسة أحداث هذه السنوات العشر فى ضوء الاعتبارات التى ذكرنا ، لنعرف كيف كانت الخاتمة سنة ٢٩٢ هـ .

كان مقتل خمارويه المفاجىء بداية النهاية ، فقد انبعثت النزوات والأطماع والرغبات ، أصبحت مصر مسرحا لأحداث داخلية مفجعة لم تشهدها من قبل ، أحداث عصفت بوحدة الأسرة ، التى كانت سر القوة والعظمة . كان أبطال هذه الأحداث أمراء ضعافا من أبناء خمارويه ، لم يكن الواحد منهم يتجاوز عمره الأربعة عشر عاماً وأعماماً أقوياء قادرين طامعين فى السلطان ، إنما يقعدهم العجز والافتقار إلى الأنصار ، ثم غلمان خمارويه وجنده وقواد جيشه الذين يريدون أن تكون الكلمة الأولى فى الدولة لهم وحدهم .

وقد لعبت هذه الطائفة الأخيرة ونعنى بها طائفة الغلمان والموالى والجند الذين ينتسبون لخمارويه ويدينون له بالفضل الدور الأكبر فى تفتتت وحدة البيت ، وتفريق شمله إرضاء لأطماعهم وتحقيقاً لأهدافهم . يضربون الأبناء بالأعمام ، ويؤليبون هذا الفريق على ذاك ليستبدوا بالأمر ، ويحتفظوا بقوتهم ونفوذهم . وغلمان خمارويه وجنده هؤلاء علت كلمتهم ، ووضح نفوذهم فى أيامه ، ووضح تدخلهم فى الشئون الداخلية للدولة خصوصاً بعد إقرار السلام وتخلصهم من متاعب الحرب وأعباء الكفاح ، وانصرافهم إلى جمع الأموال والإثراء والتطلع إلى الأمور الداخلية ، وكان خمارويه يسكتهم بالعطاء ويستعين بالفقهاء على استرضائهم وإزالة ما بنفوس زعمائهم [1] .

وكان على كل حال يمسك بالزمام ، ويحفظ التوازن بين عناصر الجيش ، فكانت وفاة خمارويه مما أطلق الفتنة من عقالها ، وفتح الباب واسعاً أمام هذه الفئة الطامعة ، وهيأ لها أن تلعب الدور الأول فى أحداث البلاد . وكان هؤلاء أشد الناس حرصاً على ألا ينتقص ما لهم من نفوذ ، أو يحد ما لهم من سلطان . حرصهم على هذا النفوذ هو الذى دفعهم إلى أن يتركوا أبناء أحمد بن طولون ، وكان فيهم ذو الشجاعة والبأس والفطنة ، الذى يملأ الفراغ ، ويصون على الدولة وحدتها ، ولكنهم آثروا أن يبايعوا الأميـــر

---

(١) ملحق الكندى : ص ٥١٨ - ٥١٩ .

« جيش بن خمارويه » ، ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة من عمره بايعوه وهو « صبى لم يؤدبه الزمان ولا محصته التجارب والعرفان » [١] حتى يتاح لهم فى ظل هذا الأمير الطفل أن يستمتعوا بالنفوذ كما طاب لهم .

ولم تقف بهم أطماعهم عند هذا الحد ، بل حرضوا هذا الأمير الطفل على أن يسىء إلى أعمامه فتتحطم الوحدة . وأبو المحاسن [٢] يشير إلى أن بطانة (جيش) بدأت بتحريضه على عمه أبى العشائر فهو الذى رد للدولة هيبتها يوم الطواحين ، ولم تكن هذا البطانة - كما نعتقد - إلا هذه الفئة من زعماء الجند وقادته الذين حملوه على أن يقبض على أعمامه الثلاثة فى دمشق بعد ولايته مباشرة ، وأن يحملهم معه إلى مصر فى الأغلال . والرواية التى نقلها أحمد بن يوسف بن ابراهيم عن ربيعة بن أحمد بن طولون تؤيد هذا القول [٣] ، فقد ظل مضر وشيبان وربيعة فى محبس (جيش) إلى أن قتل وخلفه هارون وأصبحت الدولة الطولونية يتولى أمرها فتى فى الرابعة عشرة من عمره وخيرة رجال البيت بعيدين عن النفوذ ، والجند من شيعة خمارويه يستبدون بالدولة [٤] .

وكان طبيعياً أن ينصرف هذا الفتى « جيش » عن شئون الدولة إلى اللهو والشراب ، وأن يحيط نفسه بطغمة من عابثى العامة ، الذين لم يكن لهم عهد بتقاليد البلاط أو آدابه العامة [٥] ، ويروى ابن سعيد [٦] عن حياته الخاصة وتورطه فى السخرية واللهو ما يدل على تجرده من العقل والحكمة .

---

(١) الكندى : ص ٢٤١ ، النجوم جـ ٣ ص ٨٨ ، ابن سعيد : ص ١٤٣ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ .
(٣) المكافأة ص ١٨٢ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ .
(٥) Les Tulunides p. 135 .
(٦) المغرب ص ١٤٣ .

ولم يكن هذا الانطلاق إلى هذه الحياة العابثة مما يغضب شيعته الذين ولوه ، ولم يكن أحب إلى قلوبهم من إغراقه فى اللهو إلى أبعد الحدود ليترك لهم الأمر دون منازع . ولكن طائفة أخرى من الجند لم يعجبهم انفراد هؤلاء بالنفوذ وهم غلمان أحمد بن طولون ومواليه القدامى ورجاله الذين شاركوه الكفاح ، ولم يكن غضبهم غضباً للدولة ، وما آل إليه أمرها بقدر ما كان غضبهم لأنهم أصبحوا فى المرتبة الثانية فى عهد « جيش » ، هذه الطائفة - على ما نعتقد - هى التى أشعلت نار الفتنة التى أودت بالأمير الصغير .

ولم يكن سخطها جزعا على الأعمام [١] أو غضباً لما نالهم ، بقدر ما كان سخطاً على أفراد الطبقة الأولى من بطانة « جيش » إنما أظهروا الدعوة للأعمام ليكسبوا الأنصار ، ويظهروا فى نظر الكافة بمظهر الذادة عن الدولة المدافعين عنها .

وهذه الفتنة التى اشتعلت فى الجيش الطولونى ربما للمرة الأولى منذ إنشائه فى غاية من الأهمية لأنها تكشف عن هذا الدور المحزن التى قامت به القوات المسلحة فى تفريق الصف والعصف بوحدة البيت ، بعد أن كانت أداة بناء ومظهر قوة . وهى تعطينا صورة للأحداث التى وقعت فى مصر فى هذه الفترة الهامة من تاريخها .

وهى بقدر ما لها من أهمية تحتاج إلى أن نتريث عندها قليلا لنعرض لأسبابها وظروفها ونتائجها . والأخبار التى وردت عنها [٢] فيها الكثير من التناقض والغموض ، فأبو المحاسن [٣] مثلا يأتى بروايتين متناقضتين ، ويعرض لها الكندى [٤] عرضاً عابراً ، ويلم بها ابن الداية [٥] إلمامة خاطفة ، وينقل الطبرى [٦] أخباراً أخرى لا تقل غموضاً عن الأخبار السابقة الأمر الذى يتطلب أن ترتب أحداث هذه الفتنة ترتيباً منطقياً .

---

(١) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 136 .

(٢) المكافأة ١٨٢ - الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٥ - النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ - الكندى : ٢٤٢ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ ، ٩٣ . (٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٢ .

(٥) المكافأة ص ١٨٢ . (٦) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٥ .

على كل حال يكاد يجمع هؤلاء المؤرخون على أن أبناء أحمد بن طولون لم تكن لهم يد فى إشعال هذه الفتنة ، إذ يستفاد مما ذكره ابن الداية [١] أن هؤلاء الأعمام كانوا سجناء قصر « جيش » لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً . ويكادون يجمعون أيضاً على أن الدور الأول قامت به طوائف الجند والقواد ، وإن كنا نعتقد أنهم ليسوا بالطائفة التى بايعت « جيشا » ووقفت إلى جواره وأفادت من عهده ، فما كانت بحاجة إلى أن تثور وقد فازت بكل ما تبغى ، إنما طائفة من غلمان أحمد بن طولون ورجاله القدامى الذين عز عليهم أن يحرموا من المكاسب وأن ينفرد بها سواهم . وإذا كانت الطائفة التى وقفت إلى جانب جيش من السودانيين أو الروم ، فإنه قد وردت فى الطبرى إشارة إلى أن القوات الثائرة كانت من المغاربة والبربر « ... ورد الخبر من مصر أن الجند من المغاربة والبربر وثبوا على جيش بن خمارويه وقالوا : لا نرضى بك أميراً علينا ... [٢] » .

وقد انضمت إلى هؤلاء الثائرين من المغاربة والبربر طائفة أهل الخزر ، والدليل على ذلك ما يذكره صاحب النجوم الزاهرة من أن هذه الثورة تزعمها برمش وهو غلام خزرى « ... لما رأى ذلك من بقى من غلمان أبيه بمصر مشى بعضهم إلى بعض وتشاوروا فى أمره ... وهجم عليهم غلام لأبيه خزرى يقال له برمش [٣] » .

كما يجمع المؤرخون الذين سلفت الإشارة إليهم على أن « جيشا » هذا خلعه الثائرون أولا ، ثم قتلوه ، وأن قتله كان سببا فى إطلاق سراح عميه من سجنهما . فالكندى [٤] يقول « خلع جيش ووقع الاختلاف والشغب ... وثارت الفتنة » .

(١) المكافأة ١٨٢ - أبو المحاسن جـ ٣ ص ٩٤ .
(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٥
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ .
(٤) الولاة والقضاة ص ٢٤٩ ، ٥١٧ .

على كل حال نعتقد أن هذه الفتنة قد اندلعت قبل مصرع « جيش » في جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ هـ ببضعة شهور ، ذلك أن الطبرى [١] يشير في حوادث سنة ٢٨٣ هـ [٢] إلى خروج بعض القواد من مصر ، خروج محمد ابن اسحق بن كنداجيق وخاقان المفلحى ومحمد بن كشمجور ، وبدر بن جف وابن خشنج وغيرهم [٣] ، وهم القواد الذين ظن أنهم خرجوا من مصر حنقا على أوضاعها تبرما بما آلت إليه الأحوال من سوء [٤] . فالطبرى يذكر في وضوح أنهم تآمروا بجيش بن خمارويه وأنه كشف أمرهم ، فلم يجدوا مناصا من القرار . أرادوا أن يفتكوا بجيش بن خمارويه « فسعى بهم إليه ، وكان راكبا وكانوا في موكبه ، وعلموا أنه قد وقف على أمرهم فخرجوا في يومهم وسلكوا البرية وتركوا أموالهم وأهليهم [٥] ... » وإذا كان هؤلاء الثائرون قد أدركوا بغداد في جمادى الآخرة سنة ٢٨٣ [٦] ، فلا بد أنهم غادروا مصر قبل ذلك بشهرين على الأقل أو على الأكثر عقب اكتشافهم وافتضاح أمرهم .

على كل حال بدأت المحاولة الثانية حين اجتمع هؤلاء الساخطون من رجال الجيش الطولونى وجابهوا الأمير بالعدوان السافر ، وطالبوه بالاعتزال ليولوا عمه بدلا منه . ويبدو أنه في ذلك الوقت بالذات حدث ما أشار إليه بعض المؤرخين إذ « قام جيش المذكور من وقته ودخل على عمه مضر وكان في حبسه فضرب عنقه ورمى برأسه إلى الجند وقال خذوا أميركم [٧] » ، ويبدو أن هذا المسلك قد أفضى إلى كثير من العنف ، فقد ذكر أبو المحاسن [٨] أنهم « اجتمعوا على خلعه وركب بعضهم إلى بعض وهجم عليه غلام لأبيه خزرى يقال له برمش ... »

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) Les Tulunides p. 137 .
(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٤ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .
(٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .
(٨) المصدر السابق ص ٩١ .

وامتدت هذه الغضبة إلى المحيطين بالأمير المسئولين عن تسيير الأمور ، امتدت إلى أبى جعفر بن أبىّ أحد رجال خمارويه المقربين ، وامتدت إلى الكاتب على بن أحمد الماذرائى [1] ، قتل الماذرائى ولاذ ابن أبى بأذيال الفرار . وقد دفع هذا المسلك القواد الساخطين إلى معالجة الموقف على نحو آخر ، فقد قرروا عزله من الإمارة ، وإحلال أنفسهم من البيعة التى فى أعناقهم « فلما كان من الغد اجتمع القواد فى مجلس من مجالس دار أبيه وتذاكروا أفعاله فأحضروا معهم عدول البلد ، وأعادوا لهم أخباره ، وقالوا لهم : ما مثل هذا يقلد شيئاً من أمور المسلمين » [2] .

ويبدو أن أنصار جيش والمؤيدين له لم يجدوا مناصا آخر الأمر بعد أن تورط على النحو السابق من أن يتخلوا عنه « لأن جماعة من غلمان أبيه قالوا : لا نقلد غيره حتى يحضر ونسمع قوله فإن وعد برجوع وثاب من فعله أمهلناه وجربناه ، وإن أقر عجزه عن حمل ما حمل وجعلنا فى حل من بيعته بايعنا غيره على يقين وعلى غير إثم [3] ... » ، والكندى يضيف إلى هذه الأخبار قوله أن هؤلاء القواد جمعوا القضاة والفقهاء ووجوه الناس ، وأحضروا هذا الأمير « فتبرأ إليهم من بيعته وحللهم منها وأشهدهم على نفسه بذلك [4] » .

حدث هذا الخلع قبل القبض عليه ، فأبو المحاسن [5] يقول « .. وكان قبل القبض عليه ركبوا إلى أبى جعفر بن أبى ... » . فى هذا الوقت بالذات أعنى بعد هذا الخلع وبعد هذا الاعتراف قتل جيش بن خمارويه ، قال ابن الداية « فلما كان يوم الأحد سمعنا رجة فى الدار وفتح باب الحجرة وأدخل إلينا جيش بن خمارويه فقلنا : ما خبرك ؟ فقال : غلب أخى على أمرى

(١) نفس المصدر والصفحة (٢) نفس المصدر ص ٩١
(٣) نفس المصدر والصفحة
(٤) الكندى:ص ٢٤٢ .
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ .

وتولى إمارة البلد هارون ، فقلنا : الحمد لله الذى قبض يدك وأضرع خدك [1] » . وبعد مصرعه مباشرة أطلق سراح السجينين من أبناء أحمد بن طولون ، واشتد حماس الثائرين فنهبوا داره وأحرقوها [2] ، فانظر إلى الجيش الطولونى يبلغ به الحال هذا الحد ، يعزل الأمير ويحاكمه ويحقره ثم يقتله وينهب داره أو يحرقها ، هذا الجيش الذى كان أداة طيعة فى يد أحمد ابن طولون وخمارويه يوسعان به رقعة الدولة ويكبحان جماح الفتنة ويدفعان به الأعداء .

ويبدو أن أنصار خمارويه الذين أيدوا جيشا ونصروه كانت لا تزال لهم اليد العليا فى شئون البلاد ، وقد رأيناهم فى المجلس الذى عزل جيشا وأحله من البيعة يترددون قبل أن يحضر الأمير ويسمعون منه ما يحلهم من بيعته ، وقد شارك هؤلاء القواد فى بيعة هارون بن خمارويه ، فكأنهم كانوا لا يزالون مصرين على أن يبقى الملك فى بيت خمارويه ، وأن يمعنوا فى سياسة تولية [3] هؤلاء الصبيان الضعفاء ، فلم يكن هارون قد أتم الأربعة عشر ربيعا [4].

ويبدو أيضاً أن أنصار جيش وهارون كانوا يهدفون إلى تحقيق غرضين : أن تكون لهم الكلمة الأولى فى شئون الدولة يصرفونها بصورة أتم مما كان لهم فى عهد جيش ، وأن يقضى على أنصار بنى طولون من أعمام الأمير قضاء تاما فلا تكون لهم كلمة فى أمور البلاد .

وقد نجحوا فى تحقيق الغايتين ، فقد نصبوا من بينهم وصياً على هارون هو أبو جعفر محمد بن أبىّ من كبار رجال ابن طولون [5] ، ومن أقرب

---

(١) المكافأة ص ١٨٢ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ . (٤) نفس المصدر ص ٩٩ .
(٥) ابن الداية : المكافأة : ص ١٥٦ .

الخلصاء إلى قلب خمارويه ، وأحرص الناس على أن يظل السلطان فى بنى خمارويه لا يتجاوزه إلى سواهم وقد شارك ابن أبى فى مغانمة شركاؤه في الجرم من قواد الجيش الطولونى ، بدر الحمامى وفائق وصافى ، وكان كل واحد منهم يسيطر على فريق من الجيش يخضع له خضوعا تاما « ... قبض كل منهم على قطعة من الجيش وحازها لنفسه وجعلها مضافة إليه يطالب عنهم ما يستحقون من رزق وجراية وغيرها وسأل أن يكون ما لهم محمولا إلى داره يتولى هو عطاءهم ، فصار عطاء كل طائفة من الجند إلى دار الذى صارت فى جملته وصاروا له كالغلمان [1] ... » .

واختص كل من هؤلاء القواد نفسه بسلطات إدارية [2] عظيمة ، فهذا بدر الحمامى يتصرف فى شئون بلاد الشام ، يصلح من أمرها كيفما أحب [3] ، جمع بين هذا النفوذ وبين الجاه الواسع والثراء العريض « رجع بدر وأظهر زيا حسنا وأنفق نفقة كثيرة وأصلح [4] ... » ، وفى السنة التالية حج فائق وأنفق أكثر مما أنفق بدر « وكان دأبهم المنافسة فى حسن الزى وبسطة اليد بالإنفاق [5] » . وأصبحت شئون الدولة والحكم قسمة بين ابن أبىّ هذا وبين هذا الثالوث من القواد ، ونسب أبو المحاسن [6] إلى بدر ما ينسب إلى الأمراء وكبار رجال الدولة « فكان الشخص يرى المساكين زمراً في داره فيعطيهم الدراهم واللحم المطبوخ ويكسوهم فى الشتاء الجباب الصوف ويفرق فيهم الأكسية » . ومن الغريب المؤسف أن كلا منهم خان هارون وانضم إلى محمد بن سليمان الكاتب .

وقد تحقق لهم غرض آخر ، فقد ضيقوا على أنصار بنى أحمد بن طولون ونكلوا بهم وشتتوا شملهم ، فما كاد أمر الوصاية على هارون يتم لابن أبىّ حتى طلب إلى ربيعة بن أحمد أن يخرج بعياله من العاصمة ، وأن يقيم فـى

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠١ . (٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤١ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠١ . (٤) النجوم جـ ٣ ص ١٠١ .
(٥) نفس المصدر والصفحة . (٦) نفس المصدر والصفحة .

الإسكندرية منفياً [١] . ويبدو أن ربيعة وإخوته لم يعد لهم من يقف إلى جوارهم أو يؤيدهم ، فقد كتب فريق من الأنصار إلى ربيعة يستدعيه من الإسكندرية ، وأنه « لو كشف وجهه لتبعه أكثر الجيش [٢] » ، وجاء ربيعة فلم يخرج لتأييده أحد ، وظل يقاتل حتى اجتمع له من عسكر هارون من قبض عليه ، وضرب بالسياط حتى فاضت روحه [٣] .

ولم تتحد كلمة هؤلاء القواد الذين فازوا بالنفوذ واغتالوا السلطان وصرفوا شئون الدولة باسم هارون ،فقد أراد محمد بن أبيّ الوصى على هارون أن يكون له الأمر وحده دون شريك من القواد الثلاثة ، ولم يجد فى نفسه من القوة ما يدفعه إلى الجهر بعدائهم ، فعمد إلى الدس والإيقاع ليضرب طائفة بأخرى ليبقى على ما له من نفوذ ، أو ليقضى على ما بقى فى قوات هارون من رمق . وأبو المحاسن يكشف عن الدور المخزى الذى قام به هذا الوصى الطامع حينما أغرى هارون بقائد من قواد جيشه اسمه سيمجور [٤] ، وما زال به حتى قبض عليه وقتل ، وألب الأتراك على الروم ، وأوقع بيرمش زعيم طائفة الخزرية [٥] ، وما زال بالقائد صافى حتى نفى من مصر [٦] ، فلم تتحد لهؤلاء كلمة حتى فى الوقت الذى كانت فيه قوات الخلافة تخترق بلاد الشام فى طريقها إلى مصر .

وقدر للجبهة الداخلية أن تمضى فى السوء إلى نهاية الشوط وقدر للفتنة أن تنبعث مرة أخرى فى أحلك الساعات فى تاريخ الطولونيين لتقود هذه الدولة المتداعية إلى حتفها الأخير . انبعثت الفتنة الثانية فى بلدة «العباسة» على حدود مصر الشرقية والطولونيون يتجمعون لبذل الجهد الأخير للدفاع عن رمقهم وصد قوات الخلافة الزاحفة ، وتحتاج منا هذه الفتنة أيضاً إلى بعض الدراسة لما فيها من مظاهر الانقسام والفساد .

---

(١) النجوم جـ ٣ ص ١٠٠ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٩ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٠ . (٤) نفس المصدر ص ١٠٣ .
(٥) نفس المصدر والصفحة . (٦) نفس المصدر والصفحة .

ومن الغريب أن القوات الطولونية لعبت الدور الأول فى هذه المأساة ، كما لعبت نفس الدور فى المناسبات السابقة ، ولم يكن من المعقول كما يفهم من رواية الكندى [1] وأبى المحاسن . [2] أن يلعب أبناء أحمد بن طولون دوراً بارزاً فى هذه الحلقة الأخيرة من حلقات الصراع على النفوذ ، لأن هارون ابن خمارويه كان قد حمل عميه شيبان وعدى معه إلى معسكر العباسة محبوسين مخفورين مخافة أن يعلنا العصيان منتهزين فرصة انشغاله بمدافعة العدو .

إنما انبعثت الفتنة – على ما أرجح – من نفس القوات المعارضة التى أشعلت نار الفتنة الأولى ، فقد ظلت هذه القوات مستسلمة مستكينة ترقب الفرصة المواتية حتى أتيحت لها فى عام ٢٩٢ . يدل على هذا ما ورد فى ابن سعيد [3] من إشارة إلى مصرع هارون على يد أحد المغاربة إذ قال « آل أمره إلى أن وقعت مخاصمة وعصبية بين أصحابه فرماه أحد المغاربة برمح فقتله [4] » ، وهم نفس المغاربة الذين ثاروا على أخيه « جيش » من قبل وقبضوا عليه . ويستفاد كذلك من رواية أبى المحاسن [5] أن بعض القواد والغلمان الساخطين على ما اقترفه ابن أبىّ وأنصاره من القواد كانوا يترقبون الفرصة المواتية للانتقام . وكان هؤلاء القواد والغلمان من أفراد الطبقة الأخرى المناهضة لابن أبىّ .

وقد انتهز هؤلاء الساخطون فرصة « شرب فيها هارون وثمل وكان آمنا فى مضربه [6] » ، فوثبوا عليه وذبحوه ، فلما تم لهم ما أرادوا نادوا بشيبان ابن طولون أميرا على البلاد .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٧ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٤ – ١٣٥ .
(٣) المغرب ص ١٤٥ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١١١ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .
(٦) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١١١ .

ومما يؤيد ما ذكرناه من اندلاع الفتنة بين الفريق المعارض من رجال الجيش أن أبا جعفر بن أبيّ الوصي ونجيحا الرومي القائد ما كادا يعلمان بما انتهى إليه مصير هارون وتولية شيبان حتى لاذا بأذيال الفرار ، وانضما إلى القوات العباسية الزاحفة للقضاء على الطولونيين ، هكذا قتلت القوات الساخطة الأمير هارون كما قتلوا أخاه جيشاً من قبل .

ولم يكن شيبان بالذى يستطيع أن يقاوم هذا الخطر العباسي المندفع من البر والبحر ، فقد ضعفت القوات الطولونية وتفرق شملها ولم يجد آخر بنى طولون من يقف إلى جواره ، كما كانت الخزانة خاوية والأحوال مضطربة ، ولم يجد مفرا من التسليم ليحمل إلى بغداد أسيرا [١] .

* * *

وقد صحب انتشار وحدة البيت على هذا النحو أمر آخر أشد خطراً ، فقد ضعف الجيش وانحل وتفرق شمله ، هذا الجيش الذى كان العصبية المتماسكة القوية التى اعتمد عليها أحمد بن طولون فى إقامة الدولة ، واعتمد عليها خمارويه فى بسط رقعتها وتوطيد سلطانها . فكانت الدولة فى الحقيقة هى الجيش ، فهو عماد قوتها وسر بقائها ، ونحن نريد أن نتعرف على الأسباب الحقيقية التى أدت إلى ضعف القوات المسلحة وانحلالها .

نعتقد أن افتقار الدولة إلى المال كان من أهم الأسباب التى أدت إلى سخط القوات المسلحة ودفعتها إلى الثورة والعصيان . وكان أحمد بن طولون نفسه شديد الإحساس بأثر المال فى كسب ود الأنصار ، وقد رأيناه لا يدخر وسعا فى إنفاق الأموال على رجاله ، بل رأينا كيف ترك بعد موته رصيداً ضخما لابنه خمارويه ليدفع أعطيات الجند دون توقف . كان ولاء الجند فى

(١) نفس المصدر والصفحة .

تلك الأيام على قدر ما يظفرون به من نفع وعطاء ، وكانت أهم الأسباب التى تؤدى إلى شغب جند الخلافة العباسية قلة المال وعدم انتظام دفع العطاء .

ويبدو أن خمارويه أنفق المال المدخر كله فى كسب ود الخلافة وتجهيز ابنته قطر الندى ، وكانت قلة المال هذه سببا فى أن « تقاعد عن مبايعته جماعة من كبار القواد [1] » ، وكانت هذه المأساة تتكرر فى بيعة كل أمير بعد جيش بن خمارويه ، فقد بويع هارون من غير عطاء للجند وأبو المحاسن يعتبر هذا الأمر « من الغرائب » [2] . ولم يجد شيبان حين أعوزه المال مفرا من مصادرة الأموال ، فاستولى على أموال أم هارون بن خمارويه [3] .

ولم يكن أثر الافتقار إلى المال قاصرا على إسخاط طوائف الجيش وإثارة غضبها ، إنما ترتبت عليه قلة العناية بتدريب الجيش وتسليحه ، هذه العناية التى تحتاج إلى نفقات طائلة ، والتى كانت تكلف أحمد وولده خمارويه نحو تسعمائة ألف دينار فى السنة . ولا ننسى أن انصراف الجيش إلى الفتح والغزو والتوسع فى عهد أحمد بن طولون وخمارويه كان من نحو يشغل أفراد هذه القوات عن الانصراف إلى الأمور الداخلية والتدخل فيها ، وكان من نحو آخر يهيىء لها فرصا طيبة لجمع المال والإكثار منه عن طريق الهبات والأعطيات فى أعقاب النصر وعن طريق الغنائم والأسلاب . أو بمعنى آخر كانت هذه الحروب وسيلة من وسائل الكسب ، فضلا عن إتاحتها فرصا للتدريب والتمرس فى شئون القتال ، فإذا بالدولة تبلغ أقصى اتساعها فى عهد خمارويه ، ويركن الجيش إلى فترة سلام طويلة بعد تسوية المشاكل مع الخلافة . وهذا الانصراف إلى السلام يدفع طوائف الجند إلى التدخل فى الشئون الداخلية ، ويضعف من قدرتها العسكرية . وهناك ما يدل على أن بعض عناصر القوات المسلحة خصوصا بعد مصرع جيش بدأت تنصرف عن

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٩ .
(٣) نفس المصدر ص ١٥٦ .

الجندية إلى الزراعة والتجارة والنزوح إلى الريف بعد أن تجمعت في أيديهم الأموال [1] .

ومن الغريب أن يقال إن العلل التى نخرت فى جسم هذا الجيش وساقته إلى النهاية المحتومة ترجع إلى السياسة التى استنها مؤسس الدولة الأول أحمد بن طولون ، فقد ألف هذا الجيش من عناصر متعددة لا تجمعها إلا رابطة الولاء لسيد واحد ، أو الرغبة فى المشاركة فى مغامراته ومشروعاته وكان التئام هذه العناصر وتوجيهها التوجيه الصالح يتوقف على شخصية الأمير نفسه ، فإذا كان قادراً قوياً أمكنه أن يبسط نفوذه على عناصر الجيش وأن يفيد منها بالقدر الذى يريد ، ولكن المؤسس الأول لم يكن يقدر أن الدولة التى أسسها سيحكمها أمراء ضعاف بل فتيان ينصرفون إلى اللهو أكثر من انصرافهم إلى أمور البلاد . ولم يكن يقدر أن تعبث الفرقة بأسرته على هذا النحو فيقاتل الأبناء الأعمام . إذن ضعف المقاومة ، وتفرق القيادة وافتقار البيت الطولونى إلى الشخصيات التى تملأ الفراغ الذى تركه خمارويه من أهم الأسباب التى أدت إلى عجز القوات المسلحة عن الالتفاف حول أمير واحد قوى قادر ، والتى أدت إلى تفرق شملها وتناحر عناصرها من أجل السيادة والنفوذ . والمؤرخون [1] الذين عرضوا لهذه الحقبة الأخيرة من حياة الطولونيين يقدمون لنا صورة طريفة دقيقة لمراحل هذا الانقسام الذى عصف بوحدة الصف فى الجيش وما تلا ذلك من تناحر العناصر من أجل النفوذ بل من أجل البقاء .

بدأت أولى مراحل الانقسام غداة وفاة خمارويه فى دمشق حينما انقسمت القوات إلى فرقتين ، فرقة تريد أن تبقى الإمارة فى بيت خمارويه [2] إبقاء على النفوذ والسلطان الذى حازته لعلها من الأتراك

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٣ .
(٢) الطبرى – الكندى – أبو المحاسن – ابن الداية – ابن سعيد .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٨ .

والسودانيين ، ولا يبعد أن يكون جنود فرقة « المختارة » التى أنشأها خمارويه قد انضمت إلى زمرة المؤيدين ، وفرقة على رأسها أولئك الضباط المتيقظون الذين استشعروا الخطر فى مبايعة طفل لم يبلغ الرابعة عشرة من عمره ، هذه الجماعة من القواد تقاعدت عن بيعة هذا الأمير ، وكانت تحبذ أن يتولى الأمر أحد القادرين من أبناء أحمد بن طولون [1] ، ولعل هؤلاء قد وقفت فى صفهم طوائف من المغاربة أو الخزرية ، على كل حال رضوا بالأمر الواقع واستسلموا على مضض « إنما كان قيدهم أبوه بجميل أفعاله وكريم مقدماته إليهم » [2] .

وانتهزت طوائف المؤيدين الفرصة واستبدت بالأمر كله فى عهد (جيش) ونالوا ما طاب لهم من سلطان أو نفوذ « اشتملت عليه هذه الطائفة من الجند وحملوه على أمور كرهها عظيم الجند » [3] .

وقد همت فرقة المعارضين بأن تتخلص من جيش على النحو الذى رأيناه فلم تستطع بسبب يقظة المحيطين به من الأنصار ، فكان أن رحل زعماؤها إلى بغداد وفقد الجيش الطولونى هذا الرعيل الأول من بناته الذين اشتركوا فى معارك أحمد وخمارويه [4] .

وطربت الخلافة العباسية لهذا الانشقاق الذى وضح فى صفوف الجيش الذى وقف دون أطماعها زمناً طويلاً ، وكان مظهر هذا الطرب ما رواه الطبرى من ترحيب المعتضد بهم وإيوائه إياهم « فلما قربوا من بغداد خرجت إليهم الوظائف والخيم والطعام ووصلوا إلى المعتضد يوم دخلوا فخلع عليهم [5] .... » . وانتقال هؤلاء إلى بغداد معناه انتقال الخبرات والأسرار والتنظيمات العسكرية الطولونية وانضمامهم إلى جيش الخلافة واشتراكهم فى الحملات المسيرة ضد الطولونيين سيكون من أهم أسباب انتصار الخلافة .

---

(١) نفس المصدر ص ٩٩ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٨٩ .
(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤١ .
(٤) الطبرى : جـ ٨ ص ١٧٤ . (٥) نفس المصدر والصفحة .

ثم وضح هذا الانقسام بصورة أشد خطراً فى آخر العهد (بجيش) بن خمارويه فقد انبعثت الثورة التى عصفت بحكمة من صفوف فرق الجيش المناهضة له بل انضم إلى هؤلاء الساخطين فريق ممن بدأ بتأييده والسير فى ركابه ، الذين أغضبهم ما كان من إحاطته نفسه بطائفة من الشبان العابثين وابتعاده [1] عن رجال السياسة والدين وعدم تقديره لفضلهم ومكانتهم .

وأبو المحاسن [2] صور هذا الانقسام الخطير أبلغ تصوير فى حديثه عن المؤتمر الذى عقده الضباط الثائرون لخلع جيش . وإذا كان جيش قد خلع ثم قتل ونهبت أمواله وانتهكت حرمات بيته إلا أن الكلمة العليا فى البلاد بقيت لذلك الفريق من القوات المسلحة [3] ، الذى وقف بجوار جيش محافظة على تراث خمارويه وحرصاً على ألا يخرج الحكم من أفراد بيته ، الدليل على هذا استطاعتهم مبايعة هارون رغم حداثة سنه وقلة خبرته ، فقد أفلحوا فى انتزاع بيعته ، بل نصبوا من بينهم وصياً عليه هو أبو جعفر بن أبىّ حتى تكون الدولة دولتهم والكلمة كلمتهم والسلطان كله لهم .

وكان معنى هذا اندحار فرق الجيش التى عارضت بيعة (جيش) وشاركت فى مصرعه ، وأحجمت عن بيعة هارون وحرمانها من المشاركة فى أسلاب الدولة ، مظهر هذا الاندحار ما كان من مصرع ربيعة بن طولون ، فإن مصرعه على النحو الذى وضحناه كان معناه اختفاء الفريق الذى عارض وصمد ، فقد قاتل ربيعة دون أن يؤيده أحد حتى القواد الذين كتبوا إليه فى الاسكندرية ، واستدعوه لم يظهر منهم أحد ، فقد آثروا العافية بالاختفاء .

وكانت هذه التطورات عظيمة الأثر فى إضعاف هذا الجيش والقضاء على عنصر من عناصره لعب دوره بتفوق ونجاح ، حتى هذه البقية الباقية من هذا الجيش التى وقفت بجوار جيش ، ثم بجوار أخيه هارون امتدت إليها يد

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٠ .   (٢) نفس المصدر ص ٩١ .

(٣) Les Tulunides p. 135 .

الفرقة فعصفت بها عصفاً ، وقضت على ما بقى فيها من رمق . أراد ابن أبىّ الوصى أن يستبد بالأمر دون سائر شركائه من القواد وأن يسير هارون وفق هواه ، ولم تكن تعنيه وحدة الجيش أو قوته بقدر ما تعنيه ذاتيته وأهدافه ، فبدأ يقرب إليه صغار الضباط « يرضى الأصاغر من القواد ويقلدهم مراتب الغلمان الكبار [1] » ، حتى يكونوا أكثر طاعة له وأكثر اعتمادا عليه ، وأقدر على تحقيق مشروعاته ، فكان هذا تجاهلا للكفاية والخبرة ، وهما عماد القوة فى أى جيش منظم .

وانقسمت هذه الطائفة من أنصار هارون إلى طوائف صغرى تكاد كل طائفة منها أن تكون مستقلة بشئونها تماماً « قبض كل منهم على قطعة من الجيش وحازها لنفسه وجعلها مضافة إليه يطالب عنهم بما يستحقون من رزق وجراية ، فصار عطاء كل طائفة من الجند إلى دار الذى صارت من جملته وصاروا له كالغلمان [2] » .

ومعنى هذا أن الجيش انفرط عقده ، وتفتتت نظمه ، وأصبح لهؤلاء القواد حكومات صغرى داخل الحكومة الطولونية ، ولم تقف بابن أبىّ أطماعه عند حد ، كان يريد أن يحقق ما يريد على أشلاء الجيش ، فعمد إلى ضرب طوائف هذا الجيش بعضها ببعض ، قضى على الخزرية بزعامة برمش ، وأعرى هارون بن خمارويه بالقائد بدر الحمامى [3] ، ونفى القائد صافى إلى بلاد الشام ، فكانت هذه الطائفة المنفية الساخطة عوناً للخلافة سنداً لها فى تحقيق مآربها .

ثم قدر لمأساة تفرق الجيش الطولونى أن تكتمل حلقاتها ، وذلك أن تفرق شمل أنصار هارون بفضل هذا الأمير المستضعف ووصيه ابن أبىّ قد أغرى فلول الطائفة الأخرى بأن ترفع رأسها من جديد ، واستطاعت على هـذا

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٤ . (٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٣ .

النحو الذى عرضنا له أن تصرع هارون وأن تولى شيبان . وتولى شيبان على حطام الجيش فقد انحاز أنصار هارون وعلى رأسهم ابن أبىّ إلى جيوش الخلافة الزاحفة ، وبقى شيبان على رأس ما تبقى من فلول الجيش ليشهد مصرع الدولة وليحمل أسيراً إلى بغداد .

وضحت مأساة هذا الجيش المتهاوى فى لقائه مع القرامطة فى بلاد الشام ، فلم يستطع بقيادة بدر الحمامى أوطغج بن جف أن يصمد فى هذا الصراع طويلا بعد أن سعت إليه الشيخوخة ودب فى أوصاله الانقسام فلقى هذه الهزيمة المنكرة [1] « بذهاب رجاله بقتل من قتل منهم القرمطى » .

ووضحت مأساة هذا الجيش أيضاً فى آخر أيام هارون وهو يرى القواد الذين رباهم جده وأبوه ينضمون إلى عدوه الواحد فى إثر الآخر وهو الضعيف الذى لا يملك من أمر نفسه شيئاً ، فلم يملك إلا أن يكتب إليهم ذليلا منكسراً خاضعاً « كتب لبدر وفائق يستعطفهما ويذكر لهما الحرمة ، وما يجب عليهما من حفظ ذمام الماضين من أبيه وجده وصارت كتبه صادرة إليهم وإلى القواد بذلك » [2] . فأين ذلة هارون هذا من عزة أحمد بن طولون أو قوة ولده خمارويه . ولولا انكسار الجيش الطولونى فى معاركه مع القرامطة ولولا تفرق شمله وتفتت عصبياته بسبب هؤلاء الأمراء الضعاف لما استطاعت الخلافة أن تنال من الطولونيين أو تقضى عليهم فى مثل هذه السهـولة واليسر .

وكانت قوات الخلافة قبل مصرع هارون تقف متريثة مترددة ولم تمض إلى غايتها إلا بعد مصرع هارون وتفرق الجيش وولاية شيبان ، وقدر لمحمد بن سليمان الكاتب على نحو ما سنذكر أن يضع خاتمة لهذا الجيش حينما أمر بأن يذبح فريق من عساكر الطولونيين كما تذبح الأنعام .

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ٢١٣ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٩ .

ويمكننا أن نضيف إلى ما كان من ضعف الأمراء وقلة خبرتهم وتفرق القيادة ثم تفتت القوات المسلحة وضعفها ثم اختفائها أمر ثالث كان له أثر كبير فى التعجيل بنهاية الطولونيين ، وأفاد إلى حد بعيد من عوامل الضعف التى أشرنا إليها أو عرضنا لها ، ونعنى به يقظة الخلافة بعد غفوة ، وصحوتها بعد ضعف ، وإثرائها بعد فقر .

وقد رأينا كيف أنه من أهم الأمور التى مكنت لابن طولون فى مصر وأعانته على أن ينجح فى جهوده لبناء الاستقلال ما عرضنا له من ضعف النظام الخلافى ، وانهيار سلطات الخليفة ، وانشغال هذه الخلافة المتداعية بالفتن التى كان الأتراك يشعلونها بين الحين والحين أو بالثورات الأخرى التى كانت تنشب فى مناطق أخرى من العالم الإسلامى مثل ثورة الزنج .

ومن غريب الاتفاق أن يكون ضعف الخلافة وانشغالها سبباً فى ظهور الدولة الطولونية وقيامها وأن تكون صحوة الخلافة ويقظتها سبباً فى القضاء على دولة بنى طولون بعد وفاة خمارويه بسنوات قلائل .

الحقيقة أن طليعة النهضة الخلافية ظهرت مبكرة نوعا ما أو لعلها بدأت على يد أبى أحمد الموفق أخى الخليفة الذى ولاه السلطان كله لمواجهة مطالب الجند الأتراك ولمواجهة ثورة الزنج ، وإنقاذ الخلافة من الهاوية التى كانت تدفع إليها دفعاً ، وكان أن تولى قيادة الجيش وأسندت إليه الشئون الإدارية فى الكوفة والحجاز واليمن ثم فى بغداد والجزيرة والبصرة والأهواز وفارس وقنسرين والعواصم أعنى أنه جمع فى يده جميع السلطات العسكرية والإدارية فى الدولة .

وقد استطاع الموفق قبل وفاته بقليل أن ينقذ الخلافة مما كان يتهددها أو ينتظرها ، قضى على ثورة الزنج التى استمرت خمسة عشر يوما (٢٥٥ -

.٢٧ هـ) [١] وقضى على العصبيات فى الجيش والولايات ، وصارت له الكلمة العليا بين الأتراك قواداً وجنوداً بعد أن أنهكهم التفكك وقلت بأيديهم الأموال .

وقد رأينا الموفق بعد أن أفاق من متاعبه جميعها يتحرش بمصر فى عهد أحمد بن طولون ، ويعاود هذا التحرش فى عهد خمارويه ولكن حالت دون أطماعهم وحدة القيادة وقوتها ثم وحدة العصبية أو وحدة صفوف الجيش الطولونى التى تجلت فى معارك برقة والشام فى عهد أحمد وخمارويه . واستمرت هذه الدفعة التى وضحت فى أواخر أيام الموفق فى عهد ولده المعتضد الذى شارك أباه حروبه وأعماله الإدارية عندما كان أميرا ، واكتسب خبرات وصفات مكنته من أن يشغل منصب الخلافة بنجاح .

وقد قدر لهذه الصحوة أن تصل إلى الذروة فى عهد المعتضد [٢] الذى ورث دولة مستقرة خالية من المشاكل عامرة بيت المال بعد الإصلاحات الإدارية والمالية التى تمت على يد أبيه ، والذى انفرد بين قادة بنى العباس بالحزم والشجاعة . « كان ظاهر الجبروت وافر العقل شديد الوطأة من أفراد خلفاء بنى العباس وشجعانهم ... كان يقدم على الأسد وحده [٣] ... » .

وامتدت جهوده إلى الجيش بالتدريب والإصلاح ، وبدا الخليفة الجديد على عكس ما ألفناه من عمه المعتمد المتخاذل المتردد .

بدأ هذا الخليفة الجديد يباشر سلطاته الإدارية والعسكرية بنفسه ، وكان يخرج بنفسه على رأس قواته لإخماد الفتن ، وتأديب الخارجين على سلطانه ، مثل خروجه إلى عرب بنى شيبان فى مضاربهم بالجزيرة قرب مدينة الموصل ،

---

(١) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٠٤ .
(٢) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى ص ١٠٥ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٢٣ .

ومحاربتهم وقضائه عليهم وإفنائهم [١] ، ومثل خروجه إلى قلعة ماردين للقضاء على حمدان بن حمدون جد الحمدانيين ومحاصرته لقلعته حتى استسلمت ، وحمل ما فيها من متاع وسلاح ، أو مثل ما سنراه أو ما سنعرض له من تدخل فى مناطق الثغور ببلاد الشام وخروجه إلى المصيصة بنفسه متابعة لحركة الجهاد .

وبدأت الخلافة فى عهد المعتضد تنفث حقدها القديم على استقلال مصر الطارف وتتربص الفرصة المواتية . يظهر موقف الخليفة المعتضد من بنى طولون فى مصر من ترحيبه بالقواد الخارجين عليها ، ومن توليتهم الوظائف ومنحهم الخلع والأعطيات .

وكان المعتضد قادرا على أن يحقق ما تمناه أبوه من قضاء على الطولونيين ووأد الحركة الاستقلالية لولا بقية من وفاء ، وفاء للعهد الذى منحه لخمارويه قبل أن يغتال فى بلاد الشام ، ثم وفاء لزوجه قطر الندى بنت خمارويه وكان وفيا لها إلى أبعد الحدود حريصا على إرضائها ، ولم يكشف عن نياته العدوانية سافرة إلا بعد وفاة قطر الندى .

واستمرت هذه الصحوة فى أتم صورها فى عهد الخليفة المكتفى [٢] ، ولم يكن عهده انتكاسة أو رجعة إلى الماضى ، إنما تجمعت له قدرات لا تقل عن القدرات التى تجمعت لأبيه من قبل ، يشهد بهذا تنظيمه للقوات العباسية بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، وإغداقه الأعطيات عليها حتى أطلق للجند فى دفعة واحدة مائة ألف دينار [٣] ، وخروجه بنفسه على رأس عسكره إلى مضاربه بباب الشماسية ، ومعه قواده وغلمانه ، وتهيؤه للقضاء على خطر القرامطة [٤] .

---

(١) محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة ص ١٠٤ .
(٢) بخلاف ما ينتهى إليه الدكتور حلمى ص ١٠٦ .
(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ٢٢١ . (٤) نفس المصدر والصفحة .

وليس أدل على أن المكتفى لم يكن دون أبيه أو جده قدرة وكفاية من أنه قضى على خطر القرامطة فى بلاد الشام ، وكان أفدح من خطر الزنج ، الذى ظل جده يدفعه نحو خمسة عشر عاما ، أو مثل استرداده بلاد الشام كلها ، وقضائه على الطولونيين وفتحه مصر ، وهو أمر قعد الموفق والمعتضد عن تحقيقه .

هذه الظروف كلها مجتمعة ، وضعف الأمراء الطولونيين وتفرق شمل الجيش ثم صحوة الخلافة وتخلصها من متاعبها واستردادها قوتها كانت سببا فى القضاء على نفوذ الطولونيين نهائيا . بدأت أولى مراحل هذا القضاء بضياع بلاد الشام ومنطقة الثغور ثم ضياع مصر نهائيا ، ونحن نريد أن نعرف كيف ضاعت بلاد الشام ؟ وكيف قضى على الطولونيين بمصر ؟

بدأت أولى مظاهر الاختلال فى بلاد الشام عقب بيعة جيش بن خمارويه مباشرة ، ويبدو أن مظاهر السخط التى فشت بين القوات المسلحة فى مصر وما كان من استنكار بعض قادة الجيش لبيعة هذا الأمير الطفل قد امتدت إلى بلاد الشام ، وكبر على الولاة وكبار القواد هناك أن يخضعوا لمثل هذا الأمير الصغير ، وكانت أعمال جيش فى مصر ونزواته ، ونزوات المحيطين به من العابثين والطامعين تزيد فى تذمر ولاة الشام .

وكان من أشد هؤلاء الولاة تذمراً وسخطا طغج بن جف الذى كان يلى دمشق وطبرية فى عهد خمارويه [1] ، فلم يبايع جيشا ولم يظهر الخضوع له ويبدو أنه كان من رأى الواعين من قواد الجيش الذين كانوا يطالبون بولاية الناضجين من الأعمام ، وبقى يحكم ما بيده من أعمال ، لا يظهر طاعته ولا يهتم بدعوته ، أو يذكر الأمير الشرعى فى الخطبة . فكان خروجه على هذا النحو من النذر الخطيرة التى لاحت فى هذه الفترة من حياة الطولونيين ،

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٤٩ .

فتحت إمرته قوات طولونية عظيمة ، وبيده من أموال بلاد الشام الشـــىء الكثير [١] . ولا ننكر أن بلاد الشام شهدت خروجا مماثلا فى عهد أحمد حين انضم لؤلؤ إلى الموفق وخرج الواسطى على خمارويه ، غير أن هذا الخروج تم والدولة فى عنفوان قوتها قادرة على مداركة الأمر ، وقد استطاع كل من أحمد وولده خمارويه أن يقضيا على هؤلاء الخوارج وأن يعيدا للدولـة وحدتها . ولكن (جيش) أمير مصر العابث كان يرى هذه الأحداث « فلم يكربه ذلك ولا استشنعه ولا رئى له فى وجهه أثر [٢] » ، فقد كان غارقا فى عالم اللهو والمجون .

وكان طغج يمعن فى خروجه كلما أمعنت أحوال مصر فى عهد جيش فى سوئها وبقى الأمر على هذه الحال حتى قتل جيش على نحو ما ذكرنا وخلفه أخوه هارون ، ولم تكن الدولة الضعيفة بقادرة على أن تواجه هذه الأمور مواجهة القوى فتعيد للدولة تماسكها ، إنما كانت معالجتها لهذه الأمور معالجة الضعيف ، فلم يجد أولو الأمر فى عهد هارون بدا من الاعتراف بالأمر الواقع ، وخرج القائد بدرالحمامى ومعه الكاتب الحسين بن أحمد الماذرائى ليساوما طغج على أن يبقى له نفوذه فى ولايته كاملا على شرط أن يعلن طاعته لهارون وأن يبايعه « واستخلفوه على دمشق من قبل هارون وقرروا جميع أعمال الشامات [٣] » ، ثم عادا إلى مصر وطغج حيث هو من القوة والنفوذ .

ولم تكن منطقة الثغور لترضى أن تذعن لأمير طفل فى وقت استعصت فيه على أحمد بن طولون وخمارويه ، فأبى أحمد بن طغان عامل الثغور أن يستجيب لبيعة (جيش) [٤] ، كما أصر راغب خليفته على ألا يبايع هارون [٥] ، ووقف الطولونيون إزاء هذا لا يحركون ساكنا ، وما كـــــان

---

(١) الكندى : ٢٤٢ ، ابن سعيد ص ١٤٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩٩ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٩١ . (٣) نفس المصدر ص ١٠١

(٤) Les Tulunides p. 136 . (٥) Ibid p. 140.

باستطاعتهم أن يردوا هذه البلاد لطاعتهم فى وقت لم تكن لهم على ولايات الشام الأخرى إلا طاعة اسمية .

ثم ظهرت على مسرح الأحداث قوة لم يحسب لها الطولونيون الأواخر حسابا ، بينما كان أحمد بن طولون وخمارويه يعملان لها ألف حساب ، وينفقان الجهد العظيم لدفع خطرها واتقاء عدوانها ، ونعنى بها قوة الخلافة . فقد بدأت فى هذا الوقت تتعاون مع عناصر الخروج الأخرى ، وتتدخل فى بلاد الشام وفى شئون الطولونيين الداخلية . وتدخل الخلافة هنا عظيم الأهمية ، فهو من ناحية مظهر لما توفر للخلافة فى هذا الوقت من قوة وسلطان ، وهو من ناحية أخرى مقدمة للتدخل الأعظم فى شئون مصر نفسها .

ونحن نريد أن ندرس بعناية خطوط هذا التدخل منذ وفاة خمارويه حتى سنة ٢٩٢ ، فمعالم هذا التدخل غير واضحة فيما ذكره المؤرخون القدامى [١] أو المحدثون [٢] . ويخيل إلينا أن الخلافة اعترفت أول الأمر بجيش بن خمارويه بعد بيعته مباشرة ، ونعتقد أنها منحت جيشاً كل الحقوق التى كانت لأبيه ، ولم تشر المراجع إلى نقض المعتضد للمعاهدة التى أبرمها مع خمارويه [٣] ، ونعتقد أن محافظة المعتضد على هذا الميثاق القديم كانت بسبب نفوذ قطر الندى أخت « جيش » وما كان لها من مكانة عند الخليفة ، ولأن الخلافة لم تكن قد تهيأت بعد للإطاحة بملك الطولونيين نهائياً .

على كل حال بدأ الخليفة بعد وفاة خمارويه يتدخل فى شئون الطولونيين تدخلا سلبيا ، وضح هذا التدخل فى تشجيع الخليفة للقواد الذين تآمروا على

---

(١) الكندى - الطبرى - أبو المحاسن - ابن سعيد - ابن الداية - المقريزى .

(٢) Zaky Hassan : Les Tulunides p. 136 .

(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٥ - ١٩٩ .

أمير مصر وحاولوا خلعه ، ثم لاذوا بالفرار ، وفى توليتهم الوظائف وتقديم الهبات والخلع . ثم كان مصرع جيش والفتنة التى سبقته وأفضت إليه . وكانت نهاية جيش بن خمارويه ذات أثر واضح فى موقف الخليفة ، فقد بدأ منذ تلك اللحظة يتدخل فى شئون الطولونيين تدخلا سافراً ، تدخلا إيجابيا .

ونعتقد أن الخليفة المعتضد لم يعترف بهارون بن خمارويه كما اعترف بجيش ولم يمنحه نفس الحقوق التى منحها لسلفه ، وأنه نقض المعاهدة التى أبرمها مع خمارويه . والدليل على هذا فى غاية الوضوح ، إذ المعروف مما ورد فى الطبرى أن اعترافه بهارون عقب المعاهدة الجديدة التى عقدت لم يتم إلا سنة ٢٨٦ هـ ، فى حين أن هارون تمت له البيعة سنة ٢٨٣ . ومعنى هذا أنه ظل ثلاث سنوات لا يعترف به ولا يقره على حقوقه ، ثم صدور معاهدة جديدة كان معناه أن المعاهدة القديمة لم تكن قائمة ، إنما نقضت . وواضح من النصوص التى وردت فى الطبرى [١] أن الخليفة الذى نقض الشروط القديمة كان يملى شروطاً أخرى جديدة تلائم حالة الضعف والانهيار التى تفشت فى ملك الطولونيين .

وكان من علامات عدم اعتراف الخليفة فى هذه الفترة الممتدة من سنة ٢٨٣ حتى سنة ٢٨٦ تدخل هذا الخليفة فى شئون الدولة الطولونية تدخلا مباشراً .

وكانت أولى مراحل هذا التدخل إصغاءه إلى مطالب أهل طرسوس ، فقد قدمت وفودهم تطلب منه العناية بشئونهم ، وضبط [٢] أمور ثغرهم ، وتعيين من يقودهم فى معركة الكفاح مع البيزنطيين . ويبدو أن الخليفة ارتضى هذه التبعية وبدأ يعنى بمدافعة البيزنطيين وبشئون هذا الثغر .

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٢ .

(٢) الطبرى : جـ ٧ ص ١٨١ .

وتطلع الخيفة بعد هذا كله إلى منطقة الجزيرة وأعالى الفرات ، ويبدو مما ورد فى الطبرى أن الخليفة اقتطع هذه البلاد من ملك الطولونيين ، وأن المعتضد أرسل مولاه فاتكا « للنظر فى أمور العمال بالموصل وديار ربيعة وديار مضر والثغور الشامية والجزرية ، وإصلاح الأمور بها إلى ما كان يتقلده من أعمال البريد بهذه النواحى [1] » فكأن هذه البلاد أصبحت تابعة للخليفة تبعية مطلقة ، ينظر فى أمور عمالها ويتصرف فيها تصرفا كاملا .

ويبدو أن الخليفة المعتضد تعزيزاً لهذه الجهود خرج بنفسه إلى مدينة آمد لمتابعة هذه الجهود [2] ، وقد فزع الطولونيون لهذا كله أشد الفزع ، وعرفوا ما وراءه وأحسوا أنه مقدمة لتدخل أعظم فى وقت تزعزع فيه سلطانهم فى مصر نفسها .

وقد واجهوا الموقف الجديد مواجهة تختلف عما ألفناه من أحمد بن طولون وخمارويه . كان هؤلاء يواجهون الموقف بالقوة والاستعداد الموفور وخوض المعارك إذا لزم الأمر ، وبذل المال إذا لم يكن من بذله بد ، أما هارون وشيعته فانهم واجهوا التطورات مواجهة المستخذى الذليل .

يتبين هذا الموقف الذليل من جانب الطولونيين ، وموقف القوة من جانب الخليفة من المعاهدة الجديدة التى عقدت سنة ٢٨٦ [3] هـ ومن نصوصها التى

---

(١) نفس المصدر ص ١٩٣ .

(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٥ .

(٣) ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٨٦ ما نصه:« وفى سنة ٢٨٦ انصرف عبد الله بن الفتح إلى المعتضد وهو مقيم بآمد من مصر بأجوبة كثيرة إلى هارون بن خمارويه وأعلمه أن هارون قد بذل أن يسلم أعمال قنسرين والعواصم ويحمل إلى بيت المال ببغداد فى كل سنة ٤٥٠ ألف دينار وأنه يسأل أن يجدد له ولايته على مصر والشام وأن يوجه المعتضد بخادم من خدمه إليه بذلك ، فأجابه إلى ما سأل وأنفذ إليه بدر القدامى وعبد الله بن الفتح بالولاية والخلع ، فخرج من آمد إلى مصر بذلك وتسلم عمال المعتضد أعمال قنسرين والعواصم من أصحاب هارون فى جمادى الأولى وأقام المعتضد بآمد بقية جمادى الأولى وثلاثة وعشرين يوما من جمادى الآخرة ، ثم ارتحل فى يوم السبت لسبع بقين منها نحو الرقة وخلف ابنه عليا بآمد مع جيوش ضمهم إليه لضبط الناحية وأعمال قنسرين والعواصم وديار ربيعة وديار مضر . وكان كاتب على بن المعتضد يومئذ الحسين بن عمرو النصرانى » . انظر الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٧ .

تنطق بالمهانة . كان الطولونيون البادئون بالاتصال بالخليفة فى مقر قيادته فى مدينة آمد والطبرى يصور موقفهم الضعيف بقوله « وجه هارون بن خمارويه ومن معه من قواد المصريين إلى المعتضد ... يسألونه [١] » ، ألم تكن هذه المسألة استجداء ؟ ولم يترك هارون وبطانته وسيلة للاستجداء إلا توسلوا بها وقام بالسفارة بينهم وبين الخليفة رجل يسمى وصيف قاطرميز وآخر يسمى عبد الله بن الفتح [٢] ، وواضح من أخبار هذه السفارة أن الخليفة كان صاحب اليد العليا ، وأنه كان يتردد ويعرض ويملى الشروط التى يريد « فقدم وصيف بغداد فرده المعتضد ووجه معه عبد الله ليشافههم برسائل ويشترط عليهم شروطا [٣] » . أصبحت الخلافة تشترط الشروط بعد أن كانت تملى عليها الشروط .

ويبدو أن هارون بدأ أول الأمر بالمطالبة بتجديد العقد القديم ، وأن يمنح ما منحه جيش حين سأل الخليفة « عما فى أيديهم من مصر والشام (وأن) يجرى هارون على ما كان يجرى عليه أبوه [٤] .. » ، فلم يقبل المعتضد ، وكان حرياً به ألا يفعل ، إذ كيف يعترف بإمارة هذا حالها من الضعف والهوان . ثم تبودلت السفارات ورضى هارون بما أملاه المعتضد وما فرضه ، رضى بالأمر الواقع ، وما كان له أن يرضى بسواه ، فقد رضى أن يسلم للخليفة بما استولى عليه من أعمال قنسرين والعواصم ومن ديار ربيعة وديار مضر « وتسلم عمال المعتضد أعمال قنسرين والعواصم من أصحاب هارون [٥] » . ووافق هارون على أن يدفع للخليفة ٤٥٠ ألف دينار كل سنة [٦] ، فكأنه اعترف بضياع هذا الجزء الهام من أملاك الطولونيين ويدفع هذا المبلغ فى الوقت الذى لم يكن يجد فيه مالاً يدفع منه عطاء الجند .

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٥
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٥
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) الطبرى : جـ ٨ ص ١٩٦
(٦) نفس المصدر ص ١٩٦ .

بل يبدو أن هارون هذا قبل ما هو أبلغ دلالة على ضعف الطولونيين وتخبطهم ، فقد رضى أن تكون للخليفة وصاية على أمور مصر الداخلية ، وهذا أمر جديد حقاً ، ومن غريب الأمر أنه لم ترد عنه إلا إشارة عابرة فيما كتبه الطبرى فقد ذكر « أنه يسأل أن يجدد له ولايته على مصر والشام وأن يوجه المعتضد بخادم من خدمه إليه بذلك فأجابه إلى ما سأل وأنفذ إليه بدراً القدامى [1] » . غير أن الدكتور زكى حسن يزيد هذا الأمر وضوحاً بقوله : « إن الخليفة أصر على أن تصدر جميع الأوامر الإدارية فى مصر باسم بدر وأن يصبح والى مصر فى المرتبة الثانية ، وقد عزز هذا الرأى بإشارته إلى بردية درسها Karabacek وأظهر أنها تعترف لبدر بهذه المكانة [2] » .

ونعتقد أن الخليفة ما كان له أن يرضى بهارون هذا أميراً من قبله لولا نفوذ الوسطاء ونفوذ قطر الندى التى ماتت بعد توقيع هذه المعاهدة بنحو سنة .

ويبدو أن هذه المعاهدة أعطت قوات الخليفة حرية العمل فى بلاد الشام ، يدل على هذا ما يرويه الطبرى فى حوادث سنة ٢٨٧ [3] من خروج الخليفة المعتضد بنفسه لضبط الثغور وإصلاحها من ارتحاله من مضربه بباب الشماسية ومن دخوله مدينة المعيصة حتى خرج للقائه وجوه أهل الثغر

---

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ٢٠٨ . (٢) Les Tulunides p. 142 .

(٣) ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٨٧ ما نصه « ولأربع عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٨٧ نزل المعتضد كنيسة السوداء فى طلب وصيف الخادم فأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء حتى تلاحق به الناس وأراد الرحيل فى طريق المصيصة فأتته العيون أن الخادم يريد عين زربة فأحضر الركاضة الثغريين وأهل الخبرة فسألهم عن أقصر الطريق إلى عين زربة فقطعوا به جيحان غداة الخميس لسبع عشرة خلت من ذى القعدة فقدم ابنه عليا ومعه الحسن بن على وأتبعه بجعفر ابن سعد ثم اتبع جعفرا محمد بن كشمجور ثم أتبعه خاقان المفلحى ثم مؤنس الخادم ثم مؤنس الخازن ثم مضى فى آثارهم مع غلمان الحجر ومر بعين زربة وضرب له بها مضرب ... وكان نزول المعتضد بالمصيصة فيما قبل يوم الأحد لعشر بقين من ذى القعدة ، فأقام بها إلى الأحد الآخر وكتب إلى وجوه أهل طرسوس فى المصير إليه فأقبلوا إليه .. ورحل المعتضد فيما قيل من المصيصة فنزل فندق الحسين ثم الإسكندرية ثم بغراس ثم أنطاكية لليلتين خلتا من ذى الحجة فأقام بها إلى أن نحر وبكر فى ثانى النحر بالرحيل فنزل ارتاح ثم الأثارب ثم حلب ، فأقام بها يومين ثم رحل إلى الناعورة ثم إلى خساف وصفين ... ثم إلى بالس ثم إلى دوسر »

ولم نعهد خليفة من خلفاء ذلك العصر يخرج على هذا النحو أو يقوم بهذا الجهد الحربى العظيم . انظر : الطبرى جـ ٨ ص ٢٠٣ .

وزعماؤه ، وولى من قبله الحسن بن على ثم رحل إلى حلب ثم عاد إلى بغداد .

ثم ظهر عامل جديد قدر له أن يقضى على ما بقى للطولونيين من رمق بموجب هذه المعاهدة أو هيبة فى النفوس وأن يعلى كلمة الخلافة ويظهرها بمظهر المنقذ للعالم الإسلامى ، وأن يحلها من أية معاهدة مع مصر ، بل يعطيها سنداً شرعيا لغزو هذه البلاد واستئصال الطولونيين منها ، هذا العامل الجديد هو ظهور خطر القرامطة ، ولا يعنينا أمر القرامطة إلا من حيث أثرهم فى الطرفين المتعاديين : الخلافة من ناحية والطولونيون من ناحية أخرى .

ظهر القرامطة على مسرح الأحداث حول سنة ٢٧٧ ، أعنى بعد القضاء على ثورة الزنج بنحو سبع سنوات ، وكان ظهورهم فى منطقة واسط ، فى نفس المنطقة التى انبعثت منها ثورة الزنج [١] . ولم يكن القرامطة يختلفون عن الفرق الأخرى التى ظهرت من قبل من حيث كونها دعوة دينية لبست لبوساً سياسياً معينا لتحقيق أهداف واضحة ، فقد ادعى صاحب دعوة القرامطة نسباً علوياً [٢] ، فزعم أنه عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق ، فهو كان يظهر المطالبة بحقوق العلويين فى الخلافة ، ثم كانت دعوته من ناحية أخرى تنزع نزوعاً اجتماعياً اقتصادياً ، تنزع نحو المساواة ونحو شيوع الثروة وتجمع بين تعاليم الخوارج والزنج [٣] ، وأظهرت هؤلاء الناس أنها تنبع من ثقافة عميقة واسعة ، ومن دراسة لأدواء العصر وعلله ومساوئه ، وامتاز منظموها ومعتنقوها بالقدرة الدقيقة على التنظيم الذى يكفل لهم النجاح ، وبأهدافهم الاشتراكية البراقة التى تجذب التعساء والمحرومين والخارجين والناقمين [٤] .

ثم بدأ هذا الخطر الجديد يتشوف إلى بلاد الشام ، بعد اتصال القرامطة ببنى الليث ، وهم من العرب البدو الذين يقطنون بادية الشام « وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة فيما بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وغيرها ...فأرسل ذكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم [٥] ».

---

(١) Les Tulunides p. 142 . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٦ - ١٠٧ .
(٣) Wiet : L'Egypte arabe, p. 106 .
(٤) Wiet: L'Egypte arabe pp. 105-106 . (٥) الطبرى : جـ ٨ ص ٢١٤.

ونفذوا من إقليم الجزيرة إلى بلاد الشام ، وقد وجدوا فى أمورها السياسية المضطربة وأحوالها الاقتصادية السيئة مرتعاً خصباً لمبادئهم وميداناً لعدوانهم ، ثم استفحل خطرهم بعد انتصارهم على سبك الديلمى مولى المعتضد بالله بناحية الرصافة فى غرب الفرات [1] من ديار مضر . وكان ظهور هؤلاء الناس فى بلاد الشام فى هذا الوقت بالذات أعنى سنة ٢٨٩ عظيم الأثر فى تطور الأحداث فى السنوات التالية ، وعظيم الأثر فى التطورات التى أفضت إلى القضاء على الطولونيين ، فقد هاجموا أملاك الطولونيين فى الوقت الذى تفرق فيه شملهم وضعف نظامهم الحربى ووضحت الفرقة فى صفوف أمرائهم . فبدأوا بمنطقة دمشق والالتحام بطغج بن جف الذى صارت إليه أمور الشام منذ عهد جيش ، فلم يستطع والى دمشق أن يوقف تقدمهم . ولم تستطع القوات الطولونية التى يقودها طغج أن تصمد فى وجههم ، هذه القوات التى وقفت يوما فى وجه الموفق والمعتضد ، ثم حاول الأمير الطولونى المتخاذل الضعيف أن يبذل جهداً أخيراً لإنقاذ دولته المتداعية [2] ، وخرج بدر الحمامى وجماعة من القواد ومعهم قوات كثيرة ، ولم يكن مقدراً لهذه القوات أن تنتصر فقد لقيت نفس المصير [3] .

وكانت هزيمة لها ما وراءها ، فقد وضحت شيخوخة الجيش الطولونى ، وبان عجزه وضاعت هيبة الطولونيين فى نفوس الناس ، « وقتل من قواد المصريين وفرسانهم خلق كثير [4] » . ووضح للناس أن الطولونيين عجزوا عن حماية أهل الشام من هذا الخطر الدامى الذى انطلق فى البلاد دون قيد ، إذ دخل القرامطة دمشق واستولوا على حماة ومعرة النعمان وبعلبك [5] . ولما تهاوى الطولونيون على هذا النحو ، وتفرق شمل جيشهم ، لم يجد الناس بدا من الاستنجاد بالقوة النامية ، قوة الخلافة « فكتب طغج إلـــــى بغداد

(١) الطبرى : جـ ٨ ص ٢١٤ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠٤ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٥ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

مستنجدا [١] » . وتعالت صيحات الناس بطلب النجدة من الخلافة لإنقاذهم من الخطر [٢] .

وكانت الخلافة تنتظر الفرصة المواتية لإثبات وجودها فى عهد المكتفى وتأكيد مكاسبها فى بلاد الشام وإمعاناً فى إظهار ضعف الطولونيين « كان الخليفة المكتفى متيقظاً فى هذه الحال يرى الاتفاق عليه سهلا ويقول : المبادرة فى هذا أولى » [٣] .

وبدأ الخليفة المكتفى يستعد للملحمة القادمة سنة ٢٩٠ ، أعد الجند « أطلق لهم فى دفعة واحدة مائة ألف دينار [٤] » . ثم تجمعت هذه القوات عند باب الشماسية حيث خرج الخليفة ليشرف على هذه الاستعدادات وليظهر اهتمامه بذلك الصراع الوشيك ، وولى محمد بن سليمان الكاتب قيادة هذا الجيش [٥] ، واستطاعت قوات الخليفة أن تحرز على القرامطة نصرا مثل نصرها على الزنج من قبل ، فقد التقى بهم محمد بن سليمان قرب حمـــاة وهزمهم واستأصلهم [٦] ، ووضع حدا لخطرهم [٧] فى بلاد الشام ، وحمل زعيمهم ونفرا من أصحابه أسرى إلى العراق .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٥٠ .
(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ٢١٣ .
(٣) الطبرى : جـ ٨ ص ١٠٥ .
(٤) الطبرى : جـ ٨ ص ٢٢١ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٢١ .
(٦) Les Tulunides p. 145 .
(٧) انظر الطبرى:جـ ٨ ص ٢٢٦ – ٢٢٨ « وكتب محمد بن سليمان إلى الوزير بالفتح « بسم الله الرحمن الرحيم . قد تقدمت كتبى إلى الوزير أعزه الله فى خبر القرمطى اللعين وأشياعه بما أرجو أن يكون قد وصل إن شاء الله . ولما كان فى يوم الثلاثاء لست ليال خلون من المحرم رحلت من الموضع المعروف بالقرواتة نحو موضع يعرف بالعلياتة فى جميع العسكر من الأولياء وزحفنا بهم على مراتبهم فى القلب والميمنة والميسرة وغير ذلك فلم أبعد أن وافانى الخبر بأن الكافر القرمطى أنفذ النعمان بن أخى إسماعيل بن النعمان أحد دعاته فى ثلاثة آلاف فارس وخلق من الرجالة وأنه نزل بموضع يعرف بتمنع بينه وبين حماة اثنا عشر ميلا فاجتمع إليه جميع من كان بمعرة النعمان وبناحية العصيصى وسائر النواحى من الفرسان والرجالة فأسررت ذلك عن القواد والناس جميعا ولم أظهره . وسألت الدليل الذى كان معى عن هذا الموضع وكم بيننا وبينه فذكر أنه ستة
=

أميال فتوكلت على الله بعز وجل وتقدمت إليه فى المسير نحوه فمال بالناس جميعاً وسرنا حتى وافيت الكفرة فوجدتهم على تعبية ورأينا طلائعهم ، فلما نظروا إلينا مقبلين زحفوا نحونا وسرنا إليهم فافترقوا ستة كراديس ، وجعلوا على ميسرتهم مسروراً العليصى وأبا الجمل ... وزاحف النعمان ومن معه فى القلب إلينا فحملت ومن معى وكنت بين القلب والميمنة وحمل خاقان ونصر القشورى ومحمد بن كشمجور ومن كان معهم من الميمنة ووصيف موشكير ومحمد بن إسحق بن كنداجيق وابنا كيغلغ والمبارك القمر وربيعة بن محمد ومهاجر بن طليق والمظفر بن حاج وعبد الله بن حمدان وحى الكبير ووصيف البكتمرى وبشر البكتمرى ومحمد بن قراطغان وكان فى جناح الميمنة جميع من حمل على من فى القلب ومن انقطع ممن كان حمل على الحسين بن حمدان ، فلم يزالوا يقتلون الكفار فرسانهم ورجالتهم حتى قتلوا أكثر من خمسة أميال ، ولما أن تجاوزت المصاف بنصف ميل خفت أن يكون من الكفار مكيدة فى الاحتيال على الرجالة والسواد فوقفت إلى أن لحقونى وجمعتهم وجمعت الناس إلى وبين يدى المطرد المبارك مطرد أمير المؤمنين وقد حملت فى الوقت الأول وحمل الناس ولم يزل عيسى النوشرى ضابطا للسواد من مصاف خلفهم مع فرسانه ورجالته على ما رسمته له لم يزل فى موضعه إلى أن رجع الناس جميعاً إلى من كل موضع وضربت مضربى فى الموضع الذى وقفت فيه حتى نزل الناس جميعا ولم أزل واقفاً إلى أن صليت المغرب حتى استقر العسكر بأهله ووجهت فى الطلائع ثم نزلت وأكثرت حمداً لله على ما هنأنا به من النصر ولم يبق أحد من قواد أمير المؤمنين وغلمانه ولا العجم وغيرهم غاية فى نصر هذه الدولة المباركة فى المناصحة لها إلا بلغوها بارك الله عليهم جميعا . ولما استراح الناس خرجت والقواد جميعالنقيم خارج المعسكر إلى أن يصبح الناس خوفاً من حيلة تقع وأسأل الله تمام النعمة وإيزاع الشكر وأنا أعز الله سيدنا الوزير راحل إلى حماة ثم أشخص إلى سلمية بن الله تعالى وعونه فمن بقى بعد من هؤلاء الكفار مع الكافر فهم بسلمية لأنه قد صار إليها منذ ثلاثة أيام وأحتاج إلى أن يتقدم الوزير بالكتاب إلى جميع القواد وسائر بطون العرب » .

وهكذا استطاعت الخلافة أن تنجح حيث أخفق الطولونيون ، وطربت لهذا النصر . وزينت بغداد أفخم زينة « ثم حضر محمد بن سليمان ، وخلع عليه المكتفي ثم خلع على القواد الذين كانوا معه »[1] . واستردت الخلافة هيبتها كاملة وبدا المكتفي في نظر الناس في ثوب المنقذ وفتح الطريق أمامه ليتجاوز بلاد الشام إلى ما يريد .

وكانت الخطوة التالية أن يقضي الخليفة على الطولونيين كما قضى على القرامطة . إذ واضح مما رواه الطبرى أن انتصار الخلافة على القرامطة كان مقدمة لفتح مصر « وكان خروجهم ذلك قاصدين لدمشق ... لقبض الأعمال من هارون لما تبين للسلطان من ضعفه وضعف من معه وذهاب رجاله بقتل من قتل منهم القرمطي[2] » .

وقد اتخذ الخليفة من الاستعدادات ما يكفل له سرعة القضاء على الطولونيين في مصر ، وتهيأ لفتح هذه البلاد كأنه يتهيأ لجهاد البيزنطيين من وراء الثغور . فما كاد محمد بن سليمان وزمرته من القواد يفرغون من الاحتفال بالنصر على القرامطة حتى أمره بأن يستعد لحرب الطولونيين ، فمضى هذا القائد « والخلع عليه »[3] لتنفيذ هذه الرغبة ، وأشرك معه نفس القواد الذين شاركوه حرب القرامطة ، وأغلبهم من القواد الذين خدموا في الجيش الطولوني ، وفروا من البلاد في عهد جيش ، وكانوا أبصر الناس بأحوال مصر وأعرف الناس لمسالكها ، وأعد لهذه الحملة نحوا من عشرة آلاف من المقاتلة أغلبهم من الخراسانية الأشداء .

ويبدو أنه لم يكن مطمئناً إلى قدرة هذا الجيش الكثيف على القضاء على الطولونيين الذين ضعفت قوتهم وانقسمت صفوفهم ، فقرن هذه الحملة البرية بأخرى بحرية ، وأمر بالسفن التي كانت تحمي سواحل الشام وثغـــور

(١) الطبرى:جـ ٨ ص ٢٣٢ . (٢) الطبرى:جـ ٨ ص ٢٣٣ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

المسلمين وتدفع عنها خطر البحرية البيزنطية بأن تشترك فى الهجوم على مصر بقيادة دميانة قائد الأسطول الخلافى فى البحر الأبيض [1] .

ونحن نريد أن نتعرف على الأسباب التى دفعت الخلافة إلى تجنيد هذه القوات البرية والبحرية ، وهو أمر لم تقدم الخلافة عليه وهى تناضل فحول البيت الطولونى . ولماذا تسير هذه القوات والطولونيون قد خضعوا فعلا لنفوذ الخلافة ووصايتها المباشرة بمقتضى المعاهدة التى عقدها هارون مع المعتضد . وقد ضعفت قوتهم وضاعت منهم بلاد الشام ، وقتل زهرة رجالهم وتفرق شملهم . وكان من الممكن أن تملى عليهم الخلافة الشروط التى تريد دون حرب ولا قتال . وكان من المؤكد أن يستجيب الطولونيون ، وقد استجاب هارون للمعتضد من قبل .

هل مركب النقص هو الذى دفع الخلافة فى صحوتها هذه إلى المبالغة فى إظهار القوة والمضى فى ذلك إلى آخر الشوط ، والانقضاض على فريسة ضعيفة .

ويخيل إلينا أن ثمة أحقاداً شخصية تكمن وراء هذه الحملة وهذه الاستعدادات فى البر والبحر ، وأنه من غريب الاتفاق أن يجمع حاقدان فى تدبير هذا الأمر : المكتفى ومحمد بن سليمان الكاتب . فقد كان المكتفى يريد أن ينزع جذور هذا البيت الذى وقف لجده من قبل وتحداه وهزمه ، وأعلا كلمة مصر ومكن جيوش مصر من أن تصول فى ميادين الشام والجزيرة والثغور . يتجلى هذا الحقد الدفين فى هذا الإصرار وفى هذا الاستعداد الموفور لإزالة معالم الدولة الطولونية .

أما قائد الجيش محمد بن سليمان فقد كان من صنائع الطولونيين ، عمل كاتباً للؤلؤ وسخط عليه أحمد بن طولون ، وكان يود أن ينكل به جزاء خيانته لولا فراره إلى بغداد ، وقد برز فى خدمة الموفق والمعتضد والمكتفى ،

---

(١) الكندى ، الطبرى : جـ ٨ ص ٢٣٤ .

وأصبح قائد الجيش الخلافى وصاحب الفضل الأكبر فى قصم ظهر القرامطة ، واختير لقيادة الحملة ضد مصر بسبب معرفته الوثيقة بأحوال البلاد ، وكان له ثأر عند الطولونيين وكان يريد أن ينتقم . وابن سعيد يعبر عن شعور محمد بن سليمان هذا بقوله : « دولة تأثلت وتوورثت يأتى كاتب من صنائعها يريد ذهاب رسومها بالكلية [١] » .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا أن ثمة خلافا وقع بين هارون بن خمارويه والخليفة المكتفى فى الفترة التى أعقبت القضاء على خطر القرامطة . أشار أبو المحاسن [٢] إلى هذا الخلاف دون أن يلتمس له تعليلا ، ويعتقد أن هارون لم يستطع أن يدفع ما قضت به معاهدة المعتضد من أن يحمل إلى بغداد ٤٥ ألف دينار كل سنة بسبب الفوضى الداخلية وضعف السلطة المركزية . ولعل تخلف هارون عن الدفع بعث أحقاد الخلافة ودفعها إلى محاولة الاستيلاء على مصر بالقوة المسلحة .

ولا يبعد أن يكون القواد الطولونيون فى بلاد الشام الذين ساءتهم أحوال البلاد فى عهد هارون وأساءت إليهم تصرفات الوصى وحماقاته ، قد لعبوا دوراً كبيراً فى تحريض القواد العباسيين على القضاء على ما بقى للطولونيين من نفوذ . وقد رأينا كيف نفى الوصى بعض خيرة القواد من مصر ، وأن بعضهم أقام فى فلسطين أو رحل إلى بلاد الشام .

على كل حال تقدم محمد بن سليمان فى طريقه إلى دمشق دون أن يلقى مقاومة [٣] ، فدخلها وانضمت إليه بقايا القوات الطولونية فى بلاد الشام وقدم إليه الولاة والعمال فروض الطاعة ، وانحاز إليه كبار القواد الذين شاركوا يوماً فى مجد أحمد بن طولون وخمارويه . انضم إليه طغج بن جف ، ويضيف الكندى [٤] إليه بدر الحمامى والحسين بن أحمد الماذرائى وغيرهم من

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ١٤٥ .
(٢) النجوم جـ ٣ ص ١٠٩ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) الكندى : ص ٢٤٧ .

الناقمين على هارون ووصيه ابن أبىّ . وتضاعفت قوات الخلافة بمن انضم إليها من جند الشام ، وتقدم الجيش الزاحف حتى دخل فلسطين ، وتلقى فروض الطاعة من عاملها وصيف ابن سوارتكين [1] . وبدأت المعركة الأخيرة التى قدر لها أن تقرر مصير الطولونيين .

ومن الغريب أن تبدو الدولة فى ذلك الوقت قادرة على المقاومة وهى فى دور الاحتضار بعد الهزات الداخلية والخارجية التى تعرضت لها والظروف الاقتصادية التى كانت تسود البلاد ، ورجالها يعرفون ما تبيته الخلافة من نية ، وما جمعته من قوات وما أنفقته من أموال . هذه الدولة التى ما كان لها أن تنتهى إلى ما انتهت إليه لولا ضعف المقاومة وتفرق القيادة .

على كل حال قاد هارون هذه المحاولة الأخيرة للمقاومة ، وتجمعت القوات البرية عند بلدة « العباسة » على أطراف الحدود الشرقية للوقوف فى وجه القوات البرية الزاحفة [2] . وكانت طليعة هذه القوات بقيادة الحسين ابن حمدان قد جاوزت مدينة الفرما فى طريقها إلى موضع يسمى جرجير[3] . وكان محمد بن سليمان على مؤخرة القوات التى لم تكن قد جاوزت فلسطين بعد [4] . ويبدو أن محمد بن سليمان كان يعتقد أن فى الطولونيين بقية من مقاومة ، فبعث بهذه الطليعة لتعجم عود الطولونيين ، وتعرف مدى إصرارهم على المقاومة .

وفى نفس الوقت كانت البحرية الطولونية بقيادة وصيف القطرميز وخصيب البربرى تتقدم فى النيل لتوقف زحف أسطول الخلافة بقيادة دميانة البحرى . والتقى الاسطولان عند تنيس ، فهزم الأسطول المصرى ، وسقطت هذه المدينة فى يد العدو . ثم وقف الاسطول المصرى وقفة أخرى عند دمياط

(١) الكندى : ص ٢٤٧ .
(٢) الطبرى : جـ ٨ ص ٢٣٤ ..... النجوم جـ ٣ ص ١٣٥ .
(٣) الكندى : ص ٢٣٥ . (٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٨ .

فهزم مرة أخرى . واستولى العدو على مراكب المصريين وأسر رجالها وسقطت دمياط فى يد العدو أيضاً [١] . وتقدم دميانة البحرى ليحقق الهدف الذى وكل إليه تحقيقه وهو « قطع المواد عمن بمصر من الجند » [٢] .

فتقدم من العاصمة وأحرق الجسر الشرقى الذى يصلها بالروضة ، وأتلف الجسر الغربى الذى يصلها بالجيزة . ولم يكن باستطاعة هذه القوات البحرية أن تصلى المعركة وحدها ، أو أن تحرز النصر دون أن تتقدم القوات البرية لدخول الفسطاط .

ويبدو أن الطولونيين ظلوا يقاومون بنجاح بدليل أن قوات الطليعة بقيادة الحسين بن حمدان لم تتجاوز مراكزها بلدة جرجير حتى كان مصرع هارون . وكان مصرعه قاصم الظهر للمقاومة الطولونية الناجحة ومفرقا لصفوف البقية الباقية من الجيش . فقد انحازت الفرق المؤيدة لهارون إلى القوات العباسية مباشرة . وما كادت قوات الخلافة ترى تفرق قوات الدفاع على هذا النحو حتى تقدم محمد بن سليمان بعد أن اطمأن إلى ضعف المقاومة فتجاوز مضربه فى فلسطين وانضم إلى قوات الطليعة عند العباسة . وتقهقرت قوات شيبان بن أحمد فدخلت العاصمة للدفاع عنها وتنظيم المقاومة . وتقدمت قوات محمد بن سليمان وضربت الحصار على الفسطاط والقطائع [٣] .

ومما يدهش حقاً إصرار بقايا الطولونيين على المقاومة فى هذه الساعات الحالكة ، والعاصمة تضربها قوات القائد دميانة من البحر ، وتحاصرها قوات محمد بن سليمان من البر . وأبدى الطولونيون فى الحقيقة رغبة عنيدة فى المقاومة . وأرسل محمد بن سليمان إلى شيبان يطلب إليه التسليم مقابل تأمينه وتأمين رجاله [٤] ولو كان قادراً على اقتحام المدينة قسراً لما تردد فى

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٨ . (٢) الطبرى : جـ ٨ ص ٢٣٤ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٦ . (٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٧ .

ذلك لحظة واحدة . إنما هذه المفاوضة تكشف عن عنف المقاومة فى الرمق الأخير ، الأمر الذى يشرف القوات الطولونية حقاً . حتى حين وضحت رغبة شيبان فى الاستسلام ليحفظ حياته وحياة أهله مصدقاً وعود محمد بن سليمان ، لم يلق من رجاله إلا الإصرار على القتال .

هذه الروح المعنوية العالية يكشف عنها ابن سعيد [1] حينما عرض لهذه الساعات الأخيرة من عمر الطولونيين قائلا « لما أعيت شيبان الحيل ولم تكن له طاقة بالمقاومة جمع وجوها من أصحاب دولته ، وقال لهم : إنى أرى هذه الدولة قد نادى غرابها بالرحيل ولم يبق فيها إلا قدر التقاء الجمعين فما ترون ؟ فقد فرغت الأموال وفر الرجال ، فبكى الأولياء بين يديه وقالوا : بل نصبر حتى نموت كراما ، دولة قد تأثلت وتوورثت يأتى كاتب من صنائعها يريد ذهاب رسومها بالكلية ... لا يتحدث عنها بذلك ... » .

وإذا كان الفرسان قد استسلموا لما عرفوا برحيل شيبان إلى معسكر محمد بن سليمان ، فقد ثبت المشاة فى مواقفهم « ليس بينهم حام ولا رئيس [2] » فثبتوا حتى الموت .

وانفتح الطريق أمام محمد بن سليمان لدخول العاصمة ، وماتت الدولة الطولونية ميتة مشرفة . وتجلت الأحقاد فيما فعله محمد بن سليمان بعد دخوله العاصمة واستسلام الطولونيين ، أحقاد الخلافة الموتورة ، ثم أحقاد هذا المولى محمد بن سليمان الذى أراد أن ينتقم من الطولونيين أشد انتقام .

يتجلى هذا الحقد الدفين فى الفظائع التى ارتكبها هذا القائد باسم الخلافة وفى صيحة الخراب التى نادى بها فى ربوع بنى طولون ، الأمر الذى لم نر له مثيلا من قبل ، وإذا بخليفة المسلمين يخرب أعظم حواضر

(١) المغرب ص ١٤٥ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٧ .

الإسلام ، ولم نجد خيراً من أبى المحاسن [1] فى تصوير هذه الساعات الحالكة ، وهذه الشرور والمآثم التى تورط فيها محمد بن سليمان ، وتورطت فيها الخلافة العباسية ، حتى ليشعر القارىء لأبى المحاسن أنه يقرأ مرثية صادقة الشعور لهذا المجد الزائل « ملك الديار المصرية وأمسك الطولونيين وخرب منازلهم وهدم القصر المسمى بالميدان الذى كان سكن أحمد بن طولون وتتبع أساسه حتى أخرب الديار ومحى الآثار ، ونقل ما كان بمصر من ذخائر بنى طولون إلى العراق . ويقال إنه كان أكثر من ألف دينار عينا ... وأنه حمل إلى الخليفة من الذخائر والحلى والفرش أربعة وعشرين ألف حمل جمل [2] » .

وقد صورت لهم نشوة الظفر أن يقضوا على من بقى من جنود الطولونيين فأحرقت قطائع السودانيين وذبحوا عن آخرهم كما تذبح السائمة وهذا القائد السفاك محمد بن سليمان يرقب هذه المجزرة الهائلة ، بل امتدت هذه المآثم إلى المصريين أنفسهم « فمن هرب أوقاتل ضربت عنقه » ...

وكان حكمه فى أهل مصر بضرب أعناقهم وقطع أيديهم وأرجلهم جوراً وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل [3] » ، فوق أعمال نهب الدور واستباحة الحرمات وإخراج الناس من مساكنهم ، « وفعلوا فى المصريين مالا يفعلون فى الكفرة [4] » ، واستصفى محمد بن سليمان أموال رجال الدولة الطولونية [5] بالشدة والعنف . بل يبدو مما رواه ابن الداية [6] أن الجنود العباسيين كانوا يدخلون الضياع وينهبونها وينقلون منها الغلال ، « ولم يبق من بنى طولون أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اللذ ... وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر الدول وأيامهم من محاسن الأيام وخرب الميدان والقصور التى كانت به ومدحها الشعراء [7] » .

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨ . (٢) نفس المصدر ص ١١٢ .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٩ . (٤) نفس المصدر ص ٤٢ .
(٥) ابن الداية : المكافأة ص ١٣٨ . (٦) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٧) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٤٨ .

وهناك حقيقة يجب أن نؤكدها قبل أن نختم هذا الموضوع ، وهى أن الحركة الاستقلالية التى استهلها أحمد بن طولون ورعاها خمارويه تركت صدى عميقاً فى صدور المصريين ، وتأصلت جذورها فى أنفسهم ، وأن هذه الرغبة فى الاستقلال لم تكن متمثلة فى تلك المقاومة العنيدة التى قام بها سكان الفسطاط ، والقطائع التى دعت محمد بن سليمان إلى قطع الأعناق والفتك بالشعب الذى تشبث بالدولة التى كانت رمزا للاستقلال حتى الرمق الأخير ، إنما ظهرت فى ثورة مسلحة أعقبت سقوط الطولونيين مباشرة . هذه الثورة تحتاج منا إلى مزيد من العناية ، وهى الثورة المعروفة بثورة محمد بن على بن الخليج [1] ، التى جاءت فى أعقاب سقوط الطولونيين مباشرة ، ولما يستقر الأمر للعباسيين بعد عهد عاملهم عيسى النوشرى [2] .

ونحن نريد أن نتساءل هل كان محمد بن على بن الخليج ضابطاً مصرياً ؟ يؤكد أبو المحاسن وهو الذى عرض لهذه الحركة بالتفصيل أنه من الجند المصريين ، وأنه ولد بمدينة الفسطاط [3] ، فهو إذن يمثل عناصر المصريين التى تسربت إلى الجيش الطولوني فى عهد أحمد بن طولون ، وازداد سلطانها فى عهد خمارويه .

ويبدو أن هذا الضابط المصرى كان قد بلغ مرتبة القيادة فى آخر العهد بالطولونيين ، وأنه يعمل فى فرقة صافى الرومى . وقد ولدت فى نفسه الرغبة فى الانتقام لما حل بالطولونيين وهو فى عسكر محمد بن سليمان الكاتب بعد فراغه من الطولونيين وسيره إلى بلاد الشام ، ثم استدعائه إلى بغداد ليقدم حسابا عن الغنائم التى حازها فعز عليه أن تحمل أموال مصر على

---

(1) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧ . ورد اسم ابن الخليج (ولعله ابن الخليجى نسبة إلى الخليج) فى بيت من الشعر رواه الكندى ص ٢٦٠ :

وكأنه أبوك خليج العفاة	ويحر الثغور التى غالها
به كانت الروم فى أمنها	تفزع للذئب أطفالهـا

(2) الكندى : ص ٢٥٧ — ٢٥٨

(3) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٩

هذا النحو ، وأن يقضى على الطولونيين بهذه الصورة . وقد وجدت رغبته فى الخروج على العباسيين والانتقام للطولونيين قبولا لدى بقايا القوات الطولونية التى كانت لا تزال فى فلسطين « ذكر الذى عزم عليه لجماعة من المصريين فبايعوه على ذلك وعضدوه على عصيانه وانضم إليه شراذم من المصريين [١] » . كانت رغبة جامحة فى العمل للطولونيين والانتقام لما حل بهم فكان يدعو لابراهيم بن خمارويه ثم للخليفة ثم لنفسه ، واستولى على الرملة فى سنة ٢٩٢ هـ [٢] وما كاد يعود حتى وجدت دعوته قبولا لدى الناس الذين فشى فيهم حب الطولونيين واعتملت صدورهم بالنقمة على بنى العباس « كان الناس يأتونه من كل فج لما فى نفوسهم من تشتتهم عن بلادهم وأولادهم وأوطانهم [٣] » ودخلوا فى طاعته دون مطمع « من غير دينار ولا درهم [٤] » . وانحدر من العريش إلى الفرما وشرع يزحف على مصر نفسها .

وتتابعت خطواته الناجحة ، وتوجها بالانتصار على الوالى العباسى وعلى القوات العباسية ، فقد سار عيسى النوشرى عامل العباسيين لقتاله فهزم وارتد إلى الفسطاط وابن الخليج فى أعقابه . وقد عبر إلى الجيزة ومنها إلى الأسكندرية لا يلوى على شىء [٥] .

وقد وجد أهل مصر فى هذا النصر على قوات الخليفة إرواء لحقدهم وتنفيساً عن رغبتهم فى الاستقلال وتمسكهم بالطولونيين . يدل على هذا ما يصوره أبو المحاسن من فرحهم بابن الخليج ، ومن إقبالهم عليه « وتخلق أهل

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٧ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) نفس المصدر ص ١٤ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٩ .

مصر بالزعفران وخلقوا وجه دابته ووجوه دواب أصحابه فرحا به [1] » . وامتد صدى هذه الثورة فتجاوز عاصمة البلاد إلى أقاليمها المختلفة ، فأتاه المقاتلون والمطوعة حتى بلغت عساكره نحوا من خمسين ألفا [2] .

وإذا كان ابن الخليج (أو الخليجى كما نرجح أن يكون هذا اسمه الحقيقى) قد اضطربت أموره بعد ذلك ، ونسب إليه المؤرخون الكثير من أعمال العنف ، فإن مرد ذلك إلى رغبته الملحة فى الاحتفاظ بالمكاسب التى حازها ، وحاجته الملحة إلى الأموال للإتفاق على هؤلاء الجند ، والاستعداد لمواجهة قوات الخلافة . وهو إذا كان قد أفلح فى أن يطرد النوشرى من الاسكندرية ، وحكم العاصمة والدلتا مدة سبعة أشهر ، إلا أن الخليفة العباسى لم يكن من المعقول أن يقف مكتوف اليد بعد أن ذاق حلاوة النصر ، فبعث بالنجدات من العراق يقودها فاتك وبدر الحمامى [3] وعاد دميانة قائد الأسطول مرة أخرى ، وتكررت المأساة السابقة وانقض القبطان دميانة عبر النيل على مدينة الفسطاط [4] ، ثم أقبل عليها النوشرى والماذرائى من البر ، ولم يستطع ابن الخليج أن يدفع هذا الخطر ، وقد قعد به ضيق الوقت المال ، فهزم وقبض عليه سنة ۲۹۳ [5] ، فكأن مصر فتحت مرتين بعد نضال عنيف وقتال مرير ، مرة سنة ۲۹۲ وأخرى سنة ۲۹۳ .

---

(۱) قال أحمد بن محمد الحبيشى :

غضبت لمصر ومانالهـــا ... وشردت بالخوف من عالها
تلافيتها بعد إدبارهـــا ... رأقبلت تطلب إقبالهـــا
وكادت تأوه شوقا إليـــك ... وتظهر بالشوق بلبالهـــا
وما شوقها كان من طبعها ... ولكن ربك أوحى لهـــا
لقد فرج الله كرب النفوس ... وبلغها فيك آمالهـــا
ولما رأيناك فى مصرنـــا ... منحنا الإمارة إجلالهـــا
وما زالت تطلبها همـــة ... وتركب بالسيف أهوالهـــا
تمنوا لقاك فلمـــا رأوك ... رأوا للمنية إظلالهـــا

انظر الكندى ص ۲٦۰ .

(۲) النجوم الزاهرة جـ ۳ ص ۱٤۹

(۳) الكندى : ص ۲٦۳ .

(٤) الكندى :ص٣٦٦

(٥) نفس المصدر والصفحة .

وتجلت الحسرة على ما نال الطولونيين وزوال ملكهم مما نقله كل من أبى المحاسن [1] والكندى من مراثى الشعراء لخراب القطائع ، وما نال بنى طولون فهو تنفيس عن هذه الآلام الحبيسة ، وتصوير أحزان الناس وحسرتهم على هذا الماضى العظيم .

(١) انظر : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٤٢ - ١٤٣ - مراثى الطولونيين ،
أولا : اسماعيل بن أبى هاشم :
قف وقفة بفناء باب الساج — والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم — بعد الإقامة أيما إزعاج
كانوا مصابيحاً اذا ظلم الدجى — يسرى بها السارون فى الإدلاج
فانظر الى آثارهم تلقى لهم — علماً بكل منية وفجاج
ثانيا : سعيد القاص :
طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها — بفقد بنى طولون والأنجم الزهر
وتنسب إليه الكندى ٤٠ بيتاً ختمها بقوله :
لبيك بنى طولون إذ بان عصرهم — فبورك من دهر وبورك من عصر
ثالثا : محمد بن طشويه :
من لم ير الهدم للميدان لم يره — تبارك الله ما أعلا وأقدره
رابعا : ابن أبى هاشم :
وإذا ما أردت أعجوبة الدهر — تراها فانظر إلى الميدان
خامسا : ابن أبى هاشم :
يامنزلا لبنى طولون قد دثراً — سقاك صوب الغوادي القطر والمطرا

الباب الخامس
مكان العصر الطولونى من حضارة مصر الإسلامية

ليس من شك فى أن ظهور الدولة الطولونية واستقرارها وتوسعها على النحو الذى عرضنا له كان بداية عصر جديد فى تاريخ مصر الإسلامية ، وميلاد تطور جديد فى أوضاع البلاد السياسية . فقد كان ظهور هذه الدولة يمثل انتقالا من عصر التبعية المطلقة إلى عصر الاستقلال بالصورة التى عرفناها ، انتقالا من العهد الذى كانت ترسم فيه السياسات فى حاضرة الخلافة ثم تحمل إلى مصر لكى ينفذها الولاة ؛ إلى عهد آخر تنبع فيه سياسة البلاد من حاضرتها ووفق ظروفها سواء رضيت الخلافة عنها أم لم ترض ؛ انتقال من عهد الوالى المحدود السلطان إلى عهد الأمير القوى الواسع السلطان الذى تسنده جيوشه وأساطيله ، تأتمر بأمره وتحقق أهدافه .

ونحن نريد أن نعرف ما إذا كان هذا التطور الذى شهدته الحياة السياسية قد صحبه تطور مماثل فى حضارة مصر الإسلامية !!

كان العصر السابق الممتد من الفتح العربى حتى قيام الدولة الطولونية يمثل دور التهيؤ أو دور التكوين فى الحضارة ، فقد شهد دخول المؤثرات الإسلامية عن طريق الفتح أو التسرب السلمى وشهد انتشار اللغة العربية وتدفق الدماء العربية وانتشار الإسلام والثقافة العربية . فهل يمثل العصر الطولونى بداية دور الازدهار فى تاريخ الحضارة ؟ الدور الذى يمثل اكتمال التطور الإسلامى والاندماج الكامل بين الثقافة العربية والمؤثرات المحلية الموجودة ، وظهور الطابع الإقليمى للثقافة ، واكتمال الحركة الإسلامية ، وصبغ بالصبغة الإسلامية الواضحة ، واختلاط الدماء العربية الوافدة بالدماء المصرية .

لإثبات أن هذه النقلة السياسية قد صحبتها نقلة حضارية استهلت عصراً جديداً هو عصر الازدهار لا بد من أن ندرس التطور الذى أحرزته حضارتنا

الإسلامية فى هذه الفترة العظيمة من تاريخنا القومى ، هذه الفترة التى لم تتجاوز ثمانية وثلاثين عاما ، فقد بدأت سنة ٢٥٤ هـ وانتهت سنة ٢٩٢ بخضوع مصر المؤقت للخلافة .

هذه الدراسة فى ضوء عوامل هامة جدا ، ساعدت على تحديد الدور الذى لعبه العصر الطولونى فى حضارة مصر الإسلامية ، وأهم هذه العوامل الاستقلال الذى تحقق لمصر فى هذا العصر وصيرورة عاصمة البلاد مركزاً للنفوذ السياسى وانبعاث حركة توسع عظيمة من مصر وامتدادها إلى برقة وبلاد الشام وتخوم العراق ، والجمع بين هذه البلاد فى نظام سياسى موحد . والثراء العريض الذى حققه هذا الاستقلال ، وهذا التوسع ، وامتلاء خزائن الأمراء من موارد مصر ، وموارد البلاد التى خضعت لها ودخلت فى طاعتها ، وإنفاق أغلب هذه الأموال فى تحقيق هذا الاستقلال ، وإنفاق هذه الأموال فى مصر ، بعد أن كان أغلبها يحمل إلى عاصمة الخلافة . والرغبة الصادقة فى أن تنهض مصر لتنافس العراق ، وأن تنهض القطائع لتنافس سامرا أو بغداد ، وأن يبدو البلاط الطولونى فى حياته وتقاليده فى مستوى لا يقل عن مستوى البلاط الخلافى ، هذه المنافسة التى تجلت فى حرص الأمراء على الاستقلال ودفاعهم عنه . ثم عمل هؤلاء الأمراء الوافدون من العراق على التأثر بالتقاليد الاجتماعية والفنية التى رأوها تشيع فى بغداد وفى سامرا .

سنعرض لأثر هذه العوامل فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفى الثقافة والفن ونظم الحكم

* * *

التطور الذى جد على المجتمع المصرى

من أهم ملامح التطور الذى شهده المجتمع المصرى فى العصر الطولونى ، ظهور لون جديد من الحياة المدنية لم يكن مألوفاً من قبل ، تتمثل فيه حياة الطولونيين وتقاليدهم وطابع عصرهم وأهدافهم السياسية ، تتمثل هذه الحياة المدنية الجديدة فى مدينة القطائع الطولونية ، فى مجرد التفكير فى بنائها ، وفى خططها ، وفيما شهدته من ألوان الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فقد كان التفكير فى ترك دار الإمارة بمدينة العسكر مقر الولاة العباسيين ، يمثل الاتجاه الجديد الذى وضح فى حياة أحمد بن طولون من رغبة فى الاستقلال الذاتى المنشود ، وأن يختط لنفسه نهجاً يختلف عن نهج الولاة العباسيين السابقين ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن يتضح هذا التفكير فى الوقت الذى تمت له فيه السيادة الداخلية ، وتغلب على منافسيه جميعاً ، وأصبح له الإشراف على الخراج واستأذن الخليفة فى اتخاذ الجند والإكثار من الموالى والغلمان . « عاد أحمد بن طولون إلى مصر ، وقد استكثر من العبيد والرجال فضاقت به داره . وكان هو والأمراء من قبله يسكنون فى الدار التى تعرف إلى اليوم بدار الإمارة [١] » .

ولم يكن التفكير فى بناء هذه المدينة الجديدة رغبة فى منافسة الخلافة العباسية بقدر ما كان رغبة فى أن يتخذ مقراً جديداً لحكومته ورجال جيشه .

ثم كان اختيار موقع هذه المدينة وتخطيطها أمراً فريداً ، فقد اختار لها ابن طولون مكاناً يقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط ، حيث يوجد اليوم قره ميدان والمنشية وميدان صلاح الدين [٢] ، فكأنما كانت امتداداً لهذه العواصم القديمة صوب الشرق .

---

(١) البابوى : سيرة ابن طولون ص ٥٣ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٥٨ .

ثم يعطينا البلوى صورة طريفة لما كان من تخطيطها ، فقد قسمت إلى أحياء كل حى منها يتخذ اسم قطيعة ، إفراد كل منها لكل عنصر من عناصر الجيش الطولونى ؛ قطيعة للسودانيين وقطيعة للروم وقطيعة لكل طائفة من طوائف الغلمان والموالى ، فكانت أقرب شبهاً بالمعسكر الكبير . ثم جعلت قطائع خاصة للحرف والتجارات « سمى منها سوق العيارين ، يجمع فيه البزازين والعطارين ، والصيارفة والخبازين وأصحاب الحلواء . ثم لكل صنف من جميع الصنائع أفرد له سوقاً حسناً [١] » .

وجاء هذا التخطيط تقليداً للأساليب العراقية ، أو تقليداً لتخطيط مدينة سامرا التى أنشأها المعتصم ، فقد ذكر الأستاذ ڤييت [٢] والدكتور زكى محمد حسن أن سامراً خططت تخطيطاً عنصرياً بأسلوب استخدمه ابن طولون فى حاضرته الجديدة ، والتزم نفس الأسلوب فى تقسيم الأسواق ، وإفراد القطائع لأرباب الحرف ، فكأنما كانت مدينة عراقية التخطيط ، لأن أحمد بن طولون الذى عاش شطراً من شبابه الباكر فى حاضرة المعتصم بقيت صورتها ماثلة فى ذهنه ، وأحب أن تكون عاصمته الجديدة أشبه شىء بالبيئة التى نشأ فيها [٣] .

وهى تختلف اختلافاً واضحاً عن تخطيط مدينة الفسطاط القديمة ، كانت مدينة الفسطاط خططاً للقبائل العربية التى شاركت فى فتح مصر ، أو هاجرت إليها بعد الفتح ، وكانت القطائع خططاً للعناصر الجديدة التى طرأت على الحياة الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى والتى أقامت الدولة الطولونية ، عناصر من الموالى الفرس أو الترك أو السودانيين أو الروم أو البربر .

حتى العمائر التى أقامها ابن طولون فى حاضرته الجديدة كانت عمائر عراقية الأسلوب والطابع ، والبلوى [٤] يعطينا صورة شبه معاصرة لقصر بنى

---

(١) البابوى : سيرة بن طولون ص ٥٤ .

(٢) Wiet : L'Egypte arabe , p. 109.

(٣) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٥٨ .

(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٤ – ٥٥ .

طولون وللميدان الفسيح الذى ألحق به والذى خصصه للعب الصوالجة ، وعن أبواب هذا القصر : باب الخاصة الذى لا يدخله إلا خاصته ، وباب الجبل الذى يفضى إلى المقطم ، وباب الحرم الذى لا يدخله إلا الخدم والنساء ، ثم أبواب أخرى تسمى بأسماء حجابها : باب الدرمون ، وباب دعناج ، وباب آخر عمل من خشب الساج سمى باب الساج ، ثم باب آخر سمى باب السباع « وصور عليه سبعين من جص » .

ويبدو أن واجهة هذا القصر العظيم كانت تتألف من أبواب عظيمة كبيرة العدد « لم يكن يكتنفه باب واحد ولا بابان ، فقطعه بحائط وعمل فيه ثلاثة أبواب كأكبر ما تكون الأبواب [1] » .

وكانت عمارة هذا القصر تقليداً للأساليب العراقية التى شاعت فى سامرا أو فى بغداد ، وآدم متز [2] يلاحظ الشبه الكبير بين هذا القصر وبين قصر الخليفة العباسى المتوكل ، الذى التزم فيه أسلوبا يسمى بالأسلوب الحيرى نسبة إلى الحيرة « فيبنى مقدم أو ثلاثة أجزاء أوسطها الباب الأكبر وإلى جانبه البابان الصغيران » ... « وكان المتوكل يجعل دون قصره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه ، وقد اتبع الناس المتوكل ائتماماً بفعله حتى اشتهر هذا البناء [3] » .

وظهر من الحفائر التى أجريت فى مدينة سامرا أن الباب الأوسط كان يزيد على البابين الجانبيين فى الارتفاع والاتساع ، وقد قلد هذا الأسلوب فيما بعد حينما بنى القصر العظيم المعروف بقصر التاج [4] .

ونفس الميدان الذى خصصه للعب الصوالجة تقليد للميدان الذى رآه ابن طولون فى سامرا .

---

(١) البلوى:ص ٥٥ .　　(٢) الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٠٧ – ٢٠٨

(٣) جغرافية اليعقوبى ص ٢٦٦ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٨٠٩ .

ويبدو أن هذا الأسلوب العراقى الذى استخدم فى بناء قصر ابن طولون بالقطائع أصبح الأسلوب الشائع فى ذلك العصر ، فقد كشفت الحفائر التى قامت بها دار الآثار العربية سنة ١٩٢٢ عن بيت من العصر الطولونى ، زخارفه من الجص على النحو المتبع فى سامرا « وكلها من أسرة الزخارف التى اصطلح على تسميتها زخارف الطراز الأول من سامرا [١] » . وتصميم البيت تقليد للنظام القديم الذى عرفه الفرس فى عهد الأسرة الساسانية ، وظهر فى قصر شيرين الذى شيده كسرى برويز ، واستخدم نفس الأسلوب فى قصر الأخيضر الذى بناه العباسيون فى القرن الثامن الميلادى ، ثم استخدم فى قصور سامرا وانتقل منها إلى مصر ومنها انتقل إلى شمال أفريقية [٢] . فكانت عمارة القطائع من هذه الوجهة أشبه بعمارة مدينة العباسة التى بناها الأغالبة فى تونس [٣] .

كان تخطيط القطائع على هذا النحو إيذانا ببروزها فى الحيـــــاة الاجتماعية « فعمرت عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران [٤] » . بل يرى البلوى أن هذه المدينة « كانت أعمر من مدينة كبيرة من مدن الشام وأكبر وأحسن[٥] » .

على كل حال كانت الحياة فى مدينة القطائع أول الأمر تتفق كثيراً مع الطابع الذى ساد فى عصر أحمد بن طولون ، طابع التقشف والمسحة العسكرية الخالصة ، فكانت رغم أسواقها وحماماتها ومرافقها أشبه بمعسكر كبير يضم القصر وتوابعه والثكنات .

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٦١ .
(٢) نفس المصدر ص ٦١ .
(٣) Marcais, vol . I, p. 913 .
(٤) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٥٣ .
(٥) نفس المصدر ص ٥٤ .

ثم قدر لحياة القطائع أن تنطلق كما انطلقت حياة خمارويه وكما انطلق عصره ، وأن يظهر فيها الترف الذى شاع فى حياته . فقد أضاف إليها إضافات لا تضيفها إلا يد فنان ذواقة ، فقد زاد فى القصر الذى بناه أبوه ، ووسع فيه إلى أبعد الحدود [1] . وأضاف إليه قصراً جديداً خصصه لزوجات أبيه ، وأفرد لكل منهن جناحاً خاصاً [2] . ثم تجلى ولعه بالبساتين حين حول الميدان إلى بستان كبير زرع فيه أنواعاً فريدة من الزهور « على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعاهدها البستانى بالمقراض ، حتى لا تزيد ورقة على ورقة » . زرع من الأزهار النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر « والجنوى العجيب [3] » . وجلب من مختلف أرجاء العالم الإسلامى السلالات النادرة ، وزرع الأشجار خصوصاً النخيل « الذى ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس [4] » . وبالغ فى تزيين بستانه العجيب ، فكسا أجسام النخيل نحاسا مذهبا وجعل بين النحاس وأجسام النخيل أنابيب الرصاص ينحدر فيها الماء إلى أحواض كبيرة ، ثم ينحدر الماء من هذه الأحواض ليسقى أرض البستان . ثم مضى فى التجميل إلى أبعد من هذا ، حين بنى للطيور برجا من خشب الساج وبلط أرضه وجعل فيها مجارى الماء وأطلق فيه جميع أنواع الطيور [5] .

وجعل فى هذا البستان مجلساً له سماه دار الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد فى أحسن نقش « وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف صوراً بارزة من خشب معمول على صورته وصورة حظاياه ومغنياته ، وجعل على رءوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة وفى آذانها الأقراط الثقال ، ولونت أجسادها بأصناف تشبه الثياب من الأصباغ العجيبة [6] » .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٨ .
(٣) المقريزى جـ ١ ص ٣٥٦ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٣ .
(٦) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٤ .

ثم بنى فى القصر قبة سماها « الدكة » ، وجعل لها الستور التى تقى الحر والبرد [١] . ولم يقف به ترفه عند هذا الحد ، فقد اتخذ داراً للسباع ، وعمل فيها بيوتاً لكل سبع بيته الخاص ، كلها تفضى إلى قاعة فسيحة فيها رمل مفروش ، وتفتح أبواب الأقفاص لتخرج منها السباع .

ثم وسع خمارويه اصطبلاته لكثرة دوابه ، وعمل لكل صنف من الدواب اصطبلا : للجمال والفهود والنمور والفيلة والزرافات [٢]. ولم يغفل أن يتخذ فى هذا القصر حوضاً طوله خمسون ذراعاً فى خمسين ذراعاً قد ملىء بالزئبق .

هذه المنشآت كلها ينعكس فيها طابع العصر ، فالولع بالبساتين والأزهار صورة من ولع الترك الغريزى بالرياض والأزهار والجنات [٣] . ولم تكن هذه الأبنية المترفة أمراً انفردت به مصر ، إنما كانت صورة من الترف الذى شاع فى العالم الإسلامى كله ، وتسرب إلى كل حاضرة من حواضر الإسلام . وكانت الأساليب اللطيفة فى الحياة والأذواق البديعة يقلدها الناس فى كل مكان ولم تكن هنالك قيود تحول دون تبادل الأذواق والفكر والأساليب فالاصطخرى [٤] وصف دار الخلافة وما يتصل بها ، فذكر أنها أشبه شىء بمدينة قائمة بذاتها ، وأن قصور الخلافة وبساتينها تشغل مساحة عظيمة وتمتد الجدران المحيطة بها فراسخ كثيرة ، وتضم المسطحات المظللة بالأشجار والقباب والأروقة والبرك والأنهار الجارية ، وكان للخليفة القادر بيت يسمى « بيت الرصاص [٥] » ، وبين يديه نهر يجرى فيه الماء إلى دجلة ، ولما وفد رسل ملك الروم على الخليفة المقتدر رأوا بساتين فى وسطها بركة رصاص « أحسن من الفضة المجلوة » وهذه البركة طولها ثلاثون ذراعاً فى عشرين ذراعاً [٦] . ولما أسس الناصر لدين الله مدينة الزهراء اتخذ فيها بحيرة ملأها بالزئبق .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٦ . (٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢١٢ . (٤) الاصطخرى : ص ٨٣ .
(٥) كتاب الوزراء جـ ٢ ص ٢١٢ . (٦) آدم متز : جـ ٢ ص ٢١١ .

وفى هذه المنشآت لون واضح من الفن الساسانى يتمثل فى كسوة النخل بالنحاس المذهب ، فهذا ضرب من الذوق الشرقى القديم ، فقد كان ملوك الفرس يجلسون إلى الناس تحت أشجار كسيت جذوعها بالفضة [1] .

وإذا كان خمارويه قد قلد نماذج شاعت فى عصره ، أو تأثر بالأساليب الساسانية ، فإن ما قام به فى القطائع أضفى عليها بهجة ورواء لم تشهده مصر الإسلامية من قبل . وسرت فى هذه المدينة الجديدة ألوان من الحياة الاجتماعية لم تكن مألوفة من قبل ، فقد أصبح الميدان مسرحاً لسباق الخيل . ولا شك فى أن سباق الخيل كان مألوفاً لدى المصريين ، شغفوا به منذ عهد بعيد ، حتى إن ابن لهيعة الفقيه ألف فيه كتاباً سماه « الجلايب والحلايب [2] » ، ذكر فيه كل حلبة أجريت فى الجاهلية أو الإسلام ، غير أن أحمد بن طولون توسع فيه إلى أبعد الحدود ، واتخذ الاصطبلات العظيمة لكرائم الجياد . وبنى منظراً أمام ميدان السباق ليشاهد السباق بنفسه [3] ، وكان لرجاله اصطبلاتهم ومناظرهم [4] . وبلغ الاهتمام بالسباق أقصاه فى عهد خمارويه حتى أصبحت هذه الحلبات فى عهده تقوم مقام الأعياد [5] . وقد بلغت حلبات السباق فى عهده حداً من الروعة جعل القضاعى يعتبرها من عجائب الإسلام الأربعة [6] .

ولم تكن جماهير الناس من سكان الفسطاط [7] أو القطائع تهرع إلى العاصمة الجديدة لتشهد حلبات السباق فحسب ، بل كانت تهرع لحضـــور

---

(١) آدم متز : جـ ٢ ص ٢١٢ . (٢) آدم متز : ص ٢٥٣ .
(٣) ابن الداية : المكافأة ص ٢٩ . (٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٩٨ . (٦) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦٠ .
(٧) قال أبو المتوج فى كتاب إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل عن ساحل مصر : « ورأيت من نقل عمن نقل عمن رأى الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل وكان عندها ستة عشر ألف سطل مؤيدة ببكر وأطناب بها ترخى وتملأ . وكان بالفسطاط فى جهتها الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون . قال الراوى : دخلتها زمن خمارويه وطلبت بها صانعاً يخدمنى فلم أجد بها صانعاً ... مع ما ذكره القضاعى من عدد الحمامات وأنها ألف ومائة وسبعون حماماً ، تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس » . المقريزى : جـ ١ ص ٣٣١ ،

الولائم التى كان يقيمها ابن طولون ، فقد روى أبو المحاسن أنه جعل مطابخ للفقراء والمساكين فى كل يوم « يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس[1] » . وكان غالباً ما يقيم سماطاً عظيما وينادى فى مصر « من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك ويأمر أن تفتح جميع أبواب الميدان لينظرهم وهم يأكلون ويحملون[2] » .

وكانت هذه الجماهير تهرع إلى العاصمة أيضاً لمشاهدة استعراضات الجيش الطولونى الضخم بفرقه المختلفة وأسلحته الكاملة ، وهى تمر أمام أحمد بن طولون أو خروج الأمراء فى المواكب العظيمة خصوصاً مواكب خمارويه . وقد وصف أبو المحاسن[3] موكباً من مواكب خمارويه فيه هذه الروعة وهذه الفخامة ، فقال « إن الحجاب كانوا يمضون بين يديه ، ثم تعقبهم فرق الجيش فرقة فى إثر الأخرى وكان إذا سار فى موكبه لا يسمع أحد كلمة ولا سعلة ولا عطسة ولا نحنحة البتة كأنما على رؤوسهم الطير » .

وفى سماء هذه الحياة الاجتماعية الطريفة التى تجلت فى الحاضرة الجديدة تألق القصر الطولونى ، وأصبح للطولونيين بلاط له تقاليده ورسومه التى تتمشى مع الترف الذى شاع فى عصرهم ، والمكانة التى احتلوها فى مصر والعالم الإسلامى ، والاستقلال الذى حازوه[4] ، وفى استطاعتنا اعتماداً على الشذرات التى وردت فيما كتبه البلوى وابن الداية وابن سعيد والمقريزى وأبو المحاسن أن نلقى بعض الضوء على هذه المراسيم أو التقاليد الطولونية[5] ، فقد كان كل باب من أبواب قصرهم قد خصص لطائفة من الداخلين لا تدخل إلا منه ، الباب الأوسط الكبير لا يدخل منه إلا الأمـــير

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ . (٤) Wiet : L'Egypte arabe p. 109 .

(٥) من موظفى القصر رجال يقال لهم السعاة مهمتهم إدخال الزائرين إلى حضرة ابن طولون مثل ابن أبى الذؤيب وكان لهم رئيس يسمى رئيس السعاة أشبه برئيس التشريفاتية وقد شغل هذا المنصب رجل اسمه الفارسى ، ويبدو أنه كان بالقصر الطولونى كبير للحجاب شغله نسيم فى عهد أحمد بن طولون وشغله القائد سيمجور فى عهد هارون بن خمارويه ... انظر المغرب ص ١٠٥ ، ١١٢ .

نفسه ، أما باب الميدان فقد خصص لدخول كتائب الجيش الطولونى ، وخاصة الأمير ورجال حاشيته لهم باب الخاصة ، ولا يخرج الأمراء للصلاة إلا من باب خاص أطلقوا عليه باب الصلاة ، ولم تكن هذه الأبواب تفتح كلها إلا فى يوم العيد ، أو فى يوم عرض الجيش أو يوم الصدقة [١] .

ونرى فى المراجع التى أشرنا إليها خصوصاً ابن سعيد [٢] إشارة إلى نوع من البروتوكول الطولونى يشرف على تنفيذه طائفة من السعاة والحجاب لهـــم رئيسهم الذى يأتمرون بأمره . ويبدو أن أحمد بن طولون لم يكن يستقبل الناس إلا فى يوم الخميس من كل أسبوع [٣] ، حين يجلس لاستقبال من يريد استقباله من الزائرين أو المتظلمين . ويبدو أن الطولونيين كان لهم نظامهم الخاص إذا خرجوا من القصر ، وهـــم إذا فعلـــوا ذلك صحبهـــم الجيـــش والحجاب[٤] ، بل كانت تخلى لهم الطرقات ، وابن سعيد [٥] يشير إلى ما كان من إخلاء جسر النيل من العابرين تمهيدا لسير موكب ابن طولون ، ويبدو أن هذه التقاليد قد وصلت إلى القمة فيما أشرنا إليه من مواكب خمارويه ، فهذا الامير هو الذى أضفى على هذه التقاليد كلها طابع الروعة والفخـــامة والأبهة ، بل كانت للطولونيين مراسيم معينة حتى عندما يخرجون للصلاة فى المسجد الجامع . فقد أشار البلوى [٦] إلى دار الإمارة التى بناها ابن طولون على مقربة من مسجده الجامع ، وما كان من فرشها وتعليق الستور « وحمله إلى خزائنها الآلات والأوانى التى يحتاج إليها » ، كانت هذه الدار تعد يوم الجمعة لاستقبال الأمير حيث « يجدد طهره ويبدل ثيابه ويتبخر [٧] » فإذا حان وقت الصلاة خرج منها إلى مقصورته ثم يعود إليها بعد الفراغ منها .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦١ .
(٢) المغرب ص ١٦٢ .
(٣) نفس المصدر ص ١٠٠ .
(٤) نفس المصدر ص ٩٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٩٧ .
(٦) سيرة ابن طولون ص ١٨٢ .
(٧) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٨٣ .

كانت هذه التقاليد تتمشى تماما مع ثراء الطولونيين وارتفاع شأنهم ومع الاستقلال الذى حققوه ، ولم تر أميراً من أمراء مصر السابقين يصبح له مثل هذا البلاط ومثل هذه التقاليد .

ويبدو أن هذه التقاليد بقيت ماثلة فى الأذهان دهراً طويلاً بعد سقوط الطولونيين ، فمحمد بن طغج الإخشيد بعد أن تحقق له من الاستقلال مثل ما تحقق للطولونيين ، أحب أن يسير على نهجهم ، وأن يحيى تقاليد بلاطهم « أمر بالتأهب للعرض ليلة الفطر على رسم أحمد بن طولون [١] » ، وقلد الكثير من مظاهر حياتهم ، فكان لا يخرج إلا وقد زين فرسه وارتدى فاخر ثيابه وخضب رجاله لحاهم بالحناء .

وفى هذا القصر الطولونى نستطيع أن نصور إلى حد ما جوانب من الحياة الخاصة لأحمد بن طولون وولده خمارويه معتمدين على الإشارات العابرة والشذرات المتناثرة التى وردت فى كتب من أرخ للطولونيين وعصرهم . فقد كان أحمد بن طولون مثلا مشغوفاً بمجالسه الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن الحكم وغيره [٢] ، ويبلغ به ولعه بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل إلى مجلس القاضى بكار بن قتيبة طلبا للمزيد ، كما نلمح مما رواه صاحب المغرب عزوف ابن طولون عن مجالسة الجوارى والنساء أو الإغراق فى أمثال هذه المتعة [٣] . وليس معنى هذا أن ابن طولون قد انقطع للنسك والعبادة أو صرف وقته كله فى تدبير شئون الدولة ، فكان يقبل على جوانب من المتعة بقدر . كان يخرج فى بعض أوقات الفراغ « إلى مستشرف ببعض البساتين لتناول الطعام والتماس الهدوء والخلوة [٤] » ، وكان أحياناً يخرج للصيد ، وكان ولوعا بصيد الحمام واستخدام قوس البندق [٥] ، فكان يخرج إلى المتنزهات لمباشرة هوايته المحببة

---

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) ابن الداية : المكافأة ص ٤٩ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩٣ – ٩٤ . (٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٣٠ .

(٥) واحدتها بندقة وهى ما يقذف به من كرات الحجر أو الزجاج أو المعدن وهو أيضاً القوس الذى يرمى به . انظر المغرب ص ١٠٣ .

وكان فى بعض الأحيان الأخرى يختلف إلى دير القصير [١] حيث « كان يأنس إلى راهب له يسمى أبا أندونة [٢] » ، إما طلبا للمشاورة أو التماسا للخلوة . وكان له فوق هذا كله ميل إلى سماع المطرب من الغناء أو المستظرف من القول وقد أشار ابن الداية [٣] إلى جلسة من هذه الجلسات التى شاع فيها الطرب والغناء حيث جلس أحمد بن طولون يستمع إلى مغنى يسمى كنيز وطلب منه أن يسمعه صوتا لم يسمعه منذ خرج من العراق ، ثم ما شاع فى هذا المجلس من الفكاهة والمزاح .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك ما رواه ابن سعيد من إقبال احمد بن طولون على الشراب فى بعض الأحيان فى معرض حديثه عن الأعرابية المسماة بأم عقبة [٤] ، إذ « دخلت مجلسه وهو مع خواص له يشرب ... وهى فى ذلك حائرة من صفاء كأس بيده ورقة شراب فيه فأمر لها بكأس » ، ثم أدخل هذه الأعرابية على نساء قصره ، وقال لها « لا تعلمى أحداً من حرمى بشرب جرعة نبيذ [٥] » ، مما يدل على أنه كان يشرب خفية .

على أن حياة الأمير الطولونى قد انتقلت من هذا النسك الظاهر إلى الانصراف إلى اللهو والترف والمتعة المسرفة خصوصا فى عهد خمارويه [٦] ، فقد كان منصرفا للجوارى والقيان مغرما بحظية تسمى بوران [٧] ، ويكفى أنه بنى لها دون سواها البيت المعروف ببيت الذهب ، والذى نقش على جدرانه صورته وصور محظياته المحبوبات ، هذا البيت الذى يعتبره أبو المحاسن « من أعجب ما بنى فى الدنيا [٨] » . ولم يقنع بمتعه فى قصور القطائع ، فقد بنى له قصراً بسفح قاسيون قرب دمشق يشرب فيـــــه

(١) وهو دير فى الطريق إلى حلوان على مقربة من المعصرة الحالية . انظر الشابشتى: كتاب الديارات ص ١٨٤ ، والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥٠٢ .

(٢) المغرب ص ١٣٠ .

(٣) ابن الداية : المكافأة ص ٩ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣ .

(٥) ابن سعيد : المغرب ص ١٠٣ .

(٦) الكندى : ص ١٥٧ .

(٧) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢ .

(٨) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٢ .

الخمر [١] . ويكفى أن يساق دليلا على إغراقه فى هذا النوع من الاستمتاع أنه راح ضحية هذه النزوات الطائشة .

وكان ولوعه بالصيد يفوق ولع أبيه ، أغرم أبوه بصيد الحمام ، أما هو فقد أغرم بصيد الأسود ، يروى صاحب النجوم [٢] أنه « ما كان يسمع بسبع ، إلا قصده . هو ورجال عليهم لبود فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابته عنوة وهو سليم ، فيضعونه فى أقفاص من خشب محكمة الصنعة تسع الواحد من السباع وهو قائم ، فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص بين يديه » . ولعل حب الصيد هذا جره إلى الاهتمام باقتناء غرائب الحيوان وإنشاء بيت السباع [٣] الذى أشرنا إليه . وليس أبلغ دلالة على حياة هذا الأمير المترف الغارق فى المتعة ، مما يروى من إنشائه بركة الزئبق ليخلص مما أصابه من الأرق « وجعل فى أركان البركة سككا من فضة ، وجعل فى السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة فى حلق من فضة ، وعمل فرشا من أدم يحشى بالريح ، حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على هذه البركة الزئبق ويشد بالزنانير الحرير التى فى حلق الفضة ... وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش [٤] » . لم يترك خمارويه لونا من المتعة إلا عكف عليه أو مورداً للمسرة إلا ورده . فانظر إلى القطائع بقصورها وجامعها وميدانها وبساتينها وحفلاتها ومواكبها وزحمتها وترف أمرائها ، فأين هذا مما ألفناه فى حياة الفسطاط العاصمة القديمة . أليس هذا كان مصداقا لما قلنا من ميلاد نوع جديد من الحياة المدنية لم يكن مألوفا من قبل ؟ .

ولقد بقيت ذكريات هذه المدينة الزاهية وهذه الحياة الاجتماعية البهيجة زمنا طويلا بعد انقضاء عهد الطولونيين وذهاب دولتهم يتناقلها الناس جيلا بعد آخر « حدث محمد بن يعقوب قال لما كانت ليلة عيد الفطر من سنة ٢٩٢

---

(١) نفس المصدر ص ٦٤ .	(٢) نفس المصدر ص ٦٠ .
(٣) آدم متز : جـ ٢ ص ٢٥٨ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٥ .

تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مثل هذه الليلة من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وشهرة الثياب وكثرة الكراع وأصوات الأبواق والطبول فاعترانى لذلك فكرة وغمت فى ليلتى فسمعت هاتفا يقول ذهب الملك والمتلك [١] » .

ومن التطورات الأخرى التى جدت على المجتمع المصرى فى العصر الطولونى ظهور طبقة اجتماعية جديدة من رجال بنى طولون والمحيطين بهم ، وفدت إلى مصر وأسهمت فى بناء الدولة الطولونية ، وشاركت فى مشروعاتهم ، وأفادت من اتساع رقعة الدولة وتكوين الامبراطورية ووفرة الثراء ، وهى طبقة حاز أفرادها النفوذ الضخم فى هذه الدولة المترامية الأطراف ، واقتنوا الثروات العظيمة التى قومت بملايين من الدنانير أو بمئات الألوف ، وعاشوا عيشة الترف والرخاء فى القطائع أو الفسطاط أو عواصم البلاد المختلفة متشبهين بالتقاليد الاجتماعية للطولونيين .

ولم تشهد مصر من قبل – على ما نعتقد – ظهور مثل هذه الطبقة من الرجال الذين يحفون بقصر الأمير . وإذا كان الوالى فى العصر السابق متواضعاً فى حياته متواضعاً فى نفوذه متواضعاً فى موارده فقد كان معاونوه والمحيطون به متواضعين كتواضعه .

هذه الطبقة تعطينا صورة فريدة عن الدولة الطولونية وتكوينهـا وظروفها . فأفرادها كلهم ، وأغلبهم من العناصر الغريبة التى وفدت مع أحمد بن طولون أو جاءت بعد استتباب الأمر له . وابن الداية [٢] فى كتابه

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٣٢٦ .

(٢) رجال ابن طولون الذين نقل عنهم ابن الداية :

احمد بن دعيم – موسى بن مصلح المعروف بابى مصلح – ابو طالب الخليج – اسحق بن ابراهيم – يوسف بن ابراهيم – اسحق بن نصير العبادى – ابو العباس احمد بن بسطام – احمد بن طغان – الحسن بن مهاجر – احمد بن أين – نسيم – سليمان بن ثابت – سعد الفرغانى – ابو الوزير خالد بن يعقوب – محمد بن ابى – ابن الابرد – موسى بن طونيق .

انظر المكافأة صفحات .

١١ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٥٠، ١٥٦ ، ١٥٩ .

أداء هذه الطبقة ، وعن

. فقد كان بحكم عمل

بق بهؤلاء الناس يمكن

حياتهم الاجتماعية

.

طولونى بعناصره الم

رية فى الدولة ، مث

راد الذين ظهروا فو

كوا فى القضاء عل

فى برقة ، أو منطقة

خمارويه يقربونهم و

الطولونيين وحجاب

ريين مثل الواسطى

يق ، أو من القضا

ى محمد بن عبده

لون وأولاده .

هذه الطبقة إذا أس

الصور الطريفة التى وردت فى كتاب المكافأة لابن الداية ، والتى تكش

جوانب من الثروات العظيمة التى حازوها ، والنفوذ البعيد الذى توفر

---

(١) ابن الداية : المكافأة . صفحات : ١١ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٦٦ ، ٨٩ ، ٩١ ، ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧ .

فهو يشير إلى أن كثيرين منهم كانوا يعيشون فى قصورهم متشبهين بالأمراء الطولونيين متخذين نفس التقاليد الاجتماعية التى شاعت فى أيامهم ، فأبو عبد الله الواسطى كاتب أحمد بن طولون كان له بباب قصره حجاب يثبتون أسماء من يقف ببابه ، ويرفعون هذه الأسماء إليه ليأذن لهم بالمثول بين يديه « انتظرت أبا عبد الله الواسطي كاتب أحمد بن طولون في داره حتى رجع من عند ابن طولون فأوصل إليه بعض الحجاب ثبت من وقف بالباب [1] » .

وكان بعضهم ينفق آلاف الدنانير فى شراء الدور وتأثيثها بأفخر الأثاث ، والمقريزى فى حديثه عن فائق مولى أحمد بن طولون ذكر أنه اشترى دارا بعشرين ألف دينار وأنفق فى تأثيثها مثل هذا المبلغ ، واتخذ من الجوارى والمحظيات نحوا من ثلاثمائة [2] . « ويقال أنه كان لفائق ثلاثمائة فرشة كل فرشة لمحظية مثمنة » . والقواد الآخرون لم يكونوا يقلون عن فائق ثراء ونفوذا ، بل ربما زاد بعضهم عنه اتساع ثروة وعظم نفوذ ، خصوصا فى عهد خمارويه وفى عهد أبنائه الضعاف جيش وهارون ، وأبو المحاسن يتحدث عن الثراء العظيم والجاه العريض الذى توفر لكل من بدر وصافى فى عهد هارون ، فيقول « كان دأبهم المنافسة فى حسن الزى وبسط اليد بالإنفاق فى وجوه البر . وبنى بدر الميضأة المعروفة به على باب الجامع العتيق ، ووقف على القيسارية الملاصقة لها ... وكان صاحب صدقات بدر رجل يعرف بالليث ابن داود ، فكان الشخص يرى المساكين زمرا زمرا يتلو بعضهم بعضاً ينادون فى الطرقات دار الليث دار الليث [3] » .

ولم يقتصر الأمر على كبار القواد بل امتد إلى أوساطهم وصغارهم ، فهذا يوسف بن ابراهيم الكاتب وولده أحمد بن يوسف [4] يبدو فى سعة من

---

(١) ابن الداية : المكافأة ص ٣٢ . (٢) المقريزى : جـ ١ ص ٣٣٠ .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٠١ . (٤) مقدمة المكافأة ص : و ، ز .

العيش يمد يده بالعطاء إلى الفقراء والمحتاجين ، وكان له أتباع يتعصبون له ويفدونه بأنفسهم لما يسديه إليهم من خير . ولما توفى يوسف بن ابراهيم حمل خادم ابن طولون صندوقين فوجد بهما دفاتر جرياته على الأشـــــراف وغيرهم [١].

وانغمس القضاة فى ذلك التيار الاجتماعى الذى شاع فى عصرهم فيذكر الكندى أن القاضى محمد بن عبده بن حرب بنى دارا عظيمة أنفق فى بنائها مائة ألف دينار [٢] .

وكان كثيرون من هؤلاء الرجال المقربين يمنحون الأعطيات الطائلة والمرتبات الكبيرة ، فقد منح أحمد بن طولون الحسن بن مهاجر صاحب البريد آلاف الدنانير ، وخلع على ابن عبدكان وغيره من كبار الموظفين الصلات العظيمة . ويروى صاحب المكافآة [٣] أن أحمد بن طغان القائد منح مرة واحدة ثلاثين ألف دينار ، وكان له فى كل شهر ألف دينار (نزل) (أى عطاء) . وكان القاضى محمد بن عبده بن حرب يتقاضى من خمارويه ثلاثة آلاف دينار فى الشهر [٤] .

ولم تكن موارد هؤلاء الناس قاصرة على الصلات والأعطيات والمرتبات بل كان كثيرون منهم يستغلون الأراضى الزراعية فى مصر ، فيستأجرونها أو يتقبلونها ، أو يشترون الضياع الواسعة ، وأحمد بن يوسف يحدثنا عن نشاطه فى هذا الميدان ، وعن الضياع التى حازها والغلة التى تغلها والثروة التى توفرت له ولأبيه من قبل [٥] .

وليس ببعيد أن يكونوا قد عملوا فى ميدان التجارة أيضاً فتدفقت إليهم عن هذه السبيل الأموال الطائلة .

---

(١) ابن الداية : المكافأة ص ٨٨ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥١٦ .
(٣) ابن الداية : ص ٩٥ .
(٤) الكندى:ص ٥١٦ .
(٥) ابن الداية : المكافأة ص[illegible] .

وكان أصحاب أحمد بن طولون ورجاله يخلعون الخلع على أنصارهم ورجالهم على نحو ما يفعل الأمير نفسه ، فيحدثنا أحمد بن يوسف عن القاسم بن شعبة أنه خلع على أحد الناس « دراعة خز من تحتها جبة ملحم [1] » ، وكان أحمد بن يوسف نفسه يعطى الأموال ويهب الخلع فيقول : « أحضرت بعض مشايخ الضيعة وحملت إليه دراعة خز كحلية ومطرف خز ورداء من خز ذى أعلام وخمسين ديناراً [2] » .

بل ظهرت فى محيط هذه الطبقة أسرات بيروقراطية تمتع أفرادها بكفايات خاصة ، وتوارثوا مناصب معينة كولاية الخراج أو الكتابة وديوان الإنشاء ، ولعبوا دوراً هاما فى الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر . فقد ظهر الماذرائيون وبنو مهاجر .

ولا نريد أن نؤرخ للماذرائيين أو للدور الذى قاموا به فى النواحى الادارية ، إنما نريد أن نعرض للثروات العظيمة التى حازوها ، وللمكانة الاجتماعية الرفيعة التى وصلوا إليها . بدأ ظهورهم فى مصر عام ٢٦٦ هـ [3] ، فى عهد أحمد بن طولون ، حينما تولى جدهم أحمد بن ابراهيم الماذرائى الأطروش الخراج شركة مع على بن الحسين بن شعيب المدائنى ، فلما غضب ابن طولون على المدائنى انفرد الماذرائى بولاية الخراج فى مصر ، وحاز ثقة الطولونيين ، وبرع فى الكتابة والإنشاء [4] ، حتى إذا تم له ما أراد استقدم أفراد أسرته ليشاركوه نفوذه وسلطانه ، استقدم على بن أحمد الماذرائى ليعاونه فى الكتابة والخراج ، وعين الحسين بن أحمد فى إحدى الوظائف ببلاد الشام [5] . ولم ينته نفوذهم بوفاة أحمد بل ارتفع قدرهم فى

---

(١) الملحم نوع ثمين من الثياب . انظر المكافأة ص ٢٢ .
(٢) ابن الداية : المكافأة ص ٤٣ .
(٣) سيدة الكاشف : مصر فى عهد الأخشيديين ص ٣٨ .
(٤) الكندى : ص ٢٤٤ .
(٥) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الأخشيديين ص ٣٨ - ٣٩ .

عهد خمارويه حينما أصبح على بن أحمد الماذرائى كاتب الأمير ووزيره والمشرف على ضياعه وأمواله الخاصة وموضع ثقته [1] ، حتى قتل فـــى الثورة التى أعقبت مصرع جيش بن خمارويه . وتقاسم بنوه النفوذ من بعده ، فكان قد استدعى أبا بكر محمد بن على وأبا الطيب أحمد بن على سنة ٢٧٧. وقد ظل ولده أبو بكر محمد بن على الماذرائى يشرف على الخراج وديوان الإنشاء حتى سقطت الدولة الطولونية .

ونجد فيما ذكره الكندى وابن الداية والمقريزى إشارات إلى ثرائهم الجم وحياتهم الاجتماعية المترفة ونفوذهم البعيد فى الدولة ، فقد استولى على ابن أحمد الماذرائى كاتب خمارويه على ثروة الحسن بن مهاجر عامل البريد فى عهد أحمد بن طولون ، وبلغت هذه الثروة فى رواية ابن سعيد [2] نحوا من مائة ألف دينار على حين قدرها المقريزى بنحو مليون دينار [3] . ولم يكن ثراء أبى على الحسين بن أحمد يقل عن ثراء أخيه على بن أحمد ، الذى نزل به ضيف « فاستدعى الدقاق وقال له بمشتول قدر ستين ألف أردب مـــن القمح [4] » . والمقريزى يعجب من سعة مال هذا الكاتب فيقول « كيف كان له فى قرية واحدة هذا القدر من صنف القمح » .

ويعرض الكندى [5] لما كان من زواج الحسين ابن القاضى أبى زرعة محمد بن عثمان الدمشقى من بنت الحسين بن أحمد ، ولتلك النفقات الطائلة التى أنفقت فى هذا العرس « فكتب الحسين بن أحمد أسامى مائة نفس فى درج ووعدهم بأن يكونوا عنده قبل صلاة الصبح ، فحضروا فأخرج إليهم مائة غلام بمائة قدح غالية ، ومائة قمقم ماء ورد ومائة مشط ومائة مرآة ... ثـم النكاح فخرج مائة غلام بمائة طست ومائة أبريق وعشر موائد [6] » ونشـــرت

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٣١ . (٢) المغرب ص ١٠٧ .
(٣) الخطط جـ ١ ص ٣٣٠ - ٣٣١ .
(٤) المقريزى : جـ ١ ص ٣٣٠ .
(٥) الكندى : ص ٥٢١ . (٦) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٢٦ .

عقد الدنانير ووزعت تماثيل الند والعنبر وطيف عليهم بالطيب والبخــور . « وكان أملاكا ما سمع بمثله وكان العرس بعد ذلك أعظم مــــــن الأملاك [1] ... » .

وتروى عن أبى بكر محمد بن على الماذرائى أخبار فى الثراء والجاه تفوق حد المعقول ، فأشار المقريزى [2] إلى أنه حج اثنتين وعشرين مرة متوالية ، وأنه كان ينفق فى كل حجة مائة وخمسين ألف دينار . وكان ركبه يتألف من تسعين ناقة . أما متاعه فكان يحمل على أربعمائة ناقة ، وكان يصحب معه « أحواض البقل والرياحين وكلاب الصيد ، كأنه خارج فى نزهة . وبلغت جملة ما أنفقه فى خمس حجات مليون دينار . ويفيض المقريزى فى وصف حاشيته وجواريه متعجباً لهذا المال الوفير [3] .

وظهرت أسرة بيروقراطية أخرى هى أسرة بنى مهاجر [4] ، وهم أيضاً من أهل فارس من نسل عبد الحميد الكاتب . خدم أربعة من أفراد هذا البيت حسين الخادم فى بلاد الشام ، ثم التحق الحسين بن مهاجر بخدمة أحمد بن طولون وتولى أعمال البريد ، وأصبح من أقرب المقربين إليه . واستخدم معه ثلاثة من إخوته : علياً وأبا القاسم وعيسى ، تولوا بعض المناصب البارزة فى الدولة ، ولكن الحسن كان أوسعهم نفوذاً وأوفرهم ثراء ؛ وقد رأينا كيف استصفى خمارويه أمواله التى بلغت نحواً من مليون دينار [5] . وكان بنو مهاجر يعيشون فى مصر وينهجون نهج الماذرائيين فى حياتهم الاجتماعية ، وفى إقبالهم على الترف .

ويمكننا أن نضيف إلى أفراد هذه الطبقة طبقة الرأسماليين من كبار التجار الذين كانوا يساهمون فى الحركة التجارية العظيمة بين مصر وكافة بلاد العالم الإسلامى . وكانت أكثر التجارات ربحاً تجارة البــز (الحرير)

---

(١) نفس المصدر والصفحة . (٢) المقريزى : جـ ١ ص ٣٣١ .

(٣) المقريزى : جـ ١ ص ٣٣١ .

(٤) Les Tulunides p. 286 - 287 .

(٥) فى رواية البلوى مائة ألف دينار : انظر : البلوى/ص ١٤٤ .

وتجارة العطارة ، ومن أمثال القرن الثالث الهجرى « إن أحسن التجارة تجارة البز وأحسن صنعة صنعة المرجان [1] » . وكان ابن مجاهد يقول « من قرأ لأبى عمرو وتمذهب للشافعى واتجر فى البز وروى شعر ابن المعتز فقد كمل ظرفه [2] » . فليس عجيباً أن ينحو هؤلاء التجار المياسير نحو كبار رجال الدولة فى حياتهم المترفة الناعمة ، وقد أعطانا ابن الداية صورة طريفة لواحد من هؤلاء التجار الكبار من أصحاب أحمد بن طولون واسمه هارون بن ملول ، قال « لما مات أبى ورثت عنه مالا جما ومستغلات نفيسة ، وكان يتصرف على زى التجار . ويمنعنى من التخرق (كثرة البذل والإنفاق) والسرف فى الهيئة ، فعمدت إلى أثواب وشى سعيدى كانت فى المتاجر التى خلفها والدى ، فقطعتها وقطعت لخدم أرتبطهم للتجارة من الملحم والديباج ما لا يتسمع به أحد من أبناء الترف ، وجلست فى الوشى وقام الغلمان بين يدى [3] » .

ونحن نريد بقدر ما تنطق به الوثائق أن نعرض لبعض التطورات التى دخلت على الحياة الاجتماعية لجماهير الشعب المصرى فى ذلك العصر ، ولأهم العوامل التى أثرت فى هذه الحياة وأعطتها طابعاً معيناً .

ونعتقد أن انتشار الاسلام على نطاق واسع كان من أهم العوامل التى أثرت فى الحياة الاجتماعية لجماهير الناس [4] . فقد ترك أثراً واضحاً فى نظام الأسرة ، وفى العادات والتقاليد والمواسم والأعياد والأزياء وفى الأوضاع الاقتصادية للفرد .

فلنعرض لموضوع انتشار الإسلام وللنتائج الهامة التى تركها فى الحياة الاجتماعية . والحقيقة البارزة من الوثائق التى بين أيدينا أن النصف الأول من

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٨٣ .
(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٨٣ .
(٣) ابن الداية : المكافأة ص ٣٤ - ٣٥ .
(٤) انظر الكتاب ص ٥٤ .

القرن الثالث الهجرى شهد انتشاراً للإسلام على أوسع مدى ، وشهد حركة إسلامية بعيدة الأثر ظهرت آثارها فى أكثر من ناحية . ويمكننا أن نسوق لتأييد ذلك أكثر من دليل . ففى ذلك الوقت على وجه التحديد انخفضت مقادير الجباية من الجزية المفروضة على غير المسلمين ، تتضح هذه الحقيقة من الإحصائية التى أوردها المقريزى فى كتابه الخطط ، فهى تشير إلى تناقص مطرد واضح فى مقادير الجباية كلها : فقد كانت فى عهد عمرو بن العاص ١٢ مليون دينار وفى عهد عبد الله بن سعد ١٤ مليونا ، وفى عهد هشام بن عبد الملك بلغت أربعة ملايين بعد إصلاحاته الإدارية وإعادته مسح الأرض ، ثم اطرد هذا التناقص من بعد ذلك [١] حتى وصل إلى الغاية فى هــذه الفترة . ومعنى هذا كله ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام حتى أن الجزية بدأت تختفى كباب من أبواب الإيرادات .

وفى هذا الوقت أيضاً خفتت ثورات المصريين التى ظلت منذ أواخر القرن الأول الهجرى تظهر ثم تختفى ، اختفت تماماً فلم يعد لها ذكر « ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان وغلبهم المسلمون على عامة القرى [٢] » . وخفوت هذه الثورات إنما يدل على تناقص أعداء الثائرين بازدياد دخولهم فى الإسلام .

ومن هذا الوقت على وجه التحديد أسقط العرب من ديوان العطاء فى مصر وفقدوا امتيازاتهم العسكرية والسياسية والاقتصادية ، وبدءوا النزوح إلى الريف للاستقرار فيه والاختلاط بالمصريين وتشجيع الحركة الإسلامية النامية . « وكان من خبر أراضى مصر بعد نزول العرب بأريافها واستيطانهم وأهاليهم فيها واتخاذهم الزرع معاشا وكسبا وانقياد جمهور القبط إلى إظهار الإسلام واختلاط أنسابهم بأنساب المسلمين لنكاحهــــــــم المسلمات [٣] » .

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٩٤ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٢ .

ويمكننا أن نربط بين انتشار الإسلام وبين انتشار الثقافة العربية فى البلاد ، إذ كلما مضت هذه الثقافة في طريقها المرسوم ، وتغلغلت فى نفوس الناس كلما أدى ذلك إلى كثرة الداخلين فى الإسلام . والمعروف أن الحركة العلمية فى مصر قطعت خطوات بعيدة فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان هذا إيذاناً بأن تحتل مصر مكانا لائقا فى ميدان الثقافة العربية [1] .

وفى هذه الفترة أيضاً بدأت ظاهرة تمييز المسيحيين عن غيرهم فى الزى بناء عن المرسوم الذى أصدره الخليفة العباسى المتوكل ، والمنطق يقضى بأن تميز الأقلية المسيحية عن الغالبية التى دخلت فى الإسلام واحتفظت بزيها وعاداتها وتقاليدها .

ولا يفوتنا أن نشير إلى ما تظهره وثائق البردى المعاصرة من غلبة المسلمين على وظائف العمد فى البلاد « نزغت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليهم [2] » .

ثم تأكد هذا التطور فى العصر الطولونى فلم نسمع بثورة قام بها المسيحيون أو مقاومة الدولة لتيار مسيحى قوى ، ولم نجد فيما ذكره البلوى وابن الداية أو غيرهما من مؤرخى العصر الطولونى أية إشارة إلى الجزية كباب من أبواب الإيرادات [3] ، إنما كان الطولونيون منصرفين إلى الخراج ومضاعفته والأرض الزراعية وزيادة غلتها ، بل نكاد نحس بأن هذه الحركة الإسلامية فى العصر الطولونى لها طابع واضح ، فقد أصبح المسلمون غالبية ما فى ذلك شك ، ولكن لم تكن غالبية عظمى ، وأصبح غير المسلمون أقلية ، ولكنها أقلية كبيرة العدد كبيرة الأثر [4] ، فقد كانت منهم جاليات كبيرة العدد فى مدينة الفسطاط والقطائع اشتركت فى الصلوات التى أقيمت دعاء لابن طولون بالشفاء ، كما اشتركت فى جنازة أحمد بن

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ص ٩٦ .
(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٩ .
(٣) انظر الكتاب ص ٥٤ . (٤) الكتاب ص ٥٤ .

طولون . ونكاد نحس مما ذكره ابن الداية فى كتاب المكافأة أن هذه الأقلية العظيمة كان لها نفوذ واسع المدى فى الريف ، وأن زعماءها وأعيانها كانت لهم مكانتهم الاجتماعية فى البلاد ، فقد أشار إلى أحد كبار الملاك فى مصر بقوله « كان ببعض أرياف مصر نصرانى من أهلها كثير المال فاشى النعمة سمح النفس وكانت له دار ضيافة وجرايات واسعة على ذوى الستر بالفسطاط »[1] وهى إشارة لا تخلو من التقدير والاحترام .

ونكاد نحس من النزر القليل من الوثائق التى بين أيدينا أن المجتمع الإسلامى فى عصر الطولونيين لم تتحدد معالمه بصورة قاطعة ، إنما كان لا يزال فى طريقه نحو التطور والتشكيل ، فأوراق البردى التى ترجع إلى العصر الطولونى تشير إلى قوم أسلموا ولا زالوا يحتفظون بنسبهم المسيحى إلى جانب أسمائهم العربية . فالوثيقة رقم ١١٩ [2] بمجموعة جروهمان تتحدث عن رجل اسمه « حسين بن يحنس » الذى أسلم ، فلم يتغير نسبه القديم ، كما تشير هذه الوثائق إلى ظاهرة زواج الذميات بالمسلمين ، وهى ظاهرة شاعت فى ذلك العصر إلى حد بعيد مثل ما ورد فى الوثيقة رقم ٤٨ من مجموعة جروهمان من زواج « بونة ابنة حليصى على زوجها يزيد بن قاسم »[3] .

ثم ما تظهره روايات المقريزى [4] من احتفال الشعب المصرى فى عصر الطولونيين بالأعياد المسيحية احتفالا رائعا مهيبا يشترك فيه المسلمون والمسيحيون على حد سواء ، فأشار إلى الاحتفال بيوم أحد الشعانين ، وهو يوم « كبير للعامة وكان الرسم بمصر وسائر البلاد أيضا أن تزين الكنائس فى هذا العهد بأغصان الزيتون وقلوب النخل ويفرق منها على الناس على سبيل

---

(١) المكافأة ص ٦٨ .

(٢) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ١ وثيقة رقم ٤٨ .

(٣) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ١ وثيقة رقم ٤٨ .

(٤) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٧ .

التبرك » [1] . أو الاحتفال بالخميس المقدس أو خميس العهد ، وإقبال الناس على الاحتفال به إقبالا عظيما خصوصا أهل الاسكندرية ، الذين كانوا يخرجون إلى المنارة بمآكلهم فمنهم من يذكر الله ومنهم من يصلى ومنهم من يلهو .

وكانت الدولة تشارك الشعب الاحتفال بيوم الغطاس « فيركب متولى الشرطة (السفلاتية) ، ليلة الغطاس فى موكب كبير وتوقد بين يديه الشموع الموكبية والمشاعل فيطوف الشوارع [2] » .

ومن الأعياد التى اشترك فى الاحتفال بها النصارى والمسلمون على حد سواء « عيد الخروج لسجن يوسف » بالجيزة ، وكانت عادة العامة أن يطوفوا قبل الخروج للسجن فى الأسواق بالطبول والبوقات ليجمعوا من التجار مـــا ينفقونه فى خروجهم . أو مثل الاحتفال بعيد الشهيد فى الثامن من مايو وخروج الناس إلى أرض شبرا للاحتفال به على نطاق واسع [3] .

ويشير المقريزى كذلك إلى احتفال الشعب المصرى كله احتفالا عظيما بعيد النيروز « وكان العامة فى مصر ينتخبون رجلا يسمونه أمير النيروز فيطلى وجهه بالدقيق أو الجير ، ويركب فى الشوارع على حمار وعليه ثوب أحمر أو أصفر ويسير ومعه جمع كبير » . وقد ظل المصريون يحتفلون بهذا العيد حتى أوائل القرن الخامس الهجرى .

ولا يعنى هذا كله إلا أن المصريين الذين دخلوا فى الاسلام حديثا لم يكونوا قد تخلوا بعد عن تقاليدهم الاجتماعية إنما استمروا يحتفلون بالأعياد القديمة على نحو ما كانوا يفعلونه من قبل إلى جانب احتفالهم بالأعياد الإسلامية المعروفة ، ثم مشاركة الدولة فى هذه الاحتفالات كانت مشاركة لعواطف أقلية كبرى من أهل البلاد لها دورها الواضح فى الحياة العامة .

---

(1) المقريزى : جـ ١ ص ٤٥ .
(2) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٨٣ .
(3) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٨٥ .

ونعتقد أن الهوة لم تكن سحيقة بين الأغلبية من المسلمين والأقلية من غيرهم بل كان التعاون بينهم واضحا . فهذا الثرى النصرانى الذى يشير إليه ابن الداية [1] يستخدم المسلمين فى ضياعه ومزارعه ، ويحسن إليهم ولا يأنف من أن يرحل إلى بغداد حيث أصدقاؤه من المسلمين فتطيب إقامته فيها ، بل لا يأنف أن « يكتب ببغداد حجة أشهد فيها على نفسه أن أسهمه فى جميع الضياع التى فى يده لهذا الرجل الذى كان هرب وصار بها إليه . ورجع النصرانى إلى الفسطاط فجدد الشهادة له فيها فلما توفى النصرانى أقرها فى يد أقاربه » .

ومما تجدر الاشارة إليه أن وثائق البردى من هذا العصر كانت تحمل آثارا واضحة للجمع بين التقاليد الإسلامية والتقاليد المسيحية ، فالوثيقة رقم ١٠١ من مجموعة جروهمان مؤرخة بالتاريخين الهجرى والقبطى [2] .

ورغم هذا فإن انتشار الإسلام المطرد وتفوق المسلمين فى العدد والنفوذ ، جعل أهل الذمة فى مصر يؤلفون طبقة اجتماعية مستقلة تبعد الشقة بينها وبين طبقة المسلمين تدريجيا . وتكشف لنا بعض الوثائق الطولونية عن جوانب من حياة أهل الذمة فى ذلك العصر ، فيبدو من المؤكد أن أفراد هذه الطبقة كانوا يحسنون العربية فهما وقراءة ، وإلا لما أصبحت معاملاتهم كلها تجرى بهذه اللغة ، فالوثيقة رقم ١٢٢ [3] من مجموعة جروهمان المؤرخة بسنة ٢٧٢ ورد فيها ما نصه « إقرار دانيال بجميع ما فى هذا الكتاب بعد أن قرىء عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه » ، ثم كانت وثائقهم كلها التى وردت فى هذه المجموعة أوفى غيرها محررة باللغة العربية ، حتى عقود الزواج بين المسيحى والمسيحية لم تكن تكتب إلا باللغة العربية ولنضرب مثلا بالوثيقة رقم ٤١ وهى عقد زواج تم فى مدينة أشمون بين من يسمى يحنس بن شنودة وبين زوجة له من نفس هذا الدين [4].

---

(١) المكافأة ص ٦٨ .

(٢) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ٢ ص ١١٦ .

(٣) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ٢ ص ١٧٠ . (٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ٨٥ .

ويبدو مما كتبه مؤرخو العصر الطولونى أن أفراد هذه الطبقة لم يفقدوا امتيازاتهم القديمة دفعة واحدة ، إنما كانوا يحتفظون بقدر كبير منها ، وكانت لا تزال بيدهم الخبرات الفنية والصناعية [١] . ولا يخفى ما نعرفه من استعانة أحمد ابن طولون ببعض المهندسين الأقباط فى أعماله العمرانية والإنشائية ، والتماسه المشورة من حكمائهم ورهبانهم ، فقد وطد صلته بمن يسمى أبا أندونة الراهب بدير القصير [٢] وبقيت بيدهم فى العصر الطولونى بعض الوظائف المالية الكبرى فى البلاد فالأستاذ Karabacek [٣] يشير إلى رجل يسمى كيرلس من موظفى الإدارة المالية فى فجر حياة ابن طولون فى مصر . وليس من المعقول أن يستغنى أحمد بن طولون عن خبرتهم المالية والإدارية ، بل هنالك ما يدل على أنهم تسربوا إلى حياة أحمد بن طولون الخاصة ، وكان منهم من غدم فى قصره . فقد روى صاحب المغرب [٤] أن ندوسة « كان خادما نصرانيا لابن طولون وكان ثقة عنده فى جميع أحوال داره » . ولعله كان يشغل وظيفة الخازن . ويشير البلوى [٥] إلى رجل آخر يسمى ابن أبىّ الذؤيب ظفر بنفوذ أبعد مما ظفر به ندوسة فقد كان من حجاب القصر يسعى بالكتاب والعاملين ، وكان يلازمه كظله ، وربما أكل معه أو جالسه أو نادمه ، وكان ابن طولون يطمئن إليه ويستشيره فى كثير من الأمور .

ولم يكن المسلمون فى هذا العصر يأنفون من مخالطة الرهبان فى أديرتهم فقد كانت هذه الأديرة ببساتينها الفسيحة « وقاعات شرابها الباردة مجمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات [٦] » . ومن أقرب هذه الأديرة

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٨١ - ١٨٥ .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١١٨ .

(٣) انظر البلوى : ص ١٦١ . « فبينا أبو بكر أحمد بن إبراهيم الأطروش يوما فى الديوان يناظر العاملين إذ نظر إلى نطرانى كان يعرف باسحق كاتب جرجان .... »

Les Tulunides p . 212 - 213

(٤) ابن سعيد : ص ١٠٢ .

(٥) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢١٧ .

(٦) آدم متز : جـ ٢ ص ٢٧٧ .

إلى نفوس المعاصرين من المسلمين دير القصير على جبل المقطم . وقد روى البلوى عن لسان رهبان هذه الدير قولهم « كثيراً ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون ويخلو في بعض قلالينا [1] » وظهر عطفه على رهبان هذا الدير فى أكثر من مناسبة . وفي البلوى أيضاً إشارات إلى أن أحمد بن طولون كان يضفى على الرهبان حماية خاصة فقد بلغه أن أحد قواده استصفى من أحد الرهبان خمسمائة دينار فأمر بردها إلى صاحبها [2] ، ولام هذا القائد لوما عنيفا . واختلف خمارويه إلى هذا الدير أكثر مما اختلف أبوه ، وقد روى أنه بنى بأعلاه غرفة لها أربع طاقات « وكان كثير الغشيان لهذا الدير معجبا بالصورة التى فيه يستحسنها ويشرب على النظر إليها [3] » .

وإذا كان حب أحمد بن طولون لجمع المال قد جره إلى مصادرة أموال بعض رجال الدين ، فإنه كان فى كثير من المناسبات يظهر عطفاً على المسيحيين وكنيستهم ، مثال ذلك ما يرويه صاحب النجوم [4] من احتراق كنيسة مريم بدمشق ومن تبرع أحمد بن طولون بسبعين ألف دينار من ماله لإغاثة المنكوبين وقد أشرنا إلى ما كان من سياسة أحمد بن طولون القاضية بالتقرب من أهل البلاد من المسلمين والمسيحيين ، والاعتماد على شعب مصري موحد لتوطيد دعائم الاستقلال الذى بناه .

وليس ببعيد أن يكون اليهود قد أفادوا من التسامح أو من الرخاء الذى شاع فى عصر بنى طولون ، ويذكر آدم متز [5] أن اليهود برعوا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين بالاتجار فى العملة ، وجنوا من وراء ذلك الأرباح العظيمة ، وأن يهود مصر كانوا ذوى ثراء عظيم حتى أنه لما فرضت الحكومة على طريق الاسكندرية ضريبة باهظة باع لليهود جزءاً من أملاك الكنيسة وكان اليهود يشتغلون بالصيرفة فى أسواق الفسطاط والقطائع .

---

(١) البلوى:ص ١١٨ . (٢) نفس المصدر ص ٢٠٦ .
(٣) المقريزى:جـ ٢ ص ٥٠٢ . (٤) أبو المحاسن:جـ ٣ ص ١٣ .
(٥) الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٧٧ .

بقى أن نعرض للقبائل العربية فى مصر وحياتها الاجتماعية . كان هذا العصر فى الحقيقة مرحلة هامة فى تاريخ القبائل العربية فى مصر ، هذه القبائل التى كان تيارها الدافق يفد إلى البلاد منذ الفتح العربى حتى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى [١] الذى كان عصر اضطراب فى حياتهم بعد حرمانهم من العطاء فى عهد المعتصم سنة ٢١٦ هـ [٢] وبعد المعارك العنيفة التى نشبت بينهم وبين ولاة بنى العباس وأريقت فيها دماؤهم وفقدوا زهرة شبابهم ، ولم يجدوا بدا من الرضوخ للأمر الواقع .

وبقيت بعض سلائلهم بالفسطاط طوال العصر الطولونى ، وكان أحمد بن طولون يستشيرهم ويجالسهم ويحسن إليهم [٣] . غير أن الغالبية العظمى من القبائل العربية كانت تنزح إلى الصعيد نزوحاً مستمراً ، ثم تتجه نحو حدود النوبة . خرجت قبيلة جهينة اليمنية فاستقر بها المقام أول الأمر بوسط الصعيد ، ثم نزحت جنوباً إلى أسوان ثم إلى بلاد النوبة . وكذلك فعل بنو كنز وهم ربيعة ، وفدوا إلى مصر فى خلافة المتوكل ، واستقروا بأعلى الصعيد أو سكنوا بيوت الشعر فى البرارى الجنوبية على تخوم بلاد النوبة . وإلى جانب هؤلاء نزحت بطون من فزارة فاستقرت بالصعيد ، ثم أوغلت نحو الجنوب حتى اقتربت من الحدود الجنوبية [٤] .

ويبدو أن كثيراً من هذه القبائل العربية النازحة قد تمركزت فى عهد بنى طولون فى منطقة الصعيد الأعلى على تخوم بلاد النوبة ، ونعتقد أنها كانت من وراء الفتن والثورات الداخلية التى شهدها العصر الطولونى الأول . فقد كانت ثورات ابن الصوفى العلوى قرب مدينة إسنا سنة ٢٥٣ ، وثورة العمرى وأبى روح من ورائها قبائل عربية تدفعها وتحركها وتريد أن تفيد منها [٥] .

---

(١) المقريزى : جـ ١ ص ٨٠ .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٧ .

(٣) Les Tulunides p. 219.

(٤) حسن أحمد محمود : الاسلام فى افريقيا ص ١٠٤ .

(٥) انظر الكتاب صفحات ٣٨ - ٤٠ .

وقد استطاع أحمد بن طولون أن يقضي على هذه الحركات جميعاً ، فكان ذلك إيذانا بإذعان القبائل العربية فى الصعيد لنفوذه . حتى القبائل العربية التى لم ترتض الرحيل صوب الجنوب مقيمة فى الدلتا أو فى الصعيد الأدنى والأوسط تبدو فى عصر بنى طولون فى مرحلة انتقال . كانت فى بداية اختلاطها بأهل البلاد واستقرارها بريف مصر . الدليل على هذا ما ورد فى كتاب المكافأة [١] من عبث العرب القيسية بمديرية بنى سويف وامتداد نفوذهم حتى الجيزة . وقد كان القيسيون قد تركزوا فى منطقة الحوف منذ أيام هشام ابن عبد الملك . والرحلة التى قام بها ابن الداية من مدينة أهناس حتـــــى الجيزة ، واختراقه مضارب الأعراب تدل على أنه كان يخترق ديار جماعات لم تكن قد استقرت استقراراً كاملا ، وأنها كانت تحترف السلب والنهب ، وتفرض الإتاوات على المسافرين وتقوم بخفارتهم وتأمين تنقلاتهم [٢] .

على أن ثمة وثائق طولونية أخرى تدل على استقرار فريق من العرب فى بعض مدن مصر واستطابتهم الحياة المدنية ، فالوثيقة رقم ٣٨ لسنة ٢٥٩ من مجموعة جروهمان [٣] تظهر أن بطوناً من قريش كانت تقيم فى مدينة أشمون وكانت بعض البطون الأخرى تسكن أعمال الأشمونيين .

ويبدو أن الطولونيين لم يهملوا هذه القبائل العربية فقد أدخل شبابها فى الجيش الطولونى للمرة الأولى فى عهد أحمد بن طولون ، أما خمارويه فقد لجأ إلى عرب الحوف وانتقى منهم فرقة المختارة التى لعبت دوراً هاماً فى حروبه فى بلاد الشام ، كما اختار منهم فريقاً من حرسه الخاص .

* * *

---

(١) ابن الداية:ص ٣٧ .

(٢) المكافأة ص ٣٧ .

(٣) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ٢ ص ٧٤ .

الحياة الاقتصادية

عرضنا للحياة الاقتصادية لا يقصد به دراسة السياسة الاقتصادية للدولة [1] ، فقد عرضنا لها من قبل عند كلامنا عن سياسة أحمد بن طولون في تدعيم الاستقلال ، ورأينا هذه السياسة مطبوعة بطابع الحركة الإستقلالية التى ظهرت فى مصر ، ورغبة الأمراء فى النهوض باقتصاد مصر القومى ، ليكون عدتهم فى إتمام الاستقلال وتثبيته والدفاع عنه . وقد عرضنا للأموال الطائلة التى أنفقها ابن طولون فى إنشاء الجيش وبناء الأسطول ورشوة الحكام فى بغداد ، والأموال الطائلة التى تركها بعد وفاته ، كما عرضنا لنفقات خمارويه لمسالمة الخلافة ومصاهرتها ، ولم تتوفر لهم هذه الأموال إلا عن طريق انصرافهم إلى تنمية وسائل الإنتاج والنهوض باقتصاد مصر بقدر المستطاع .

والمقصود هنا على وجه التحقيق دراسة نتائج هذه السياسة الاقتصادية فى تشجيع وسائل الإنتاج الزراعى والصناعى والتجارى ، وما أدى إليه ذلك من شيوع الرخاء فى البلاد ، وارتفاع مستوى المعيشة ومضاعفة الدخل القومى للدولة ، وزيادة الإنتاج ، كل هذه أمور تترك أثرا بعيدا فى الحياة الاجتماعية لكافة الناس ، وتترك أثراً عميقا فى حضارة العصر بمظاهرها المختلفة .

فارتفاع مستوى الدخل وانتعاش الأحوال الاقتصادية يساعد على بناء مجتمع سليم البنية مبرأً من العلل الاقتصادية ، مجتمع فيه استقرار وطمأنينة وثقة . وتوفر الأموال فى أيدى الناس يدفعهم إلى الأخذ بأسباب الترف فى المأكل والملبس ، وتدفعهم إلى اقتناء الطريف من الأشياء . وتضفى على حياتهم لونا من البهجة والمتعة . وليس من شك فى أنه فى الأوساط المترفة الثرية تترعرع الفنون ، وتصقل الأذواق ، ويقبل الناس على صنوف المتعة ويأنسون إلى الراحة .

(١) انظر الكتاب صفحات ٤٧ – ٥٤ .

وسنحاول على قدر ما تسمح به الوثائق أن نعرض لمظاهر الإنتاج الزراعى فى ضوء ما ذكرناه مبينين أثر السياسة العامة للدولة فى زيادة الإنتاج وشيوع الرخاء وأثر كل من الإنتاج الزراعى والصناعى والتجارى فى رفع شأن المستويات الاجتماعية المختلفة .

وقد عرضنا لانصراف ابن طولون [1] إلى العناية بالزراعة والنهوض بها باعتبارها المصدر الرئيسى للدخل القومى . ورأينا صدى هذه العناية فى اهتمامه بالخراج ، فأصبحت جبايته خاضعة له تماما ، بعد أن كانت خاضعة للخلافة مباشرة . ثم ما كان من محاولة ضبط الجباية بكافة السبل باستخدام الموظفين المعروفين بالكفاية والنزاهة ، ثم مراقبتهم بكافة السبل الممكنة والحيلولة بينهم وبين ما درجوا عليه من الإثقال على الزارعين والتضييق عليهم ، هؤلاء الجباة الذين عرض البلوى للون من مظالمهم - رغم هذه الرقابة الشديدة التى فرضها ابن طولون - فى حديثه عن الفلاح الكهل الذى جاء ابن طولون متظلما من وكلاء عامل الخراج « ما ترك لى وكيل ابن دشومة بذات الساحل شيئا أرجع إليه ، وكنت مستوراً فهتكنى وكنت غنيا فأفقرنى » حتى صرت بين الزارعين مرحوما فقيراً [2] » . بل امتدت هذه الرقابة إلى المتقبلين فلم تكن الدولة تتهاون معهم فى متأخرات الخراج ، فإذا وضح عجز أحدهم عن أداء ما عليه بيعت داره أو بيعت أملاكه وفاء لما طولب به من أموال [3] .

وقد تجاوز اهتمامه مجرد العناية بالخراج ومراقبة جبايته ، بل كان هدفه الأول رفع مستوى الإنتاج الزراعى بكافة السبل ، وإشاعة الرخاء والطمأنينة فى البلاد . والمجتمعات الرخية المطمئنة هى الأقدر على الوفاء بالتزاماتها المالية ، ودفع المستحق من الأموال فى مواعيدها المقررة . وكانت حمايته للفلاحين من ظلم الجباة وعسفهم خطوة هامة فى هذا السبيل . ولكنه أضاف إليها قضاءه على الفتن والثورات الداخلية وإصلاح الهيئة الإدارية . وأصبح الفلاحون فى مقدورهم أن ينصرفوا إلى الإنتاج متفيئين ظل هذا الاستقرار .

---

(١) انظر : الكتاب ص ٤٧ - ٥٤ . (٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٩ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٠٨ .

والوثائق تكشف لنا عن جهود قام بها أحمد بن طولون وخلفاؤه فى سبيل مضاعفة الإنتاج الزراعى وتنشيطه بكافة السبل . فقد كان همهم الأول الرفق بالفلاح إلى أبعد الحدود ، فهو أداة الإنتاج بل سبيله الواحد [1] « إن الضياع تشبه البستان والمزارعون شجر ، فإن رفق بهم وأحسن القيام بأمرهم ورعوا بإصلاحهم طلعت الثمرة ونمت وزكت وإن لم يفعل ذلك هلكت [2] » .

وإذا كانت شفقته بالفلاح قد وضحت على هذه الصورة ، فإنه عمل بوسائل أخرى على تمكين هذا الفلاح من التجويد فى فلاحة الأرض ورفع مستوى الإنتاج عن طريق تقديمه طائفة من الخدمات العامة التى لا غنى عنها ، مثل العناية بالرى إلى أبعد الحدود . وقد ذكرنا كيف أن عنايته بوسائل الرى فاقت من سبقه من الولاة [3] . وفى المراجع إشارات إلى تطبيقه نظام السخرة فى تحسين وسائل الرى من شق الترع وإقامة الجسور ، وأنه كان يسخر الناس ويسخر دواب الحمل فى إتمام هذه المشروعات [4] العمرانية الكبرى ، ونستخلص مما ذكره البلوى أن مثل هذه المشروعات العمرانية لم تكن الخزانة تتحمل عبئها وحدها ، بل كان الشعب يساهم فيها ، فكانت تفرض على القرى ضريبة تسمى ضريبة « العمارة » [5] . هذه الضريبة يبدو أنها كانت تتراوح زيادة ونقصاناً وفقاً لمكانة الفرد ، أو وفقاً لثروته ، فالفلاح الذى شكا إلى ابن طولون كان مطالبا بخمسين ديناراً خفضها الأمير إلى عشرين ، ونعتقد أن مقدار هذه الضريبة كان يتوقف على مساحة الأرض التى بحيازة الفلاح . وكان الإعفاء من مثل هذه الضريبة يعتبره الفلاحون الموسرون حطا من كرامتهم . روى البلوى عن لسان ابن طولون قوله لذلك الفلاح « يا شيخ لولا أن حط العمارة عنك يحط من منزلك فى بلدك لحططتها [6] » .

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٩٠ .
(٢) نفس المصدر والصفحة .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٣٦ .
(٤) البلوى : ص ١٩٩ . (٥) نفس المصدر ص ١٩٠ .
(٦) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٩٠ .

وقد كشف البلوى عن ناحية أخرى من هذه السياسة الزراعية الهادفة إلى رفع مستوى الإنتاج بكافة السبل ، فأشار إلى أن الدولة كانت تمد الفلاح بحاجته من البذور والآلات الزراعية والسائمة ، ويبدو أنها كانت تتقاضى أثمان هذه الخدمات بعد انتهاء المحصول . وكانت تعفى الفلاحين من سداد ثمنها إذا وضح عجزهم « ووهب له خمسين فدانا يزرعها ما أحب وتقوية من كل سنة ولا تأخذ منه التقوية ولا تسترجع وجعل ذلك كالصدقة له [1] » .

وقد وضحت هذه العناية الفائقة فى إقطاعات أحمد بن طولون ومزارعه الخاصة التى كانت تدر عليه دخلا عظيما . وكان دخل هذه المزارع وهذه الإقطاعات يخصص لنفقاته ونفقات مطابخه ، بل كان غلة بعضها لمساعدة أهل طرسوس [2] وقد امتدت هذه العناية الفائقة برفع مستوى الإنتاج الزراعى من الدولة إلى كبار الملاك وأصحاب الإقطاعات والمتقبلين [3] . ونعتقد أن الدولة كانت تراقب هؤلاء الملاك وتلزمهم سياسة زراعية معينة لا تختلف كثيرا عن السياسة التى أشرنا إليها ، ونعتقد أن الملاك والمتقبلين كانت لهم طريقتان فى استغلال الأرض : طريقة الزراعة المباشرة لحسابهم الخاص ، وطريقة أخرى هى طريقة (البقوط) أو المقاسمة . إذ تقسم الأرض إلى مساحات صغيرة وتوزع على المزارعين على أن يكون لهم الثلث أو الربع من الغلة بعد استبعاد المصاريف وأثمان التقاوى [4] ويتبين مما ورد فى كتاب المكافأة أن هؤلاء المتقبلين كانوا يعتنون بهذه الضياع عناية فائقة ، فأحمد بن يوسف - كان متقبلا - كان يطوف بمنازل الفلاحين يراقب الإنتاج ويضم المحاصيل ويجبى الأموال . وكانت غلته من ضياعه هذه عظيمة القدر « وأنا فى ضياع تقبلت بها ولى فيها غلة بمال جسيم [5] » وقد أشرنا إلى ثـــروة

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ١٤١ .

(٣) يتبين من الوثيقة رقم ١٠٠ بمجموعة الدكتور جروهمان ، أن أهل الذمة كان لهم حق تقبل الأرض .

(٤) المكافأة ص ١٤٠ .

(٥) نفس المصدر ص ٤١ .

الماذرائى الطائلة ، وإلى الكميات العظيمة من المحاصيل التى تنتجها مزارعه فى منطقة الدلتا .

ولا ندرى على وجه التحقيق هل تضمنت هذه النهضة الزراعية إدخال محاصيل جديدة غير المحاصيل التقليدية التى عرفت بها مصر منذ زمن بعيد ، وإن كنا نعتقد أن القرن الثالث على وجه العموم والعصر الطولونى على وجه خاص قد شهد تطوراً عظيما فى زراعة البساتين والإكثار منها . وقد رأينا ما كان من ولع خمارويه بهذا اللون من الزراعة ، وما كان من زراعته البستان العظيم فى مدينة القطائع ، ولا بد أن هذه العناية كانت صدى مما شاع فى مصر فى هذا الوقت من استكثار من البساتين وتأنق فى زراعتها . وقد بقيت هذه العناية مستمرة حتى بعد زوال الدولة الطولونية ، بقيت مستمرة طوال القرن الرابع الهجرى ، فالرحالة الفارسى ناصر خسرو يحدثنا « أنه رأى بمصر ناسا يتجرون بالأشجار ، وأن عندهم أشجاراً فى مصر يضعونها على سطوح بيوتهم ، حتى تصير السطوح كأنها حدائق فإذا اشترى أحد هذه الأشجار حملت إليه ثم حفر لها فى الأرض ونقلت من أصصها دون أن يصيبها شىء » [1] . ويضيف ناصر خسرو إلى هذا قوله : « إنه لم ير مثل هذا فى مكان آخر ولم يسمع به . ويحكى أنه كان بمصر يهودى كثير المال قد وضع على سقف داره ثلاثين جرة من الفضة فى كل منها شجرة مزروعة . وكل هذه الأشجار مثمرة كأنها بستان [2] » .

ويبدو أن هذه العناية لم تنصرف كلها إلى بساتين الفاكهة ، بل امتدت إلى الزهور بانتخاب الطريف من سلالاتها ، ثم التأنق فى زراعتها ، وقد شهد العصر التركى عناية بالبساتين والزهور امتدت إلى العالم الإسلامى كله . فقد جرت عادة الخلفاء فى عصر نفوذ الأتراك على نثر الزهور فى المواسم والأعياد ، وشاعت هذه العادة منذ عهد المتوكل . وقد تجلت هذه العناية بالزهور فى مصر فى ذلك العصر « فكان يصنع للخليفة بمصر قصر من

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص٢١٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الورد بقرية من قرى قليوب . وكان بها جنان وورود كثيرة ... وكان (الأمير) يخرج فى يوم يسمى يوم قصر الورد إلى تلك القرية متنزها [1] » .

وكانت النتيجة الحتمية لهذه النهضة الزراعية الكبرى وفرة الإنتاج وشيوع الرخاء ، فالمقريزى يذكر أن مساحة القطر كله ٢٨ مليون فدان ، وأنه استغل منها فى العصر الطولونى نحو مليون فدان [2] ، فكان هذا أعظم استغلال شهدته البلاد فى هذه الفترة . وقد تجلى هذا الاستغلال الزراعى العظيم فى تضاعف الخراج بصفة عامة ، فقد بلغ فى عهد أحمد بن طولون ٤ر٣..ر... [3] ، وفى الثراء العظيم الذى توفر له والملايين التى أنفقها فى مشروعاته أو التى ادخرها لأولاده من بعده .

وتتجلى هذه النهضة الإنتاجية فى خلو العصر الطولونى من الأزمات الاقتصادية وانخفاض أسعار الغلال ، فالمقريزى يذكر[4] أن القمح كان يباع كل خمسة أرادب بدينار وبيع العشرة أرادب بدينار فى أيام أحمد بن طولون [5] ولم تشهد البلاد أزمة غذائية إلا قليلا فى عهد خمارويه أو ولده هارون ، ولم تتخل الدولة عن الشعب فى هذه الأزمة الطارئة التى جعلت سعر القمح يرتفع حتى بيع الثلاثة أرادب بدينار واحد ، واضطر خمارويه إلى فرض العقوبات الشديدة على التجار المتلاعبين بالأسعار [6] .

كانت زيادة الإنتاج وشيوع الرخاء هى الظاهرة التى شاعت فى العصر الطولونى ، ويكفى تأييداً لهذه الحقيقة أن نشير إلى مقاييس النيل التى ذكرها أبو المحاسن فى الفترة الممتدة من سنة ٢٥٧ حتى سنة ٢٩٣ على النحو الآتى :

---

(١) الشابشتى : الديارات ص ٦٨ ب . (٢) المقريزى : جـ ١ ص ٩١ .
(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٩٩ . (٤) المقريزى : جـ ١ ص ٣٣١ .
(٥) البلوى : ص ١٤٩ ، ١٩٠ ، ٣٦٤ . (٦) المكافأة ص ١٣٣ .

السنة	المقياس		السنة	المقياس	
	أصبعا	ذراعا		أصبعا	ذراعا
٢٥٥	٦	١٦	٢٧٦	١٤	١٧
٢٥٦	٢٠	١٦	٢٧٧	١٦	١٧
٢٥٧	١٨	١٧	٢٧٨	٢٠	١٧
٢٥٨	٥	١٦	٢٧٩	١١	١٧
٢٥٩	٥	١٦	٢٨٠	١٠	١٧
٢٦٠	١١	١٦	٢٨١	١٠	١٥
٢٦١	٥٫٥	١٧	٢٨٢	٢٢	١٤
٢٦٢	١٨	١٧	٢٨٣	١٩	١٦
٢٦٣	٢٠	١٧	٢٨٤	١٩	١٥
٢٦٤	٢٤	١٧	٢٨٥	١٩	١٦
٢٦٥	٢١	١٧	٢٨٦	٨	١٧
٢٦٦	١٤	١٧	٢٨٧	١٠	١٧
٢٦٧	١٤	١٧	٢٨٨	٤	١٦
٢٦٨	١٦	١٧	٢٨٩	١٦	١٧
٢٦٩	٢٠	١٧	٢٩٠	٤	١٣
٢٧٠	٢٠	١٧	٢٩١	١	١٦
٢٧١	٢٢	١٥	٢٩٢	١	١٦
٢٧٢	١٤	١٦	٢٩٣	٧	١٦
٢٧٣	٥	١٦			
٢٧٤	٧	١٥			
٢٧٥	٨	١٥			

ولم تشهد البلاد انخفاضاً فى منسوب المياة إلا فى سنوات ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ .

وقد امتدت سياسة مضاعفة الدخل القومي إلى الميدان الصناعي [١] ، كما امتدت إلى الميدان الزراعي من قبل ، وتمثلت في الميدان الصناعي نهضة تجلت في مظهرين : أولا استحداث صناعات لم تكن موجودة في البلاد من قبل استجابة للحركة الاستقلالية الكبرى . من هذه الصناعات صناعة الأسلحة [٢] ، ذلك أن إنشاء الجيش كان في حاجة إلى أسلحة كثيرة لا تستورد من الخارج إنما تصنع في البلاد ، وتمد الجيش بحاجته منها . وفي البلوي إشارات إلى عناية ابن طولون بدور الصناعة لتؤدي وظيفتها على الوجه الأكمل ، إذ عهد إلى أبي كامل شجاع بن أسلم بالإشراف عليها ، وطلب إليه أن تتوفر في إنتاجها « الوثاقة والجودة في الصنعة وتقديم الإحسان [٣] » . وقد نشطت هذه الصناعة نشاطاً عظيما في عهد خمارويه ، كما نشطت صناعة السفن الحربية والتجارية للمساهمة في الحركة التجارية الكبيرة التي ظهرت في العصر الطولوني . وقد عملت الدولة تعزيزاً لهذه الصناعة على استيراد الأخشاب من بلاد الشام والهند ، ويذكر المقريزي أن الأخشاب اللازمة لبناء هذه السفن كانت لها أسواق عظيمة في الفسطاط [٤] .

والمظهر الثاني لهذه النهضة الصناعية أن صناعات كانت قائمة في مصر من قبل لكن عوامل معينة استجدت في العصر الطولوني قدر لها أن تبعث فيها الحياة ، فقد فتحت لها أسواق لم تكن مفتوحة من قبل خصوصاً بعد اتحاد بلاد الشام ومصر وبرقة في ظل الحكم الطولوني ، وأمكن أن تنتقل الخبرات الفنية بين مدن هذه الأقاليم ، وأن تجد مصنوعات مصر أسواقاً خالية من كل قيد . وليس من شك في أن توفر الأسواق ينهض بالصناعة ويشد من

---

(١) ورد في مجموعة بروهمان البردية جـ ٣ ص ٢٢٧ ، وثيقة رقم ٢١٤ ترتيب للحرف والصناعات على النحو الآتي :

القطاعين – القشرين – الرصاص – الدباغ – البقالين – الطراح – النحاس – الحجارين – الطباخ – صاحب الدست – الدقاق .

(٢) Les Tulunides p. 240 .

(٣) البلوي : سيرة ابن طولون ص ٣٠٨ .

(٤) المقريزي : الخطط جـ ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

أزرها ، ثم الأموال الطائلة التى أنفقها الطولونيون ورجالهم فى مصر فى المنشآت والمبانى وفى الحياة الاجتماعية المترفة ، فهذا الإقبال على الشراء وإنفاق المال يهيىء للصناعة رواجاً لم يكن يتهيأ لها من قبل .

ولا ننسى أثر النهضة الكبرى التى شملت عاصمة الدولة وما بنى فيها من قصور ومساجد ومنشآت وما هيأ ذلك من فتح باب العمل أمام آلاف من الصناع والعمال وأهل الفن ، وما تطلبته هذه النهضة البنائية الكبرى من تجنيد كل الكفايات الموجودة فى البلاد . ليس من شك فى أن الطولونيين استقدموا بعض مهرة الصناع من العراق ربما للتخطيط وفق الأساليب الفنية الشائعة هناك ، إنما التنفيذ كان على كاهل المصريين .

ومن أهم الصناعات التى مستها يد النهضة فى العصر الطولونى صناعة النسيج ، على أن هذه النهضة لم تغير كثيراً من نظم هذه الصناعة التى ألفتها مصر منذ زمن بعيد ، فقد بقيت مصانع النسيج فى هذا العصر على النوعين المألوفين : المصانع الحكومية التى تشتغل بعمل المنسوجات للخليفة والأمراء وكبار رجال الدولة ، والمصانع الأهلية التى تمد التجار بحاجتهم من مختلف الأقمشة [١] . وكان هؤلاء التجار يعتمدون كثيراً على صناعة النسيج المنزلية التى انتشرت على الخصوص فى منطقة الدلتا . كانت النساء تقمن بغزل الكتان أو القطن أو الصوف أو الحرير ويتولى الرجال أعمال النسيج ، وذلك فى مقابل أجر يومى زهيد لم يكن يتجاوز نصف درهم . وكانت هذه الصناعة الأهلية تخضع لرقابة حكومية صارمة محافظة على مستواها الفنى ، فلم تكن المصانع الأهلية حرة فى تسويق إنتاجها ، فكانت لا تبيع إلا للسماسرة الذين تعينهم الحكومة . وكان إنتاجها من الأقمشة يختم بخاتم الدولة الرسمى ، ويقيد ما يباع منها فى سجلات خاصة [٢] . وكان حزم الأقمشة وربطها وشحنها يقوم به عمال تعينهم الحكومة .

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٥ – ٨٧ .

(٢) زكى حسن : الفن الرسلامى فى مصر ص ٨٨ .

كما بقيت مراكز هذه الصناعة على حالها ، بل احتفظت بنفس نوع الإنتاج ومستواه [١] . فكانت أهم مراكز هذه الصناعة فى منطقة تنيس ، وتضم مدينة تنيس ودمياط وشطا ودبيق . اشتهرت هذه البلاد على الخصوص بنسج الكتان والقطن والحرير .

عرفت تنيس مثلا بصناعة الثوب الفخم الذى يسمى بالبدنة الذى يعمل للخليفة خاصة ، بحيث لا يدخل فيه من الغزل غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج إلى تفصيل أو خياطة ، وتبلغ قيمة هذا الثوب نحوا من ألف دينار[٢]. وكانت تنيس أيضاً تنتج الكتان الأبيض الذى لا تلوين فيه حتى ليقال أنه فى رقته « يشبه الغشاء على البيض »[٣] .

وكانت تنتج كذلك نوعا من الثياب « رقيقة مهلهلة النسيج كأنها للنخل وتسمى بالقصب خصوصاً القصب الملون الذى يعمل منه عمائم للرجال ووقايات وملابس للنساء [٤] » وقد اشتهرت بضاعة تنيس وراجت فى العالم الإسلامى كله ، وبلغ ما صدرته هذه المدينة وحدها للعراق سنة ٣٦٠ هـ من عشرين ألف دينار إلى ثلاثين ألفا [٥] .

أما دبيق فقد اشتهرت بالقماش المسمى بالدبيقى الثقيل جيد النسج الذى ربما بلغ ثمن الثوب منه نحوا من مائة دينار [٦] .

ومن مراكز صناعة النسيج مدينة الفيوم والبهنسا والاسكندرية وأشمون [٧] والأشمونين ، كانت كلها تشتغل بنسج القطن والكتان والحرير ، واشتهرت مدن الصعيد مثل أخميم وأسيوط وطما [٨] بالثياب الصوفية الرفيعة .

---

(١) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٤٨ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٧٧ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٤٦ .
(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٥) الخطط جـ ١ ص ١٣٧ . (٦) ابن حوقل:ص ١٠١ .
(٧) جروهمان : أوراق البردى العربية جـ ٢ ص ١٥٤ وثيقة رقم ١١٦ .
(٨) المقدسى:ص ٢٠٢ .

ولكننا لا ننكر أن النهضة التى أصابت صناعة النسيج فى العصر الطولونى تجلت فى ناحيتين : فى مضاعفة انتاجها إلى أبعد حد ممكن لمواجهة حاجة الدولة المستمرة وعطايا الأمير وخلعه على رجال الجيش وأرباب الدولة . فقد خلع على ابن مفضل وحده ما قيمته عشرون ألف دينار . وكان الطولونيون فى حاجة إلى هدايا متتابعة لرجال الدولة العباسية وللخلفاء أنفسهم ، مثل الهدايا العظيمة التى بعث بها خمارويه للخليفة المعتضد ، لذلك نشط إنتاج المصانع الخاصة نشاطاً عظيما . وقد أحصى الأستاذ فييت ما نعرفه فى المتاحف والمجموعات الأثرية من قطع المنسوجات التى عليها أسماء الخلفاء العباسيين : ١٩ باسم المعتمد ، ٢١ باسم المعتضد ، و١٥ باسم المكتفى [١] .

وقد امتد هذا النشاط إلى المصانع الأهلية أيضاً لمواجهة حاجة قصور الطولونيين ورجال حاشيتهم من الفرش والستائر والأقمشة الثمينة . وقد زاد الإقبال على هذه المنسوجات فى عهد خمارويه زيادة كبيرة ، فقد قيل إن نحوا من عشرة آلاف رجل [٢] كانوا يعملون ليل نهار لإمداد هذا الأمير ونساء قصره بحاجتهم من الملابس . ولا تسل عن الأقمشة والمنسوجات التى احتيج إليها فى تجهيز قطر الندى . وكان التوسع فى التجارة الداخلية الذى شهده العصر الطولونى قد ساعد على رواج هذه الصناعة المصرية وضاعف الأرباح الطائلة التى كانت تعود إلى الدولة من ورائها [٣] .

والناحية الثانية التى تجلت فيها النهضة هى استحداث أسلوب جديد من أساليب الصناعة ، فقد بقيت فى العصر الطولونى بعض تقاليد النساجين القبط ، الذين احتفظوا فى العصر الإسلامى بكثير من الموضوعات الزخرفية الساسانية التى وصلت إليهم عن طريق البيزنطيين مثل الدوائر المتماسة والحيوانات المتقابلة [٤] . لكن هنالك بعض قطع من النسيج عليها زخارف

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٧ .

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : تاريخ صناعة النسيج فى الاسكندرية ص ٥٨ .

(٣) Les Tulunides p. 289 .

(٤) زكى حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٨ .

طولونية أو عراقية ظاهرة ، وفى دار الآثار العربية قطع كثيرة أغلبها سميك يحمل رسوماً طولونية المسحة ، وقد لاحظ الدكتور كونل Kuhnel أن بقطعتين طولونيتين محفوظتين بالقسم الإسلامى بمتحف بريلين زخرفة من زخارف سامرا (طرز ٥ر C.D.) وهى تذكرنا بالزخارف الجصية فى المنزل الطولونى الذى كشف فى حفريات دار الآثار العربية .

على كل حال يعتبر العصر الطولونى فى صناعة النسيج مرحلة انتقال بين العصر القبطى البحت والعصر الإسلامى البحت [١] .

ومن الصناعات التى راجت فى العصر الطولونى ما يمكن أن نسميها بالصناعات الزراعية مثل صناعة زيت المصابيح [٢] من بذور البنجر واللفت وكذلك صناعة السكر المستخرج من القصب الذى شاعت زراعته فى مصر منذ القرن الثامن الميلادى ، وكذلك استخراج الأصباغ من شجر (النيل) الذى كان يزرع فى الصعيد بصفة خاصة ، وهو يبقى فى الأرض الجيدة ثلاث سنين ويحصد كل مائة يوم [٣] .

وامتدت مظاهر النهضة الصناعية إلى المعادن باستخراجها والتأنق فى صناعتها خصوصاً استخراج الذهب من مصر وبداية الاهتمام به منذ أيام المتوكل ، ومظهر هذا الاهتمام الحملات المتتابعة التى أرسلت إلى بلاد البجة فى ذلك الوقت لحماية مناجم الذهب فى بلاد النوبة [٤] .

وقد راجت فى العصر الطولونى صناعة الذهب بصفة خاصة وصناعة النحاس كما امتدت مظاهر الرواج إلى ما يمكن أن نسميه (صناعة الترف)

---

(١) الفن الإسلامى فى مصر ص ٨٩ .
(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٠٥ .
(٣) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٠٩ .
(٤) الادريسى:ص ٨ .

التى تطلبتها الحياة الاجتماعية المترفة فى قصور آل طولون ، والتى ظهرت بوضوح في جهاز قطر الندى ذلك الجهاز « الذى ضاهى به (خمارويه) نعمة الخلافة [١] » . وتفاصيل هذا الجهاز أبلغ دليل على هذه النهضة الفنية الصناعية ، فمما تضمنه دكة أربع قطع ذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف له قيمة ، ومائة هاون من الذهب ، والقضاعى يعلق على هذا بقوله « لما طلب فيها ألف تكة من أثمان عشرة دنانير قدر عليها فى أيسر وقت بأهون سعى ولو طلب اليوم خمسون لم يقدر عليها [٢] » ، وقال أبو المحاسن « ولا يعرف اليوم فى أسواق القاهرة تكة بعشرة دنانير إذا طلبت توجد فى الحال ولا بعد شهر إلا أن يعتنى بعملها » [٣] .

وتجلى طابع العصر الطولونى فى ما يمكن أن يسمى بالفنون الفرعية ، فقد كان هذا العصر فى الحقيقة مرحلة انتقال من الطراز القبطى فى صناعة الخشب إلى الطراز الإسلامى البحت . كما خضعت هذه الصناعة شأنها شأن مظاهر الحياة الأخرى لتيار آسيوى جارف . ولا غرو فقد تأثر الطولونيون بسامرا بالفن العراقى ، كما تأثروا بهذا الفن فى العمارة وزخرفة المبانى .

والخشب الطولونى الموجود فى دار الآثار العربية وبعض المتاحف الأوربية عليه زخارف محفورة بعمق فى الخشب تذكرنا بزخارف الطراز الأول من سامرا [٤] « والأخشاب الطولونية تمثل طراز الحفر منحوت الجوانب وتظهر فيها الصناعة الطولونية التى تخلق زخرفة من بضعة فروع وخطوط حلزونية تغطى الأرضية كلها ويتجلى فيها الإبداع والبراعة النادرة . وقد يغطى التربيعة من الخشب الطولونى رسم تخطيطى أو آخر من موضوعات

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٦٠ .
(٢) نفس المصدر جـ ٣ ص ٦١ – ٦٢ .
(٣) نفس المصدر والصفحات .
(٤) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٩٤ .

نباتية تحيط به أشرطة من أقراص صغيرة محفوزة أو فروع مستديرة أو مربعات أو أشكال مستطيلة [1] » .

وقد بلغت هذه الصناعة قدراً كبيراً من الأصالة والعمق ، فقد استمرت تقاليدها بعد ذهاب الطولونيين ، وظهرت بصورة واضحة فى العصر الفاطمى فيتبين من باب جامع الحاكم أن أكثر التربيعات تزينها زخارف نباتية عميقة الحفر وظاهر فيها تأثير الصناعة الطولونية [2] .

وكذلك نهضت صناعة الخزف ، وامتاز العصر بتنوع أشكاله وطرق زخرفته وأساليب صناعته ، وخاصة الخزف المطلى بالمينا وكذلك الخزف المعروف بذى البريق المعدنى .

* * *

وقد شهد القرنان الثالث والرابع الهجريان تطوراً عظيما فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ونشطت هذه التجارة نشاطاً لم تبلغه من قبل . ويتبين مما كتبه الرحالون والجغرافيون المعاصرون [3] أن سفن المسلمين كانت تجوب البحار كلها ، وكانت قوافلهم لا تفتأ تخترق الطرق البرية المعروفة ، واحتلت دار الإسلام المكان الأول فى هذا الميدان ، وأصبحت مدينتا بغداد والاسكندرية تتحكمان فى مصائر التجارة وتحددان أسعار السلع العالمية [4]

وكان التجار اليهود المسمون بالرهدانية (نسبة إلى نهر الرون) يعملون بالوساطة بين الشرق والغرب . يأتون إلى أسواق الشرق الأدنى من مقاطعة بروفانس بفرنسا لشراء السلع التى تحتاجها أسواقهم [5] .

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٩٤ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ص ٩٩ .

(٣) ابن خرداذبة – ابن حوقل – المقدسى – الإدريسى وغيرهم .

(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٦٢ .

(٥) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٦٧ .

وفتحت أمام هذه التجارة آفاق جديدة لم تبلغ من قبل ، فتح طريق التجارة إلى حوض نهر الفولجا وبلاد الروس ، تم هذا فى أواخر القرن الثالث ، ثم اطردت الصلات وتوطدت فى أوائل القرن الرابع الهجرى ، ففى سنة ٣٠٩ هـ اتصل الخليفة العباسى بملك بلاد الفولجا ، ويذكر المسعودى [١] ان هذا الملك دخل فى الإسلام .

وامتد هذا النشاط التجارى العظيم إلى أسواق شمال غرب أوربا . بدأ هذا النشاط بالطبع آخر القرن الثالث ، ولكنه وصل إلى الغاية فى أوائل القرن الرابع ، ومعظم النقود الإسلامية التى اكتشفت فى أوربا ترجع إلى القرن الرابع [٢] .

وظهرت فى مختلف الأمصار الإسلامية طبقة ناجحة من التجار أرباب الملايين الذين امتد نشاطهم إلى أسواق الصين وأسواق أوربا ، وأصبحت التجارة حرفة تدر الأموال الطائلة ، ولا يأنف أعرق المسلمين أصلا من العمل فيها .

ففى أواخر القرن الثالث الهجرى ذكر المؤرخون أن بدر بن حسنويه لم يأنف من أن يتخذ خانا فى مدينة همدان أو يساهم فى هذه التجارة العالمية [٣] ، وأن يربح من وراء ذلك نحواً من مليون ومائتى ألف درهم . بل أصبح التاجر الغنى الموسر مثلا صادقاً للحياة الإسلامية والتحضر الإسلامى « بل كانت التجارة الرسلامية فى ذلك العصر مظهراً من مظاهر أبهة الإسلام وصارت هى السيدة فى بلادها [٤] » .

ولم يكن من المعقول ألا تفيد مصر من هذه النهضة التجارية العظمى ، وهى بلاد تقع بين أسواق الشرق والغرب ، فقد أصبحت مصر فى أواخر القرن

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٦٧ .
(٣) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٦٢ .
(٤) نفس المصدر والصفحة .

الثالث وأول الرابع من أهم مراكز التجارة فى العالم الإسلامى كما يتبين من قول المقدسى « من كان مراده التجارة فعليه بمصر أو عدن أو عمان [1] » .
وارتفعت أهمية برزخ السويس الذى يصل بين البحرين الأحمر والأبيض ، وأصبحت مدينتا الفرما والقلزم من أكثر موانى الشرق الأدنى نشاطاً فى ميدان هذه التجارة العالمية ، وابن خرداذبة [2] يعطينا صورة طريفة لذلك النشاط العظيم عبر برزخ السويس فى أواخر القرن الثالث الهجرى - فى العصر الطولونى - خصوصاً ذلك النشاط الذى يقوم به الوسطاء اليهود الرهدانية ، الذين يتقنون كل لغات الأرض : العربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأسبانية .

كان هؤلاء يبحرون من غرب أوربا ومعهم الخدم والجوارى والغلمان والديباج والخز والفراء والسمور والسيوف ، حتى إذا نزلوا عند الفرما نقلت متاجرهم بالقوافل حتى مدينة القلزم ، ثم استقلوا السفن فى البحر الأحمر مارين بموانى بلاد العرب ، ومنتهين إلى أسواق الهند والصين . ثم يعودون من أسواق الصين بالمسك والعود والكافور والتوابل سالكين نفس الطريق . يرسون عند القلزم ومنها براً إلى الفرما ، ثم ينتقلون بالسفن إلى القسطنطينية أو إلى أسواق غرب أوربا .

ولم يفقد هذا الطريق أهميته تلك طوال القرن الرابع الهجرى ، فالمسعودى [3] يعطينا نفس الصورة التى أعطانا إياها ابن خرداذبة . واحتفظ هذا البرزخ بهذه المكانة طوال العصور الوسطى .

وقد امتد هذا النشاط العظيم إلى البحر الأحمر الذى أصبح في هذا العصر من أهم مسالك تجارة الشرق الأقصى خصوصاً تجارة الصين . وقد لعب ثغرا عدن وسيراف الدور الأكبر فى هذا النشاط التجارى بين الشرق الأقصى والبحر الأحمر .

---

(١) المقدسى : ص٣٥ .
(٢) المسالك والممالك ص ١٥٣ - ١٥٤ .
(٣) التنبيه والإشراف ص ٢٢ .

كانت سيراف على الخليج الفارسى بحكم موقعها الأمين بين جبلين عظيمين من أعظم الموانى فى هذا الخليج . وكانت سفن الصين تقصدها حيث تفرغ حمولتها ومنها تنقل إلى مختلف الأسواق . وليس أدل على هذا النشاط التجارى العظيم الذى شهده هذا الثغر من أن المكوس التى أخذت من السفن الواردة إليه أو الصادرة عنه فى هذا العصر بلغت نحوا من ...٢٥٣ دينار فى عام واحد [١] . وكان شطر كبير من هذه المتاجر يحمل إلى مدينة عمان ، ومنها يحمل إلى موانى البحر الأحمر ليعبر برزخ السويس إلى البحر الأبيض ، لذلك يسمى المقدسى هذه المدينة باسم « دهليز الصين » [٢] .

وكان من حسن طالع الطولونيين أن عاصروا هذه النهضة التجارية العظمى وأن قامت دولتهم فى أحسن البلاد موقعاً وأوفرها نشاطاً . ولم يكن من المعقول ألا يفيدوا من هذه النهضة التجارية ، بل كان من المعقول أن يستغلوها إلى أبعد الحدود .

وقد استطاع أحمد بن طولون أن يمكن لنفسه من هذه التجارة عن طريقين : أولا بتدعيم مركز مصر الاقتصادى كله ومركزها التجارى ومكانتها فى الأسواق العالمية بعد سك الدينار الأحمدى الذى ينسب إليه ، والذى كان من أحسن الدنانير الإسلامية وأثقلها وزناً . وقد صحب سك هذا الدينار تطور كبير فى تاريخ العملة الإسلامية هو ارتفاع قيمة الدينار الذهب فى القسم الشرقى من الامبراطورية الإسلامية ارتفاعاً هائلا مكن للعملة الطولونية الذهبية من أن يقبل الناس عليها اقبالا شديداً فى أسواق الشرق[٣] . فلا غرابة إذا كان هذا الإصلاح فى العملة قد عزز مكانة مصر [ا]لتجارية ، ومكنها من أن تفيد إلى أبعد حد من هذه التيارات الدافقة عبر [موا]نيها . ثم كانت إصلاحات أحمد بن طولون الإدارية وقضاؤه على الفتن

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ ٣ ص ٤٣١ .
Wiet : L'Egypte Arabe p. 167
(٢) المقدسى : ص ٣٤ (٣) متز : جـ ٢ ص ٣٧١

والثورات وجهوده في استتباب الأمن مما وفر لهذه التجارة العابرة أسباب الحماية .

ورغم قلة الوثائق نكاد نلمح صوراً من هذا النشاط التجارى الكبير ، ومن اختلاف كبار التجار إلى مصر ، وإقامتهم فيها للإفادة من أسواقها العالمية . وكان من مشاهير التجار العالميين المقيمين فى مصر فى ذلك الوقت معمر بن محمد الجوهرى صديق ابن طولون [١] . وقد كان نشاطه التجارى فسيحاً إلى أبعد حد ، وكان له وكلاء وعملاء فى أسواق الشرق كلها خصوصاً فى العراق . وقد أفاد ابن طولون من هذه الصحبة أجل فائدة ، فقد كان باستطاعته عن طريق هذا التاجر أن يرسل الأموال إلى بغداد ليرشو من يشاء من أولى الأمر والنفوذ دون أن يعرف سره . وقد لعب هذا التاجر الغنى دوراً هاماً فى حياة ابن طولون . ويشير ابن سعيد إلى تاجر آخر من طراز تجار ذلك العصر وفد على خمارويه من خراسان [٢] ، ومعه بضاعة لا يقل ثمنها عن مائة ألف دينار . وعرض بعضها على الأمير خمارويه فاشتراها كلها وأودعها مخازنه . ولا ننسى أن رخاء الدولة وبذخها قد شجع هؤلاء التجار الوافدين على تصريف سلعهم بأسعار مرتفعة .

وكان رواج هذه التجارة العالمية العابرة وإقبالها على أسواق مصر معناه ارتفاع حصيلة الجباية وحصيلة المكوس ، وتدفق الأموال على خزائن الطولونيين بصورة لم تشهدها مصر من قبل .

وكان رواج التجارة العالمية معناه امتداد مظاهر هذا الرواج إلى التجارة المحلية ، فقد كان بعض هذه المتاجر يستهلك محلياً ، ويباع فى أسواق مصر كما كانت مصر تنتج سلعاً عالمية لها مكانتها خصوصاً منسوجاتها ومنتجاتها الغذائية وصادراتها المعدنية من الذهب والنحاس .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٧٨ .

(٢) نفس المصدر ص ١٣٧ .

وقد نشطت التجارة المحلية فى العصر الطولونى نشاطا عظيما بفضل السياسة الاقتصادية التى اتبعها الأمراء الطولونيون . فالنهضة الزراعية أدت إلى ارتفاع القدرة الإنتاجية ، وزيادة فائض التصدير ، ورخص الأسعار عن نظائرها فى الأسواق الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى الإقبال على الشراء . كما أن النهضة الصناعية التى رأيناها تزيد من الإنتاج وترفع مستواه قد جعلت المصنوعات المصرية تروج رواجاً عظيماً . ويمكن أن نضيف إلى هذا أن المركز الذى أحرزه الدينار الطولونى فى أسواق العالم شجع وفود رؤوس الأموال من البلاد الإسلامية الأخرى ، وإقبال التجار المسلمين من كل قطر على مصر للمتاجرة واستغلال الأموال ، فضلا عما قامت به الحكومة الطولونية من إصلاحات إدارية أمنت السبل وقضت على الفتن ، ومكنت التجار من التجول فى البلاد آمنين على أنفسهم وأموالهم . وقد وفدت إلى مصر فى العصر الطولونى عناصر من غير أهل البلاد لاستغلال أموالها وخبراتها ، أغلبهم من الفرس [١] منذ القرن الثالث الهجرى ، وساهموا بنصيب موفور فى الحركة التجارية فى البلاد . وكانت هذه الجالية فى عصر بنى طولون جالية لها شأنها فى الحياة الاقتصادية .

كانت هذه الجاليات الوافدة تتجول فى أسواق القطر كله لمزاولة نشاطها التجارى . وقد كان أحمد بن يوسف بن ابراهيم صاحب كتاب المكافأة من ... ء الوافدين الذين لم يقنعوا باقتناء الضياع ، والعمل فى خدمة الحكومة ... ساهموا فى التجارة الداخلية . ويتبين مما ورد فى كتابه أنه كان فى ريف مصر لتحصيل الأموال من تجار الريف « وكانت لى أسلاف بسمسطا وضواحيها فخرجت لقضائها فى رفقة التجار [٢] الذين كانوا يحملون البز والطيب [٣] وما يحتاج إليه للأرياف » .

---

(١) المقدسى : ص ٣٥ – الكندى : ص ٤١٢ .
(٢) المكافأة ص ٦١ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .

ويكفى دليلا على ازدهار هذه التجارة الداخلية ورواجها بفضل عناية الطولونيين وصف البلوى [1] لأسواق القطائع المتخصصة فى كل لون من ألوان التجارة ، وازدحامها بالباعة والمشترين ونشاطها الاقتصادى العظيم .

والطولونيون إذا كان قد استغلوا النهضة التجارية العالمية إلا أنهم خلقوا فى مصر نهضة تجارية محلية أسهمت بنصيب فى ارتفاع مستوى الدخل وإشاعة الرواج فى البلاد .

* * *

---

(١) البلوى : ص ٥٣ .

الحياة الثقافية

يحتل القرن الثالث الهجرى مكاناً فريداً من تاريخ الثقافة العربيـــة عامة ، إذ يمثل بداية عصر النهضة الفكرية التى شملت المدارس الإسلامية كلها . فقد قطعت حركة الترجمة إلى العربية أشواطاً فى طريق التقدم ، وبدأ العرب يردون مناهل الفكر القديم ، الفكر الإغريقى والفارسى والمصرى «درس العرب الطب والرياضيات وقلدوها فى نشاط ، ورحب المسلمون بالمنطق والفلسفة الاغريقية وتبنى الإسلام عناصر مهمة من التفكير السياسى الفارسى [1] » .

ولاحت معالم الامتزاج بين الثقافات العربية الأصيلة وبين هذه الثقافات العريقة . وبدأت تظهر ثمار هذا الامتزاج بظهور معارف لم يكن للعرب بها عهد من قبل ، وإقبالهم على منابع فكرية لم يسبق لهم أن وردوها . ولاحت فى إنتاج كتاب ذلك العصر ثمرة النهضة الجديدة ومعالم هذا التلقيح الفكرى . . وتمشت هذه النهضة مع انتشار الإسلام على نطاق واسع لم يشهده العالم الإسلامى من قبل . وغلبت الصبغة الإسلامية على جميع الأمصار المفتوحة ، وبدأ المسلمون الجدد يلاتمون بين تراثهم القديم الموروث وتراثهم الجديد المكتسب . وتفشت الحركات الاستقلالية فى العالم الإسلامى كله ، وشهد هذا العالم ظهور الإمارات المستقلة ، فتنافست فى ميدان العلم المعرفة ، تنافست فى تشجيع العلماء المحليين أو فى استقدام النابهين من هل الحاضرة وفى الإغداق عليهم . ودبت النهضة الفكرية فى الأمصار الإسلامية كلها ، وظهرت مدارس محلية تنافس مدارس الحاضرة فى نشاطها وفى إنتاجها .

نريد أن نعرف مدى امتداد هذه النهضة إلى مصر فى العصر الطولونى ومدى مساهمة هذا العصر فى هذه الحركة الفكرية المتوثبة التى لم يتخلف عنها مصر إسلامى ؟

---

(١) جرونباوم : تأثر الأمم الاسلامية بمدنية الغرب . الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ١٨٧ .

لم يكن من المعقول أن تقف مصر بمعزل عن هذه النهضة الفكرية ، أو أن تعيش على هامش هذه التطورات الهامة ، فقد كان العصر الطولونى يمثل مرحلة تطور هامة فى تاريخ الثقافة العربية فى مصر ، مرحلة يمكننا أن نحدد معالمها .

فقد لعب الطولونيون نفس الدور الذى لعبه جميع الأمراء الذين ظهر استقلالهم فى هذا العصر من تشجيع الحركة العلمية بقدر ما يستطيعون ، ومن صيروورة بلاطهم المزدهر وحياتهم الاجتماعية المترفة وغناهم الموفور قبلة الراحلين والوافدين من حاضرة الخلافة أو من حواضر الأمصار الأخرى ، ومن إدلائهم بدلوهم فى ميدان هذه المنافسة الثقافية المحببة ، التى كانت من أهم عوامل إذكاء هذا التيار الفكرى الدافق ، ففى ما كتبه مؤرخو العصر الطولونى إشارات كثيرة إلى تشجيع الطولونيين للعلوم الدينية . فقد عنى أحمد بن طولون على وجه الخصوص بحفاظ الكتاب الكريم [1] ، وكان هو نفسه من أئمة الحفاظ « وكان يسأل عمن كان يحفظه جيداً » ، وقد جعل المسجد الطولونى [2] بعد إنشائه مباشرة مكانا لرواية الحديث ودراسته ، فكان الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى يجلس فيه لرواية الحديث ، وقد قيل أن ابن طولون منحه ألف دينار يوم افتتاح هذا المسجد [3] . وكان الأمراء الطولونيون يختلفون إلى مسجده ويفيدون من علمه ، فذكر الذهبى أن عدنان ابن أحمد بن طولون كان من تلاميذ هذا الفقيه .

وإذا كان ابن طولون قد مد يده لمساعدة الفقهاء الشافعية ، فقد كان يحضر مجالس فقهاء الحنفية بنفسه ، فقد ذكر الطحاوى أن « أحمد بن طولون يجىء إلى مجلس بكار وهو يملى الحديث ومجلسه مملوء بالناس ويتقدم الحاجب ويقول ألا يتغير أحد من مكانه فما ينظر بكار إلا وابن طولون إلـــــى جواره [4] » .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٩٦ . (٢) الكافئة ص ٧٤ .
(٣) الخطط جـ ٢ ص ٢٦٥ .
(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٩ ، محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٦١

ولم يقتصر تشجيع الطولونيين على العلماء المقيمين بمصر بل امتد إلى العلماء الغرباء الوافدين لتلقى العلم أو التدريس فى مدارس مصر . إذ يستفاد مما رواه السيوطى [1] أنه كان يعلم بخبر الوافدين منهم ، وأنه كان يعينهم ويحسن إليهم وأنه أوقف على الوافدين أوقافاً يستعينون بها على العيش . وإذا كان ابن طولون قد فعل هذا رغبة صادقة فى العلم ، إلا أنه كان مدفوعاً باعتبارات أخرى ، بالمنافسة التى شاعت بين أمراء الأمصار . فقد كان هؤلاء العلماء دائبى الرحلة والتجوال إما طلباً للعلم أو طلباً للرزق .

على أن أثر الطولونيين لم يكن قاصراً على العلوم الدينية بل امتد إلى العلوم العربية كلها ، فكان للعباس بن أحمد بن طولون بطانة من المبرزين فى علوم العربية أمثال جعفر بن جدار ، وأحمد بن المؤمل المعروف بأبى معشر ، ومحمد بن سهل المتنوف [2] . وأسهم الطولونيون فى تشجيع الشعر والشعراء ليس تذوقاً لهذا الفن ، إنما استدراراً للمديح ، واستخداماً لأقلام الشعراء ، ومساهمة فى هذه المنافسات الأدبية التى شاعت فى ذلك العصر . فالمقريزى [3] ينقل عن النابلسى قوله « أنه رأى كتاباً قدر ١٢ كراسة بها فهرست شعراء الميدان » . ومهما كان فى هذا القول من مبالغة فالحقيقة الثابتة أن بنى طولون جمعوا حولهم عدداً كبيراً من الشعراء ، وكثر فى عصرهم الشعراء المتكسبون ، ولم يكن هؤلاء الأمراء يعملون شيئاً إلا ظهر فى شعر هؤلاء الشعراء . وقد فاق خمارويه والده فى تقريب الشعراء والإغداق عليهم وإحاطتهم بجميع مظاهر البر . ومن الشعراء الذين اتصلوا به اتصالا وثيقاً القاسم بن يحيى بن معاوية المريمى الذى طلب إليه أن يرحل عن مصر فقال [4] :

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٦٩ .

(٣) الخطط جـ ١ ص ٣٦٠ .

(٤) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٣٢٠ .

وكيف رحيلي عن بلاد غدا بها   أبو الجيش والنيل الذي ملأ الأرضا

كما وفد عليه البحتري في دمشق فأحسن إليه وأثابه [1] .

وإذا كان الطولونيون قد شجعوا الشعر على هذا النحو ، فإنه يرجع إليهم الفضل في تشجيع الكتابات الديوانية بإنشاء أول ديوان في مصر لتكون للإمارة مراسلاتها ولغتها الدبلوماسية الخاصة ، وقد حفل العصر الطولوني بطائفة من أئمة الكتاب ومشاهيرهم مثل ابن عبدكان [2] والحسن ابن راقع ، ويعقوب بن إسحق ، وجعفر بن عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن [3] ، وإسحق بن نصير [4] ، والماذرائي . ويبدو أن مجيء ابن عبدكان إلى مصر كان استهلالا لنهضة عظيمة في ديوان الإنشاء كانت موضع حسد البغداديين أنفسهم . روى القلقشندي أن أهل بغداد « كانوا يحسدون أهل مصر طبطب المحرر وابن عبدكان ويعني كاتب الإنشاء لابن طولون . ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما [5] » . وظهرت تقاليد مصرية لهذا الديوان الجديد مثل استفتاح الرسائل بالدعاء غالباً ، الدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة ، والبشارة بوفاء النيل ، والبشارة في الركوب بفتح الخليج . ويبدو أن هذه التقاليد الطولونية التي استنها ابن عبدكان ومن خلفه بلغت من العراقة ورسوخ القدم حداً جعل كتاب الرسائل في العصر الفاطمي يقلدونها ويحذون حذوها [6]

---

(١) ابن سعيد : المغرب ص ٢٢ .

(٢) البلوي : صفحات ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٦٠ .
والمغرب ص ٩٨ وردت له ترجمة في الصفدي : الوافي بالوفيات . وهو يقارنه بالصاحب بن عباد في مكانته الأدبية والقلقشندي يشير إلى نماذج من كتابات ابن عبد كان إلى العباس بن أحمد كما يشير إلى كتاب ولاية القضاء في برقة الذي كتبه ابن عبدكان ، ويشير إلى رقة أسلوبه ويعتبره خير من يمثل العصر .

(٣) المكافأة ص ٩١ .

(٤) خلف ابن عبدكان في ديوان الإنشاء وكان من نصارى بغداد ويقطن قطيعة الروم ولعله من أصل بيزنطي ، وكان صديقا للمبرد وثعلب تمكن من اللغة العربية ورحل إلى مصر والتحق بديوان الإنشاء وكان راتبه في الشهر عشرة دنانير وأصبح رئيسا لديوان الانشاء .
انظر المكافأة ص ٢٩ - ٣٠ .

(٥) صبح الأعشى جـ ١ ص ٩٥ .

(٦) كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ١٦٥ .

ومن ملامح هذه النهضة أيضاً أن مدارس مصر الإسلامية التى كانت قد رسخت قدمها فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، ووضح إنتاجها فى جميع العلوم الدينية المعروفة : علم القراءات والحديث والفقه وعلم اللغة والتاريخ ، قد اشتد رسوخ قدمها فى هذا العصر ، ولاحت نذر استقلالها عن المدارس الإسلامية الأخرى . وبرزت فى ميدان الدراسات الإسلامية وأصبحت مركزاً من مراكز الحياة العقلية .

ونعتقد أن الدراسات الفقهية فى مصر قطعت شوطا أبعد مما قطعته فى العهد السابق . شهد العصر السابق وفود الإمام محمد بن إدريس الشافعى وإقامته فى مصر كما شهد ميلاد المذهب الشافعى ، أما هذا العهد فقد شهد ثبوت هذه القدم ، وصمود هذا المذهب للمنافسات الفقهية جميعها . يدل على هذا ذلك الصراع العنيف الذى ثار بين فقهاء المالكية والشافعية . واشتداد النزاع بين المدرستين حتى اقتتلا فى المسجد الجامع العتيق [1] . على كل حال هيأت الشافعية جواً جديداً لم تعهده مصر من قبل ، إذ استطاعت الشافعية أن تنافس المذاهب الأخرى وأن تناظرها وأخذ المصريون يؤلفون فى الكتابة العلمية .

وكتب التراجم تعطينا صورة طيبة لانتشار المذهب الشافعى فى مصر فى العصر الطولونى وتتحدث عن كثرة التلاميذ الذين تبنوا هذا المذهب ودافعوا عنه ونقلوه للأجيال اللاحقة .

---

(١) تلاميذ الشافعية فى مصر :

١ - أبو عبد الله محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين ولد سنة ١٨٢ وتوفى سنة ٢٦٨ صحب الشافعى وتفقه به وله كتاب السنن على مذهب الشافعى .

٢ - يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفى المصرى ولد سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٦٤ .

٣ - أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن اسحق المزنى . صنف كتبا كثيرة فى مذهب الشافعى منها .

الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر ومختصر المختصر .

٤ - الربيع بن سليمان المرادى وهو الذى روى أكثر كتب الشافعى . قال الشافعى : الربيع راويتى وتوفى سنة ٢٧٠ .

٥ - الربيع الجيزى ، هو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى .

٦ - أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح ، توفى سنة ٢٦٠ .

انظر ، الفهرست ص ٢٩٨ - ٢٩٩ - حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٩٦ . ابن خلكان : جـ ١ ص ٧١ ، ١٨٤ .

بل تسلل الشافعية إلى منصب القضاء فى هذا العصر حينما تولى أبو زرعة محمد بن عثمان بن ابراهيم الثقفى [1] .

وكما رسخت قواعد المذهب الشافعى فى مصر ، وفد مذهب أبى حنيفة وأصاب من النجاح بقدر ما أصاب المذهب السابق ، وبرز من رجاله فى عصر بنى طولون القاضى بكار بن قتيبة ، وكانت لبكار هذا أصالة فى العلم وقدم راسخة فى رواية الحديث ، فلما رفض خلع الموفق حبسه ابن طولون فطلب أصحاب الحديث إلى ابن طولون أن يأذن لهم بالسماع عنه فى سجنه فأذن لهم « فكان بكار يحدثهم من طاق فى السجن إلى أن مات سنة ٢٧٠ هـ [2] » ويظهر أن قدم المصريين قد رسخت فى دراسة الفقه الحنفى بظهور أحمد بن محمد بن مسلمة الطحاوى بدأ حياته متتلمذاً على بكار ، ثم استقل بعلمه ، وألف كتباً كثيرة فى فقه الحنفية منها كتابه « المختصر فى الفقه [3] » .

وفى نفس الوقت الذى ازدهر فيه فقه الشافعية والحنفية ارتفع شأن المالكية وبرز فى هذا الميدان محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى انتهت إليه رياسة المالكية فى ذلك العصر ، وقصده الناس من كافة البلاد وحضر إليه الطلاب من المغرب والأندلس للاستزادة من فقه مالك [4] .

ويبدو أن أحمد بن طولون كان يضفى حمايته وعطفه على هذه المدارس الفقهية على قدم المساواة ، فقد رأيناه يحضر دروس الشوافع والحنفية ، وإذا به فى نفس الوقت يجالس محمد بن عبد الحكم ويجرى عليه الأرزاق [5] . وقد ظل محمد بن عبد الحكم رئيساً للمالكية حتى توفى سنة ٢٩٨ .

---

(١) الكندى : ملحق القضاة ص ٥١٨ – طبقات السبكى جـ ٣ ص ١٧٤ .

(٢) الكندى : ص ٤٧٨ .

(٣) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٦٣ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٣٧ – النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٤ .

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٤٤٩ .

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية فى العصر الطولونى على يد الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاد . نشأ فى مصر ورحل إلى العراق ثم عاد إلى مصر ووضع كتاب « المنمق فى النحو وتوفى سنة ٢٩٨ هـ » (١) . وأنجبت المدرسة اللغوية أيضاً أحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب « المهذب فى النحو » . عرض فيه للخلاف بين البصريين والكوفيين ، وقرأ كتاب ابن قتيبة على طلابه من المصريين والأندلسيين . فقد روى السيوطى (٢) أن محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالأفشين القرطبى رحل إلى المشرق ولقى بمصر أبا جعفر الدينورى ، وأخذ عنه كتاب سيبويه . وشهدت مدرسة اللغة ظهور أبى جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل صاحب كتاب « معانى القرآن ومنسوخه » ، كما ألف فى النحو واللغة والأدب ، ويضيف ابن خلكان (٣) إلى هؤلاء محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبى زرعة المؤذن ، وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن إسحق سنة ٢٩٢ .

والقرن الثالث هو العصر الذى خطا فيه تدوين التراث العربى خطوات وبعيدة المدى ، وظهرت الدراسات التاريخية على يد الطبرى والبلاذرى متسمة بطابع أهل الحديث من الدقة وإثبات السند والتحرج فى الرواية .

وقد شاركت مصر فى هذه النهضة التاريخية بظهور عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم فى نفس العصر ، وكان معاصرا لهذين الكاتبين ، انحدر من بيت علم وفقه ودين ، عنى بجمع كل الأحاديث المتعلقة بمصر ، ونقل عمن يثق بروايتهم إما مشافهة ، وإما اعتماداً على متون مكتوبة ، فقد نقل عن يحيى بن عبد الله بن بكير المتوفى سنة ٢٣١ (٤) وعن الواقدى وهو يشير فى

(١) محمد كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٦٨ .
(٢) بغية الوعاة ص ١٠٨ .
(٣) ابن خلكان : جـ ١ ص ٢٩ .
(٤) مقدمة ابن عبد الحكم ، فتوح مصر – طبعة تورى .

أكثر من صفحة من كتابه إلى اعتماده على متون مكتوبة بقوله « هكذا وجدت فى كتابى [1] » . وظهر فى أسلوبه طابع العصر من تحرى الضبط والتحقيق والعناية بالوطن المصرى يتقصى أخباره وجمعها والتأريخ للقضاة ورواة الحديث ، والتعرض لتاريخ مصر القديم ، والإشارة إلى لمحات من هذا التاريخ فيها مسحة من الصدق وكتب فى الخطط اعتماداً على روايات أهل الفسطاط أنفسهم ، ثم على مشاهداته الشخصية ، فقد كانت المدينة محتفظة فى النصف الأول من القرن الثالث ببقية من طابعها القديم ، وقد اعتمد عليه اللاحقون مثل ابن دقماق والمقريزى والسيوطى .

وإذا كان ابن عبد الحكم فى الحقيقة يمت إلى العصر السابق على الطولونيين أكثر مما يمت إلى العصر نفسه ، فقد كانت وفاته بعد ظهور ابن طولون بنحو ثلاث سنوات ، فإن أحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية يمثل بحق الخطوات التى قطعتها الدراسات التاريخية فى العصر الطولونى [2] ، فقد ألف كتباً فى سيرة ابن طولون وسيرة أبى الجيش ، ويذكر أن له كتباً أخرى منها كتاب أخبار غلمان بنى طولون وكتاب حسن العقبى ، وكتاب أخبار الأطباء ، وكتاب المكافأة الذى يتمثل فيه طابع العصر : عصر الترجمة والنقل من المعارف القديمة على نطاق واسع . ففى كتاب المكافأة أكثر من إشارة إلى معرفته بعلوم الإغريق واطلاعه على مؤلفات أفلاطون [3] .

كما تظهر من هذا الكتاب ومن كتبه الأخرى ثقافة واسعة إلى أبعد الحدود فهو كاتب وهو شاعر ينقل ديوان شعره إلى العراق . وهو عالم بالهندسة والفلسفة ، ثم هو ذو نظر نافذ يغوص فى صميم المجتمع المصرى ، ويعرض لجوانب من هذا المجتمع عرض الناقد المتفحص . وقد أتاح له اتصاله بالأمراء ورجال الدولة والكتاب والعمال والفلاحين خبرات اجتماعية واسعة المدى صورت فى كتاب المكافأة .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) كامل حسين : أدب مصر الاسلامية ص ٩٠ .

(٢) أحمد أمين : مقدمة المكافأة .

وظهر مع ابن الداية أسلوب جديد فى كتابة التاريخ ليس فيه صرامة الفقهاء أو جفاف أهل الحديث ، إنما يظهر فيه طابع جديد يثبت الرواية ولا يهمل القصة يحكى الخبر ولا يفوته التعليق أو الدعابة أو الفكاهة . ويمثل هذا الأسلوب تطوراً عظيما حقا فهو بداية الأساليب العربية المصرية التى ظهرت بوضوح فى كتب المتأخرين من مؤرخى مصر ، الأسلوب الذى لا يهمل البيان العربى إنما يعبر تعبيراً مصرياً ، فهو كان يستعمل عبارات أدبية مصرية هجر بعضها وبقى بعضها . نرى فى هذا الأسلوب شيوع الاستفهام من غير أدوات الاستفهام وفيه التعبير « ببراء الساحة كما تعبر اليوم [1] » .

ويمكننا أن نضيف إلى نمو الثقافة العربية وبداية ازدهارها على هذا النحو تطوراً آخر شهده العصر الطولونى وهو شيوع الثقافة فى مصر كلها ، فلم تعد هذه الدراسات العربية مركزة فى المدارس التقليدية فى الفسطاط والقطائع والاسكندرية . إنما أوغلت هذه الثقافة فى الدلتا والصعيد ، وظهرت مراكز إقليمية أخرى أسهمت فى هذه النهضة الفكرية ، فالأدفوى [2] يشير إلى من يسمى قحزم بن عبد الله الذى سكن أسوان وكان فقيهاً شافعياً ، بل كان من عمد الدراسات الإسلامية فى أسوان ، ويشير كذلك إلى محمد بن أحمد بن ربيعة بن سليمان فقيه أسوان الذى مات بعد سقوط الطولونيين ببضع سنوات ، وألف قصيدة من نحو ألف بيت فى تاريخ العالم والأنبياء وفى علوم العصر من الفقه والطب والفلسفة [3] .

بل امتدت هذه النهضة فاقتحمت ميدان الأدب شعراً ونثراً ، فلم يعد الشعر المصرى فى العصر الطولونى صوراً من الشعر العربى فى الأقطار الأخرى من حيث المعانى والخيال ، إنما بدأ الشعر يتخذ طابعاً إقليمياً ، بدأ يختص بالبيئة المصرية ويعبر عن مشاكلها ويصف معالمها ويترجم عن حيـــاة

---

(١) أحمد أمين : مقدمة المكافأة .
(١) الطالع السعيد : ص ٢٥٩ .
(٢) Les Tulunides p. 285 .

بلاطها ، ويبكى على أطلالها بعد دروس معالمها . أو كما يقول الدكتور كامل حسين « وضح أثر اللهو وانغماس الشعراء فى تيار المجون والدعابة ، والمصرى بطبعه ميال إلى الفكاهة والدعابة ، كما تجلى فى هذا الشعر التعبير عن الطبيعة وشاع وصفها فى شعر ذلك العصر ، أو بمعنى آخر بدأ هذا الشعر العربى المصرى يتميز بلون خاص ومذاق محلى ليمتاز عما شاع فى بيئات الشعر الأخرى [1] » . أو بعبارة أخرى ظهر الأدب المصرى مصطبغا بالصبغة المصرية الخالصة [2] . كما أشرنا إلى الخطوات التى قطعها النثر فى أسلوب كتاب ديوان الإنشاء أو فى أسلوب المؤرخين من أمثال ابن الداية .

بقى أن نعرف نصيب العصر الطولونى من حركة الترجمة من المعارف القديمة وشيوع العلوم الأخرى التى تسمى بالعلوم الدخيلة ، ومدى الامتزاج بين الثقافة المصرية وبين الثقافات القديمة التى عرفت فى مصر منذ زمن بعيد . ونعتقد أن مصر لم تتخلف فى هذا الميدان ، وأنها شاركت العالم الإسلامى كله فى الانتفاع بعلم الإغريق والإفادة منه ، ولم يكن من المعقول ألا تفيد مصر من ظاهرة شاعت فى جميع الأوطان الإسلامية إذ ذاك .

وفى كتاب المكافأة لابن الداية إشارات إلى انتفاعه بالمعرفة الإغريقية وفهمه إياها وإفادته منها . وهو على الخصوص مغرم بأفلاطون معجب بسيرته ويقتبس من حكمه . ومن أمثلة اقتباساته من أفلاطون قوله « وقد مثل بعض الفلاسفة لحسن المكافأة بحسام الصيقل الذى يحدث وقوع الشمس عليه انبعاث شعاع منه يجلو غياهب الأمكنة ويكون وفور شعاعه على حسب صقالته » [3] . وينقل عن أفلاطون مباشرة قوله « من حسنت مكافأته لم تغضبه خيبته فيما التمسه [4] » .

---

(1) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(2) محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .
(3) المكافأة ص ١٠٤ .
(4) المكافأة ص ١٠٤ .

ثم يكشف ابن الداية عن مصدر هذه المعرفة بثقافة الإغريق فيعترف بأنه صحب رجلا من المسلمين الذين اشتغلوا بالطب واسمه على المتطبب المعروف بالديدان وأن هذا الطبيب « كان حسن المعرفة بكتب أفلاطون ورموزه مبرزا فى الطب [1] » ، وليس أدل على شيوع المعرفة الإغريقية بين أوساط المسلمين فى مصر من هذا القول الذى اقتبسه ابن الداية .

وشهدت مصر فى العصر الطولونى ألوانا من العلوم التى شاعت فى هذا العصر مثل علم الكلام ، فيشير ابن الداية إلى رجل يسمى محمد بن يزيد الواسطى ويذكر أنه كان من البارزين بين علماء الكلام وأنه توفى سنة ٣٢٣ [2] .

ويبدو أن صناعة الطب فى مصر قد أفادت من تقاليد مدرسة الاسكندرية القديمة ، وأنها قطعت شوطا بعيداً فى طريق ذيوعها بين الناس ، ومن حسن الحظ أن البلوى [3] فى حديثه عن أيام ابن طولون الأخيرة ومرضه وخلافه مع أطبائه أمدنا بأخبار طريفة عن صناعة الطب فى مصر فى آخر أيام أحمد بن طولون . وقد تبين لنا أنها لم تعد وقفا على غير المسلمين ، لا ننكر أن سعيد بن تيوفيل كان طبيب ابن طولون المفضل ، وأنه كان « حاذقا فى صناعته فاره فيها [4] » إلا أنه يتبين مما ذكره البلوى أن هذا العلم شاع بين المسلمين ، وهو يشير إلى طبيب يسمى الحسن بن زيرك اشترك فى علاج ابن طولون ، وكان « حاذقا فى صناعته مقدما فيها [5] » . وقد شاعت صناعة الطب فى مصر فى ذلك العصر وكثر المشتغلون بها ، فلما ثقلت وطأة العلة على ابن طولون « أمر بجمع أطباء البلد الموصوفين فى التقدم فى الصناعة والحذق ... وكانوا إذ ذاك متوافرين [6] » .

(١) نفس المصدر ص ٧٨ . (٢) المكافأة ص ٦٠ .
(٣) سيرة ابن طولون ص ٣١٩ - ٣٢٣ .
(٤) البلوى : ص ٣١٩ .
(٥) البلوى : ص ٣٢١ . (٦) البلوى : ص ٣٢٢ .

ونستمد من البلوى أخبارا أخرى طريفة تلقى ضوءاً على صناعة الطب فى عصر بنى طولون ، كانت لهم أزياؤهم الخاصة : تتألف من دراعة (جبة من صوف مشقوقة المقدم) وخف وعمامة ، وكان لكل طبيب منهم أعوانه ومساعدوه من « الشاكرية » مهمتهم دق العقاقير وعجن الأدوية ونفخ النار . وكانت لهم وسائلهم فى الفحص والعلاج ، يحددون للمريض أنواع الأطعمة ويجسون النبض أو يفحصون الفضلات ، بل كان بعضهم يستخدم علم النفس فى العلاج . يستفاد مما ذكره البلوى أن الحسن بن زيرك استخدم هذا الأسلوب فى علاج أحمد بن طولون « خفف عليه بالراحة فى داره والطمأنينة وملاطفة النساء له بالغمز مرة وبالهدوء أخرى ... ووفق النساء بالعليل يحدث راحة وكذلك محادثة الصديق المحب أو الصاحب المخلص واستماع الأخبار أو الأحاديث من جد وهزل تحدث سلامة وراحة قوية ومرحا فى القلب [1] » .

---

(١) البلوى : ص ٣٢١ .

المراجـــــع

آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى (القاهرة ١٩٢٧)
الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والاندلس
(ليدن ١٨٦٤-١٨٦٦)
الادفوى : الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد
(القاهرة ١٩١٤)
الاصطخرى : كتاب مسالك الممالك (ليدن ١٩٢٧)
برنارد لويس : العرب فى التاريخ (بيروت ١٩٥٤)
البلوى : سيرة أحمد بن طولون (دمشق ١٣٥٨ هـ)
Grohmann : Arabic Papyrie in the Egyptian Library vois I, II, III.
: Apercu de Papyrologie Arabe .
جرونباوم : تأثر الأمم الإسلامية بمدنية الغرب .
الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب (القاهرة ١٩٣٨)
حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى أفريقية
(القاهرة ١٩٥٨)
ابن حوقل : المسالك والممالك (ليدن ١٨٧٣)
ابن خرداذبة : كتاب المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩)
ابن خلدون : المقدمة (بيروت)
ابن خلكان : وفيات الأعيان - جزءان (القاهرة ١٢٩٩ هـ)
ابن الداية : المكافأة (القاهرة ١٩٤١)
زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر (القاهرة ١٩٣٥)
Les Tulunides, etude de l'Egypte Musulmane a la fin du 1Xe Siecle (868 - 905) , Paris 1933
السبكى : طبقات الشافعية الكبرى- ٦ أجزاء (القاهرة ١٣٢٤ هـ)
ابن سعيد الأندلسى : المغرب فى حلى المغرب (القاهرة ١٩٥٣)
سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام (القاهرة ١٩٤٧)
سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين (القاهرة ١٩٥١)
السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة
(القاهرة ١٣٢٦ هـ)
السيوطى : حسن المحاضرة - جزءان (القاهرة ١٣٢٧ هـ)

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك - الجزء السابع والثامن
(القاهرة ١٩٢٩)

ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، طبعة (Torry)
(نيوهافن ١٩٢٢)

ابن عبد ربه : العقد الفريد (القاهرة ١٩٢٨)

Wiet : L'Egypte Arabe
(Histoire de la Nation Egyptienne tome IV)

القلقشندى : صبح الأعشى - ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ ، ١٩٤٩)

Combe , Sauvaget, Wiet : Repertoire Chronologique d'Epigraphie arabe

الكندى : الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨)

Lane - Poole : Arabe Coins at Cairo
London 1897

Lane - Poole : A history of Egypt in the Middle ages
London 1925 .

أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الثالث .

محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى .

محمد كامل حسين : أدب مصر الإسلامية .

مرقس سميكة باشا : دليل المتحف القبطى (القاهرة ١٩٢٠)

المسعودى : التنبيه والاشراف (ليدن ١٨٩٣)

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٣٤٦ هـ)

المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧)

المقريزى : الخطط (القاهرة ١٢٧٠ هـ)

Marcais : Manuel d'art Musulmane , Paris 1926 .

Muhammed Abdelaziz Marzouk : History of Textile Industry in Alexandria
Alexandria 1955.

ابن النديم : الفهرست (ليبزج ١٨٧١)

ياقوت الحموى : معجم البلدان - ٦ أجزاء (ليبزج ١٨٦٦)

اليعقوبى : كتاب البلدان (ليدن ١٧٩٢)

رقم الابداع	٨٩١ـ٢١٥٨
الترقيم الدولى	٩٧٧ـ١٠ـ١٣٤١ـ٠